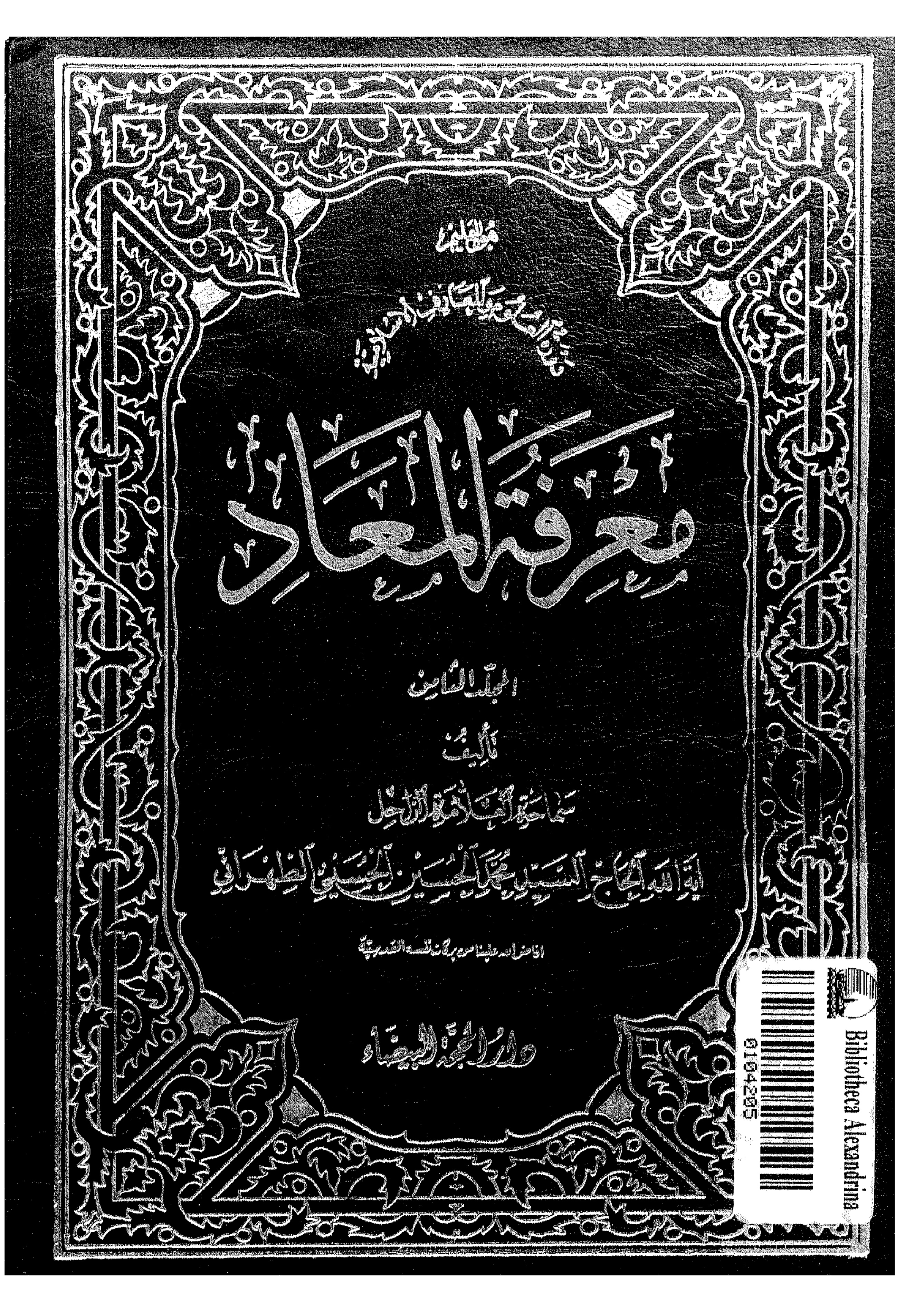

دورة العلوم والمعارف الإسلامية
معرفة المعاد
المجلد الثامن
تأليف
سماحة العلامة الراحل
آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني
أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسية
دار المحجة البيضاء
Bibliotheca Alexandrina
0104205











بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ-١٩٩٨م



دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع = بيروت - لبنان ص. ب: ١٤/٥٤٧٩

هو العليم

دورة العلوم والمعارف الإسلامية

٣

معرفة المعاد

الجزء الثامن

تأليف

سماحة العلامة الراحل

آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسية

تعريب

عبد الرحيم مبارك

دار المحجة البيضاء



الحسينيّ الطهرانيّ ، السيّد محمّد الحسين ، ١٣٤٥ ـ ١٤١٦ هـ.ق.
معرفة المعاد / لمؤلّفه السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ . ـ بيروت:
دار المحجّة البيضاء ، ١٤١٥ ـ هـ. ق .
١٠ ج . ٢٦٩ ص . ـ (دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة ؛ ٣)
الطبعة الأُولى : ١٤١٩ ـ هـ. ق .

العنوان .
٢٩٧/٤٤ BP٢٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسّسة ترجمة ونشر (دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة)

من تأليفات

العلّامة آية الله الحاج السيّد محمّد الحسين الحسيني الطهراني

دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة (٣)

معرفة المعاد

الجزء الثامن

المؤلف : سماحة العلّامة الرّاحل آية الله الحاجّ السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس الله نفسه الزكيّة

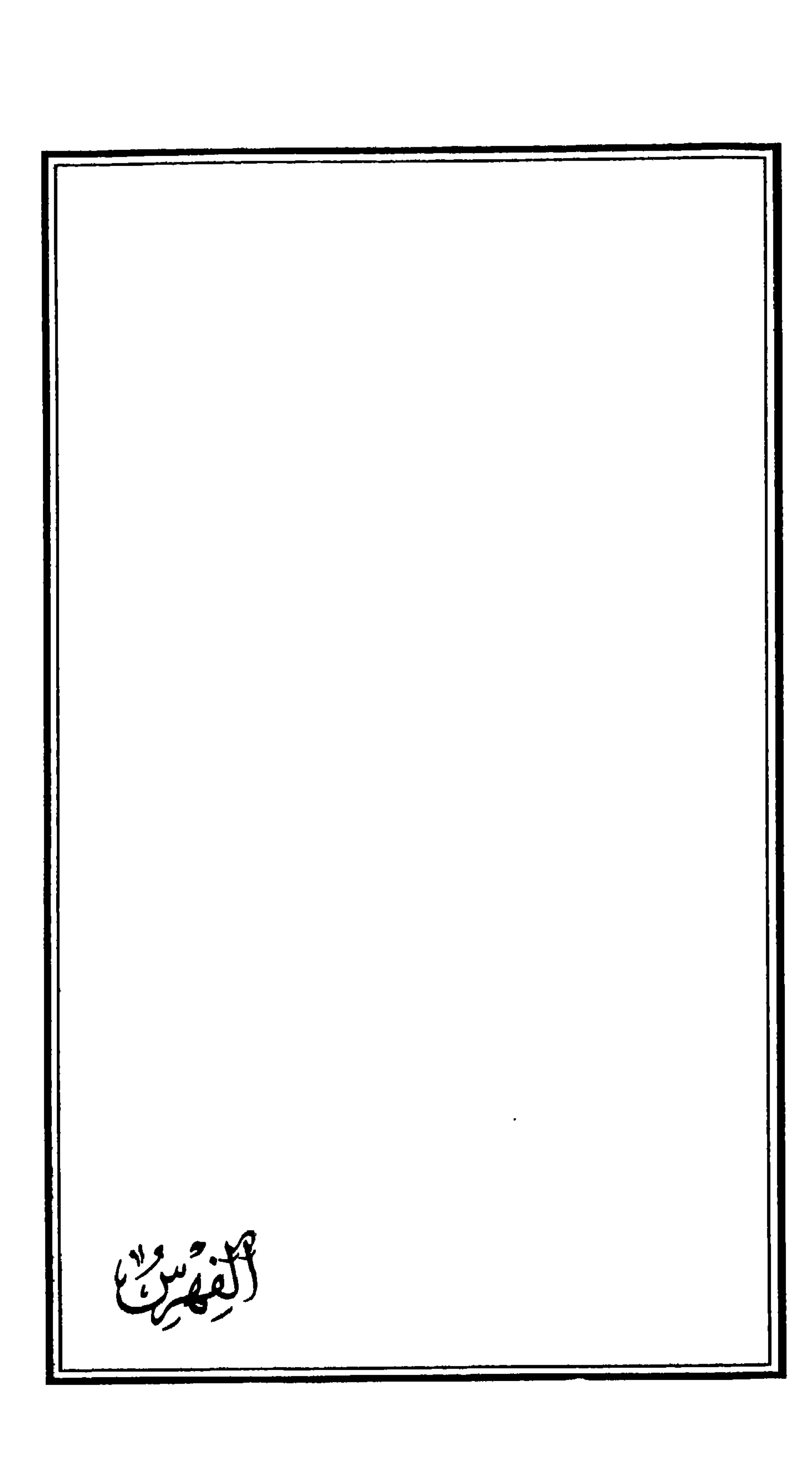
تعريب : عبد الرحيم مبارك

الطبعة الأُولى : ١٤١٩ هجريّة قمريّة

عدد النسخ : ٢٠٠٠

الناشر : دار المحجّة البيضاء




الفهرس



فهرس مطالب وموضوعات
معرفة المعاد
الجزء الثامن

المطالب | الصفحات

المجلس الحادي والخمسون :
في حقيقة الصراط ومعناه يوم القيامة
الصفحة ٣ إلى الصفحة ٢٤

يشمل المطالب التالية :

الدرس الثاني والخمسون:

في حقيقة الصراط، وانحصار مصداقه الأعلى بأمير المؤمنين

الصفحة ٢٧ إلى الصفحة ٥٩

يشمل المطالب التالية:

الدرس الثالث والخمسون:

صراط جهنّم والطريق إلى الجنّة

الصفحة ٦٣ إلى الصفحة ٨٠

يشمل المطالب التالية:

فهرس المطالب والموضوعات

المطالب | الصفحات

الدرس السابع والخمسون :

اختلاف طبقات الناس في يُسر الحساب

الصفحة ١٦٥ إلى الصفحة ٢٠٩

يشمل المطالب التالية :

الدرس الثامن والخمسون :

عموميّة الحساب والسؤال يوم القيامة لجميع الناس

الصفحة ٢١٣ إلى الصفحة ٢٦٣

يشمل المطالب التالية :

المجلس الحادي والخمسون

في حقيقة جهنم، والصراط ومعناه يوم القيامة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا.[1]

يستفاد من هذه الآية أنّ لجهنم طريقاً يوصل سالكيه من الكفّار والظالمين إليها .

وقال تعالى :

ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ.[2]

وقد بيّن في هذه الآية الشريفة أيضاً أنّ هناك طريقاً موصلاً إلى الجحيم ، والمراد بالجحيم جهنّم ، إذ يُطلق لفظ **الجحيم** على كلّ نار يلفحها الهواء أو تُنفخ في الموقد فتتّقد ويتأجّج لهبها .

١ـ الآيتان ١٦٨ و ١٦٩ ، من السورة ٤ : النساء .

٢ـ الآيات ٢٢ إلى ٢٦ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

جَحَمَتِ النارُ جَحْماً وجَحَماً ، وجَحُمَت النارُ جُحُوماً ، اشتعلت واضطرمت وتأجّجت ، ومن باب جَحَمَ ـ جَحْماً المتعدّي ، وهو إشعال النار وإضرامها .

وصراط جهنّم هو أحد المنازل التي يتوجّب على الكفّار والظالمين عبوره ، والطريق الذي يجب على المؤمنين أيضاً اجتيازه للوصول إلى الجنّة . ويعلو هذا الصراط جهنّم أو يمرّ في داخلها ، وهو كالجسر الذي ينبغي على جميع الناس عبوره . ويدعوه العوامّ خطأً بـ (جسر الصراط) [1] لأنّ الجسر والصراط لفظان مترادفان لهما معنى واحد ، وليس صواباً أن يُضاف الاسم إلى مرادفه . ونظير ذلك تعبير «شب ليلة الرغائب» ، وتعبير «سنگ حجر الأسود» . [2]

وعليه ، فينبغي لنا أن نعلم المكان الذي نُصِب فيه هذا الجسر ، أهو على جهنّم أم في داخلها ؟

وهل يتوجّب اجتيازه على جميع الأفراد ، أم على بعضهم ؟

وهل ينبغي حتماً على من يريد الوصول إلى الجنّة أن يعبر هذا الصراط ، أم أنّ للجنّة طريقاً آخر غيره ؟

وما هي حقيقة الصراط أساساً ؟ ولِمَ يتوجّب على الإنسان أن يعبره ليصل إلى الجنّة ؟

وما التلازم بين الذهاب إلى الجنّة والعبور على الصراط ؟

لا ريب أنّه في باطن ووجدان كلّ فرد من أفراد البشر الذين يعيشون في هذه الدنيا هدف ومقصد يتحرّك لبلوغه ؛ سواءً كان على علم بذلك

١ـ ترجمة «پل صراط» وهو تعبير يستعمله عوامّ الناطقين بالفارسيّة . (م)

٢ـ تعبيران فارسيّان ، و «شب» في الفارسيّة : «ليلة» ، و «سنگ» بمعنى «حجر» . (م)

أم لا .

فكلّ فرد شاء أم أبى يتحرّك في ذاته وحقيقته باتّجاه ذلك المقصد ، ويهدف من خلال أعماله وأفعاله إلى ترميم نقاط الضعف في وجوده ، وإلى تأمين احتياجاته الباطنيّة والنفسيّة .

وممّا لا شكّ فيه أنّنا حين نعيش في هذه الدنيا ، نكون في حركة إلى الأمام سنة بعد سنة حتّى يأتي أجلنا فيتعيّن علينا الرحيل . لذا فمن الطبيعيّ أن يكون لنا كذلك سيراً وكدحاً باطنيّاً نحو هدف معيّن . ولا يكون هذا السير بين المسافات المكانيّة الدنيويّة ، أي أن نتحرّك من نقطة معيّنة لبلوغ نقطة أُخرى ، بل هو سير باطنيّ وتحوّل ذاتيّ .

وهذا السير عامّ ، لأنّ لجميع أفراد البشر سير في ملكاتهم ، الأسود منهم والأبيض ، المؤمن منهم والكافر والمنافق . وهذه الحركات الخارجيّة التي تصدر عنهم إنّما هي لإصلاح نقاط الضعف الموجودة في أنفسهم ، إلى أن يصلوا إلى نهاية السفر وهم يظنّون أنّهم قد بلغوا هدفهم المنشود وقاموا بإصلاح أنفسهم من العيوب وترميم نقاط ضعفهم .

وممّا لا شكّ ولا ريب فيه أيضاً أنّه في عين امتلاك جميع أفراد البشر للغرائز ، إلّا أنّ تلك الغرائز والملكات متفاوتة لديهم . فبعض منهم يُخلق شجاعاً ، والبعض الآخر جباناً . بينما لبعض متوسّطي الحال درجات ومراتب مختلفة . فكما يمتلك البعض مَلَكة الحياء منذ الطفولة ، يتميّز البعض الآخر بالفظاظة والوقاحة . وكذلك الأمر بالنسبة إلى تفاوت سائر الصفات الأُخرى لدى الأفراد ، سواء كانت ذميمةً كالبخل والحسد والحقد وحبّ الانتقام ، أم كانت حسنة حميدة . ولكلّ فرد من هؤلاء سير في ملكاته وغرائزه تلك ، وعليه أن يُوصلها إلى حدّ الاعتدال .

لذا ينبغي على كلّ فرد أن يُكمل نفسه حسب قابليّته واستعداده ليكون إنساناً سويّاً معتدلاً في أخلاقه وملكاته بلا إفراط ولا تفريط .

ويستفاد هنا أنّ في ذات كلّ شخص طريق خاصّ إلى الله تعالى ؛ لذا قال أهل الحكمة :

الطُّرُقُ إلَى اللَهِ بِعَدَدِ أَنْفَاسِ الخَلَائِقِ.

أي من حيث النفسيّة الخاصّة التي يمتلكها كلّ موجود؛ فإنّ له طريقاً خاصّاً من باطنه إلى الله تعالى . وبطبيعة الحال ، فهذه العبارة ليست آية ولا رواية ، بل هي من أقوال الأعلام ، وهي مقولة صحيحة وصائبة .

وبغضّ النظر عن ذلك ، فلقد جاء الأنبياء والأولياء لدعوة الإنسان إلى الله عزّ وجلّ ، وليضعوا له خطّة عمل بلحاظ الباطن والوجدان ـ ناهيك عن خطّة عمل للخارج ـ من أجل أن يسير على ضوئها فيبلغ هدفه . على أنّ تلك الطرق التي عيّنوها لبلوغ هذه الغاية مختلفة ومتفاوتة .

ومع أنّ الشرائع الإلهيّة تدعو برمّتها إلى التوحيد ، إلّا أنّها متفاوتة تكاملاً من حيث القوانين والأوامر . فشريعة النبيّ موسى ـ مثلاً ـ تختلف عن شريعة النبيّ عيسى .

كما أنّ شريعة النبيّ إبراهيم تنتهج طريقاً خاصّاً . أمّا شريعة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله المكمِّلة والمتمِّمة لجميع الشرائع ، فتشير إلى الصراط المستقيم الذي يقود جميع قوى الإنسان من حالتَي الإفراط والتفريط إلى الصراط الأوسط ، صراط العدالة ، ويبلغ بالإنسان إلى هدفه في أسرع وقت وأقصر طريق .

ولقد عاش النبيّ نوح على هذه الأرض تسعمائة وخمسين عاماً بين قومه ، حسب ما ذكر القرآن ، أمّا رسول الله صلّى الله عليه وآله فكانت

حياته الدنيويّة ثلاثاً وستّين سنة ، امتلك فيها مقامات ودرجات عالية من المسلّم أنّه لم يحظ بها النبيّ نوح ـ مع كونه جدّ نبيّنا الأكرم ـ وبلحاظ النهج فقد كان تلميذَ مدرسة ابنه ، وربيبَ ولايته وروحانيّته .

وَإنِّي وَإنْ كُنْتُ ابْنَ آدَمَ صُورَةً فَلِي فِيهِ مَعْنىً شَاهِدٌ بِأُبُوَّتِي [١]

لذا نلاحظ أنّ آدم أبا البشر ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء على نبيّنا وآله وعليهم الصلاة والسلام كانوا يتوسّلون بالأنوار الطيّبة للخمسة آل الكساء لرفع الموانع الغيبيّة ، ولفتح سُبل السلام ، ولطيّ مدارج القرب ومعارجه .

وعليه فإنّ سبلهم الباطنيّة إلى الله تعالى كانت مختلفة ، إلّا أنّها أيضاً موصلة إلى المطلوب ، وهادية إلى مقام قرب الحقّ ومعرفته .

ويُلاحظ في الآية المباركة :

وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ [٢]

أنّ السبل قد جاءت بصيغة الجمع ؛ أي أنّ هناك سبلاً وطرقاً للوصول إلى الله عزّ وجلّ لكسب مقام القرب والخلوص ، أمّا الصراط المستقيم فواحد لا يمكن أن يكون أكثر من واحد .

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ . [٣]

وَإِذًا لَّأَتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا . [٤]

فالذين يسلّمون للّه سبحانه ولرسوله تسليماً محضاً ، ولا يجدون في

١ـ «ديوان ابن الفارض» ص ١٠٥ ، البيت ٦٣١ من التائيّة الكبرى : نظم السلوك .

٢ـ الآية ٦٩ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

٣ـ الآيتان ٦ و ٧ ، من السورة ١ : الفاتحة .

٤ـ الآيتان ٦٧ و ٦٨ ، من السورة ٤ : النساء .

أنفسهم حرجاً ممّا قضى .. ويطيعون أوامره ومواعظه إطاعة محضة .. أُولئك هم المحسنون المُنعم عليهم بالثبات التامّ والاستقامة ، وبالتالي إتيانهم الأجر العظيم بالهداية إلى الصراط المستقيم .

وقد ورد تعبير «الصراط المستقيم» في القرآن الكريم في ثلاثة وثلاثين موضعاً ، وجميعها بلفظ «المستقيم» ومطلقاً لم يرد لفظ «الصراط» في القرآن بصيغة الجمع «الصُّرُط» ، بل بصيغة المفرد . أمّا السبيل فقد تكرّر كثيراً بصيغة الجمع «السُّبُل» ،كما في الآيات الكريمة التالية :

يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ.[١]

ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا.[٢]

وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا.[٣]

ويستفاد هنا أنّ السُّبل إلى الله سبحانه كثيرة ، أمّا الصراط المستقيم فواحد لا غير ، وأنّ جميع هذه السبل تكتسب من الصراط المستقيم (الذي يمثّل الفاصلة الأقصر بين العبد وربّه) بمقدار قربها منه .

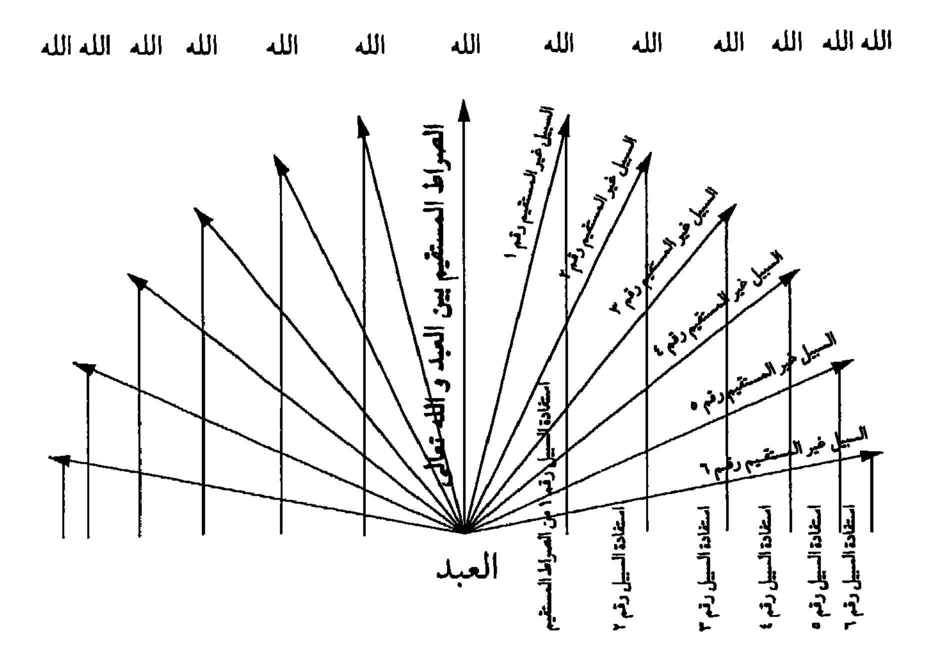
فكلّما زادت زاوية الانحراف المتصوّرة لتلك السبل عن الصراط المستقيم ، تضاءلت تبعاً لذلك استفادتها من الصراط المستقيم ؛ وكلّما قلّت زاوية انحرافها عنه ، تضاعفت في المقابل استفادتها منه .

ولو فرضنا أنّ هذه الجهة تمثّل مقام قُرب الحقّ تعالى ، فسيمكن تمثيل الصراط المستقيم والسبل المختلفة بالشكل التالي :

١ـ الآية ١٦ ، من السورة ٥ : المائدة .

٢ـ الآية ٦٩ ، من السورة ١٦ : النحل .

٣ـ الآية ١٢ ، من السورة ١٤ : إبراهيم . وقد وردت هذه الآية على لسان الأنبياء في ردّهم على الطواغيت والمستكبرين.



والخلاصة فإنّ الإنسان يأتي إلى هذه الدنيا ، فيطوي طريقه فيها إلى أن يموت ، سواءً استفاد من نهج الأنبياء أم لم يستفد ، إلّا أنّه ـ في كلّ حال ـ يمتلك في باطنه سبيلاً ، تكامل بتربية الأنبياء أم بقي ناقصاً غير متكامل ، فالحقيقة التي لا يعتريها الشكّ أبداً هي حركته الباطنيّة الذاتيّة الدائمة .

وسيكون لهذا السبيل الذي يسلك به الإنسان إلى ربّه في الحياة الدنيا ظهورٌ في عالم القيامة . وقد علمنا سابقاً أنّ جميع موجودات وأفعال عالم المادّة والطبع والمُلك والشهادة لها في عالم الغيب والملكوت صورة ملكوتيّة، وإحداها الصراط ، الذي هو الصورة المُلكيّة في هذا العالم لسير الإنسان النفسيّ نحو مبدأه . وصورته الملكوتيّة هناك سيكون الصراط ، إذ

لا ريب في أنّ كلّ امرئ في هذه الدنيا يمتلك صراطاً سيظهر في الآخرة بالهيئة الملكوتيّة لذلك العالم .

ولابدّ أن يكون لصراط الدنيا في عوالم الطبع والمادّة ، والشهوة ، والغضب ، والأوهام والأُمور الاعتباريّة ، ويربط بين الموجودات المتفرّقة على أساس تلك الأُمور الاعتباريّة ؛ صورة ملكوتيّة تمثّل بروز الصورة المُلكيّة وتجلّيها .

وعليه فإنّ حقيقة الدنيا التي جاء إليها جميع أفراد البشر ثمّ رحلوا عنها ستظهر يوم القيامة وتتجلّى في هيئة جهنّم . ولأنّ الصراط هو الطريق الذي يسلكه الإنسان من الدنيا إلى الجنّة ويقع في جهنّم ، لذا يجب عبوره للوصول إلى الجنّة ، لأنّ جهنّم هي كلّ ما يُبعد الإنسان عن الله تعالى . وليس المراد هو العيش على الأرض ، حيث إنّ كلّ فرد حين يقدم إلى هذه الدنيا سوف يكتسب علائق معيّنة ؛ بل المراد بها العيش في عالم العلائق التي تحجبه عن ربّه وتستدعي غفلته ، وستظهر يوم القيامة وتتجلّى في هيئة جهنّم . وقد ورد في الآية الشريفة : وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا.[1]

وجاء في الآيات التي سبقتها :

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَ لَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا * فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا.[2]

١ـ الآيتان ٧١ و ٧٢ ، من السورة ١٩ : مريم .

٢ـ الآيات ٦٦ إلى ٧٠ ، من السورة ١٩ : مريم .

ويستفاد من جملة **وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا** التي تنصّ على التعميم فضلاً على الإطلاق ؛ ومن الحصر بين النفي والإثبات ، أنّ جميع البشر بلا استثناء يردون جهنّم ، المؤمنون منهم والكفّار والمنافقون .

سئل رسول الله : أتدخل النار أنت أيضاً ؟ قال : بلى ، لكنّي أعبرها كالبرق الخاطف .[1]

وجاء في الرواية أنّ رسول الله بكى حين نزلت الآية المذكورة حتّى ابتلّت الأرض من دموعه ، ثمّ نزلت : **ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**.

ولقد كان صلوات الله عليه وآله يبكي ويذرف الدموع رحمةً بأُمّته حين سمع بأنّ الله عزّ وجلّ يورد الأُمّة بأجمعها في جهنّم ، لأنّ مسؤوليّة الأُمّة على عاتق الرسول الحميم الشفيق على أُمّته .

وعلينا أن نرى الآن ما السرّ في ورود الجميع جهنّم ؟ إنّ السرّ يكمن في كون جهنّم مظهراً للدنيا في الآخرة . ولقد جاء الأنبياء والأئمّة والأولياء إلى هذه الدنيا ؛ وهذا يعني أنّهم قد جاءوا إلى جهنّم . وعليهم أن يجتازوها للوصول إلى الجنّة ، ولأنّ الدنيا جسر الآخرة ، وجهنّم جسر الجنّة ؛ ولأنّ بلوغ الجنّة وإدراك مقام قرب الحقّ تعالى أمر متعذّر بدون القدوم إلى الدنيا وبدون المجاهدات النفسانيّة ، فلابدّ للجميع ـ والحال هذه ـ أن يقدموا إلى جهنّم هذه ثمّ لينجوا منها .

ونظائر الأنبياء يأتون إلى الدنيا ويرحلون عنها دون أن يعلق بهم أيّ رجس منها ، ودون أن تلبسهم من مدلهمّات ثيابها أو يصطبغوا بصبغتها ،

١ـ لم أعثر على نصّ كلامه الشريف صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطاهرين فاقتضى التنويه . (م)

ودون أن يحجبهم عن الله تعالى زوجة أو ولد ، ولا كسب ولا تجارة ؛ فيجتازون الدنيا كالبرق الخاطف ، ويغدون مصداقاً للآية الشريفة :

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ.[1]

هم رجال لم تدنّسهم الدنيا أبداً ، ولم تجذبهم إليها .

ويستفاد هنا أنّ ورودهم جهنّم كان من حيث ورودهم إلى هذه الدنيا وخروجهم منها ؛ وبما أنّ قلوبهم لم تنصرف إليها أبداً ، ولم يتعلّقوا بها ولم يتدنّسوا بأوساخها ، لذا لم يتوقّفوا فيها وعبروها كالبرق الخاطف .

ولقد مكث رسول الله صلّى الله عليه وآله في هذا العالم ثلاثاً وستّين سنة ، إلّا أنّه لم يكن في هذه الدنيا لحظة واحدة . ونقصد بالدنيا محبّة غير الله سبحانه ، والولع بزينة هذا العالم ، والميل إلى عالم الباطل والغرور .

وإذاً فقد مكث النبيّ على هذه الأرض ، إلّا أنّه لم يمكث في الدنيا . وحين قدم إلى الأرض فقد عبر كالبرق الخاطف دونما لحظة تأمّل أو وقوف على سائر العلائق الدنيويّة كالرياسة والجاه وحبّ المال وأمثال ذلك .

الدنيا تعني عالم الاعتبار ، والإعراض عن الحقائق والانشغال بالأُمور الاعتباريّة ، والبقاء خلف الحجب الظلمانيّة ، والتنزّل عن مستوى الإنسانيّة ، والعيش في حدود أفكار البهائم والشياطين . فهل كانت هذه حياة رسول الله ؟ أبداً . فحياة الرسول الأكرم لم تكن على هذا النحو أساساً ، ولأنّ النبيّ الكريم لم يعِش طوال عمره الشريف دقيقة واحدة لهدف دنيويّ شأنه شأن أهل الدنيا .

١ـ الآية ٣٧ ، من السورة ٢٤ : النور .

وقد جاء في الرواية أنّ الأنبياء والأولياء يعبرون الصراط كالبرق الخاطف . أفرأيتم السماء حين تومض بالبرق ؟ أرأيتم كيف تحار أعينكم لوميضه ؟ وهكذا وبتلك السرعة يجتاز الأنبياء الصراط .

وما الحياة الدنيا إلّا جسر جهنّم الذي لابدّ من عبوره للخروج منها ، لقد ورد الأنبياء إلى عالم الاعتبار ، إلّا أنّهم عبروه بسرعة ، لأنّهم لم يتعلّقوا بالحياة الدنيا هنا أبداً ، لذا يعبرون الصراط هناك بسرعة أيضاً .

وبغضّ النظر عن الأنبياء والأئمّة والأولياء ، فللعبور درجات مختلفة باختلاف درجات الأفراد من حيث تعلّقهم بالحياة الدنيا ، فالذين تعلّقوا بها ، هم في درجة أدنى وبالتالي فإنّ عبورهم مختلف .

فهناك المؤمنون الذين قد جاءوا إلى هذه الحياة الدنيا وابتلوا بامتحانات عديدة وذلك لقطع كلّ العلائق الدنيويّة والوصول إلى مقام التوحيد ، فإنّهم سيعبرون الصراط بسرعة ، ولكن ليست كسرعة الأنبياء ، بل كسرعة الريح .

ومن أهل الآخرة هناك أفراد لا يمكن عدّهم من الأشقياء ، لأنّهم ليسوا من أهل الذنوب ، بل هم من أصحاب اليمين ، إلّا أنّ قلوبهم تفتقر إلى ذلك العشق والحماس ، وإلى جذبة أهل التوحيد التي تومض كالشرر فتحرق الأوهام والأُمور الاعتباريّة . وعلى الرغم من أنّهم يبحثون عن الله تعالى ، إلّا أنّ بحثهم ينقصه الهمّة العاليّة والعزم القاطع والسرعة الفائقة . وسيعبرون هؤلاء الصراط كمثل راكب الفرس . وكما يحسّ راكب الفرس خلال عبوره جسراً ما بحرارة النار المتأجّجة تحت ذلك الجسر ، فكذلك سيشعر أصحاب اليمين بحرارة النار خلال عبورهم الصراط مع أنّ النار لا تمسّهم .

وهناك آخرون وبالرغم من أنّهم أصحاب اليمين لكنّهم ليسوا على

قدر كبير من الطهارة والنزاهة ، فقد كانت لهم بعض الأخطاء ، وبعض التقصير ، وكانت لهم ذنوبهم التي غفرها الله لهم . وأمثال هؤلاء سيعبرون الصراط بسرعة الراجل .

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.[1]

ونظائر هؤلاء سيدخلون الجنّة دونما شفاعة ـ كما سيأتي لاحقاً في بحث الشفاعة ـ إلّا أنّ عبورهم على الصراط سيكون أصعب وأعسر، كما أنّ عبور الراجل على جسر ما أصعب من عبور الراكب . ولابدّ للراجل من إطالة رؤيته لمنظر النار ، وتأثّره بحرارتها بشكل أشدّ .

وهناك بعض الأفراد ممّن ارتكب الكبائر ، إلّا أنّ الشفاعة شملتهم باعتبارهم من ذوي الإيمان الراسخ . وأمثال هؤلاء يعبرون الصراط بتؤدة وسير أعرج .

أمّا الظالمون والكافرون فيهوون في جهنّم . ولكن كم ستطول إقامتهم فيها ؟ الله أعلم .

وبطبيعة الحال فإنّ درجات الظلم والكفر متفاوتة ، وعلى هؤلاء أن يمكثوا في جهنّم حتّى تطهّرهم النار . والله أعلم كم سيطول بقاؤهم فيها ، فقد يمكثون فيها شهراً واحداً أو شهرين ، وقد يبقون سنة واحدة أو سنتين ؛ وقد يرزحون فيها عشر سنين أو حتّى ألف سنة ، إذ إنّ يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة ، وعليهم أن يمكثوا في جهنّم حتّى يخرجوا منها . اللهمّ إلّا المخلّدون منهم في النار ، الذين استحال وجودهم ناراً . وسيأتي الكلام لاحقاً عن خصائص أحوال المخلّدين في النار .

١ـ الآية ٣٢ ، من السورة ٥٣ : النجم .

إنّ الخارجين من النار يغتسلون في حوض الكوثر ، فيتخلّصون من تلك الظلمات والخرائب ببركة الولاية ، ويذهبون إلى الجنّة طاهرين مطهّرين .

والسؤال ، هل سيقام الصراط على جهنّم أم في داخلها ؟ ليس لدينا رواية صريحة في هذا الشأن ، إلّا أنّ الطبرسيّ ينقل في «مجمع البيان» رواية عن ابن مسعود تلقي أضواءً على المطالب المذكورة . قال :

عَنْ رَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ : يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ ثُمَّ يَصْدُرُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَأَوَّلُهُمْ كَلَمْعِ البَرْقِ ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَحَضْرِ الفَرَسِ، ثُمَّ كَالرَّاكِبِ ، ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ ثُمَّ كَمَشْيِهِ.[1]

وجاء في «تفسير عليّ بن إبراهيم القمّيّ» :

الصِّرَاطُ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ.

وهذا الصراط المستقيم هو نفسه صراط عليّ بن أبي طالب عليه السلام ،فما أدقّه وما أحدّه !

تأمّلوا في أعمال أمير المؤمنين عليه السلام ، وانظروا إلى كلّ لحظة من لحظاته وكيفيّة مراعاته من جميع الجهات لأُمور الظاهر والباطن ، وإلى جمعه بين العوالم ، وإعطائه كلّ ذي حقٍّ حقّه ، وسيره في عالم الوحدة سيراً لا يمزج فيه أحكام ذلك العالم مع أحكام عالم الكثرة ، وإلى إيفائه حقّ عالم الكثرة ، وقيامه عبداً محضاً في مقام العبوديّة للحقّ تعالى ، ومراعاته في كلّ الحركات والسكنات لآثار توحيده عزّ وجلّ في جميع العوالم ، وملاحظته لجميع الجوانب الضروريّة لدرجات السلوك والمجاهدة على أعلى نحوٍ وأتمّه . ليس فقط للحظة واحدة أو للحظتين ، بل في جميع

١ـ «مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٥٢٥ ، طبعة صيدا .

مراحل حياته الكريمة .

وتأمّلوا كم كان لطيفاً وعميقاً ودقيقاً ! وكم كان قاطعاً محتاطاً مراقباً ! ومن الطبيعيّ أن لا يهوي الإنسان في جهنّم بانحراف بسيط ، بَيدَ أنّه بذلك لا يعطي حقّ ذلك الصراط المستقيم المتناهي الدقّة وبمقدار انحرافه يقلّ حظّه في الانتفاع من الصراط المستقيم . وكلّما زاد الانحراف زاد الخطر الذي يواجهه ، وقلّت استفادته من هذه الخصوصيّة للاستقامة في الطريق .

وهذا الصراط المستقيم هو الذي يقول عنه الإمام الباقر عليه السلام بأنّه أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف ، والذي يختلف عبور الناس عليه ما بين البرق الخاطف وسرعة الريح وحضر الفرس وكالراكب وكشدّ الرجل ومشيه ، وذلك بنفس درجة انحراف سلوكهم ونهجهم عن سيرة الإمام ونهجه .

وحقيقة المطلب أنّه لابدّ للإنسان أن يعيش في هذه الدنيا ، ثمّ يتخطّاها إلى العوالم الأُخرى ، فإذا عاش مقتدياً بالأنبياء والأئمّة الطاهرين في صدق وأمانة وتوحيد ، فقد عبر الدنيا عبوراً حسناً ، وإلّا فقد خسر ، لأنّ الصراط هو الصورة الواقعيّة الحقيقيّة للإنسانيّة ، وحقيقة تلك الصورة سيرة عليّ بن أبي طالب ونهجه .

لقد عمل أمير المؤمنين عليه السلام في الزراعة ، حيث زرع البساتين وحفر قنوات المياه وغرس النخيل ، إلّا أنّه بقي طاهراً مطهّراً من الرجس ، تزوّج وأنجب وبقي الطُّهر الطاهر ، تسلّم منصب الحكم ولم يتدنّس بالأنجاس . هذا بالإضافة إلى الأعمال الأُخرى التي كان يقوم بها كبقيّة الناس ، ومع ذلك فله نهجه المختلف عنهم ، إذ لم تكن له نيّة أو غرض أو قصد إلّا نفس تلك الأعمال خالصة للّه سبحانه وتعالى ، أمّا الناس فيعملون نفس الأعمال ولكن بنوايا عدّة . وهذا هو مفترق الطريق ما بين

أولياء الله وسائر الناس . فلأعمال أولياء الله صبغة إلهيّة ، وهل أحسن منها صبغة ؟

صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً.[1]

وبطبيعة الحال فإنّ أولياء الله لا يرتقون إلى مقام ومرتبة أمير المؤمنين عليه السلام ، ولكن من الممكن أن يصبح صراطهم مستقيماً وأن يعبروه أيضاً كالبرق الخاطف ، وذلك على أثر متابعتهم له واقتدائهم به ، إذ يصلون إلى مقام المقرّبين والمخلصين ، ومن يصل إلى هذا المقام الرفيع ، فلا معنى للنار بعد عنده .

وهذه هي الحقيقة ، فالأئمّة عليهم السلام ، أئمّة لأجل أن يأخذوا بأيدي الناس ليسلكوا بمعيّتهم نفس الطريق .. وإلّا ما صدق معنى الإمامة ... إنّهم الذين يسيرون على الصراط المستقيم ولا فزع لهم ولا هم يحزنون .

لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ.[2]

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ.[3]

وَإِذًا لَّأَتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا.[4]

ولأنّ صراطهم مستقيم ، فإنّهم يعبرون بلحظة واحدة طرفي جهنّم ، كما أنّهم كالأنبياء والأولياء قد تطهّروا من الرجس كلّيّاً ، وهذا من لوازم مقام التسليم والطاعة الذي جعلهم في معيّة الأنبياء والأولياء وحَسُنَ أُولئك

١ـ الآية ١٣٨ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ١٠٣ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٣ـ الآية ٨٩ ، من السورة ٢٧ : النمل .

٤ـ الآيتان ٦٧ و ٦٨ ، من السورة ٤ : النساء .

رفيقاً . وجعلهم من أصحاب الصراط المستقيم ؛ الصراط الذي ندعو الله تعالى كلّ يوم عدّة مرّات بقولنا : **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** ، راجين هدايتنا إليه بكلّ ما للهداية من معنى .

والخلاصة ، فإنّ الله سبحانه سيوفّق لنيل هذا المقام مَن يطع الله ورسوله في الدنيا طاعة محضة ، دون أن يجد في نفسه حرجاً ممّا قضى الله ورسوله ، ويسلم تسليماً مطلقاً ... وهؤلاء هم الذين يقطعون الصراط كالبرق .

أمّا : **أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ؛ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ**.[١]

فهم من السعداء ، بَيدَ أنّهم لم يمتلكوا ذاك الثبات الجازم التامّ في التوحيد ، ولم يرتقوا إلى منزلة المعيّة مع الأنبياء بواسطة تلك الطاعة الصرفة كالسيف القاطع ، ولم يحظوا بدقّة العبوديّة المتناهية ليتحمّلوا الأسرار الخفيّة للأنبياء والأئمّة ، ولم يصلوا إلى لقاء الله تعالى ولم يعرفوا حقّ المعرفة معنى : **إلَهِي مَا عَبَدْتُكَ خَوْفاً مِن عِقَابِكَ ، وَلَا طَمَعاً فِي ثَوَابِكَ ، بَلْ وَجَدْتُكَ أَهْلاً لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ**.[٢]

فهم يقولون : إلهنا ؛ لقد جئنا إلى هذه الدنيا لنعيش ، وأمرتنا أن نفعل كذا وأن نجتنب كذا ، فلم نأكل المال الحرام ، ولم نسرق ، ولم نقامر ، ولم نعتدِ على أعراض الناس ونواميسهم ، لكنّنا نريد أن نعيش هذه الحياة الدنيا ، ونسعى إلى الطعام اللذيذ ، وننتظر وعدك إيّانا بالحور العين **والجنّات والأنهار** ؛ نريد هذه الأُمور ونشتهيها .

١ـ الآيتان ٢٧ و ٨ ، من السورة ٥٦ : الواقعة .

٢ـ «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٥١١ ، الطبعة القديمة ؛ و «شرح نهج البلاغة» لابن ميثم البحرانيّ ، ج ٥ ، ص ٣٦١ .

ومهما خاطبهم تعالى بأنّه سيمنحهم تلك الأُمور ، إلّا أنّ عليهم أن لا يكتفوا ، وأن يتطلّعوا إلى ما فوقها ، وأن يعرفوا غاية إمامهم وهدفه .

هرآنكه كارَد قصدِ گندم بايدش   كاه خود اندر تَبَع مى‌آيدش[1]

قالوا إنّ إمامنا وقدوتنا ، إنّما كان عليّ بن أبي طالب ؛ فما شأننا نحن وأين نحن منه ؟

وعلى هذا ، فإنّ هؤلاء الأفراد أُناس صالحون ، ولكن لا يمتلكون تلك المزايا المطلوبة ،كما أنّهم يفتقرون إلى دقّة الصراط . وسيطول عبور هؤلاء على الصراط بقدر تعلّقهم بالدنيا . إذ سبقت الإشارة إلى أنّ الآخرة يجب أن تُدرَك من خلال الدنيا . لقدكنّا في الجنّة ولكن في جنّة القابليّة لا جنّة الفعليّة . وشتّان بين الجنّة التي عقدنا العزم على الذهاب إليها ، وشددنا الرحال وأعددنا الزاد والراحلة للسفر نحوها ، وبين الجنّة التي كنّا فيها سابقاً ! حيث الفاصلة عبارة عن مائة ألف سنة . فشتّان بين هذه وتلك !

شكر مازندران و شكر هندوستان

هر دو شيرين‌اند امّا اين كجا و آن‌كجا

دانهٔ فلفل سياه و خال مه رويان سياه

هر دو جان سوزند امّا اين كجا و آن كجا[2]

تماماً كالفرق بين شجرة تفّاح كبيرة مترامية الأطراف قد تشابكت أغصانها فأحالت ما حولها إلى روضة غنّاء ، وأُثقلت بألف تفّاحة حلوة

١ـ يقول : «على من يزرع الحنطة ، أن ينتظر التبن الذي يتبعها» .

٢ـ يقول : «سكّر مازندران وسكّر الهند كلاهما حلو المذاق ، ولكن شتّان بين هذا وذاك !

وحبّة الفلفل الأسود وحبّة الخال السوداء على وجه أقمار الطلعة كلاهما تحرقان القلوب ، ولكن لَشَدَّ ما افترقتا !» .

المذاق ، فصارت تخطف الأفئدة بدلالها وغنجها ؛ وبين بذرة تفّاح واحدة . ومع أنّ شجرة التفّاح هذه هي ذاتها بذرة التفّاح تلك . وتلك البذرة هي ذاتها هذه الشجرة ، ولكن أين هذه من تلك ؟! وكم هو كبير الفرق بينهما ؟!

وبينما تمثّل هذه الفعليّة وتجسّد التفّاح الحلو المبهج ، تمثّل تلك القابليّة والإمكان المحض . والأمر على هذا المنوال بالنسبة إلى الجنّة التي وُجدنا فيها سابقاً ، ثمّ توجّب علينا أن نأتي إلى هذه الدنيا ، وأن نعبر من جهنّم ونجتاز مدرسة الامتحان والابتلاء .

إنّ طريق الجنّة هو الصبر والتحمّل والاستقامة .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ.[١]

وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ.[٢]

فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ.[٣]

ومن البديهيّ أنّ علم الله تعالى علم حضوريّ ، وأنّ نفس أعمال الناس وتحققها في الخارج تمثل علم الله عزّ وجلّ ؛ فيكون معنى علمه سبحانه هو نفس إتيان الناس بالأعمال .

الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ.[٤]

ويكون بلوغ جنّة الفعليّة ـ أي الجنّة التي تُدرَك في القيامة بعد طيّ

١ـ الآية ٢١٤ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ١٥٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

٣ـ الآية ٣ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

٤ـ الآيتان ١ و ٢ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

عالم البرزخ ـ بعد اجتياز الامتحانات في الدنيا . فمن تفوّق في امتحانه ونتيجته كان أقرب إلى الصراط المستقيم ، وأجدر وأليق بنهج عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

ومع أنّ أصحاب اليمين هم السعداء الذين عملوا الصالحات واجتنبوا القبائح والسيّئات والأعمال الطالحة ، إلّا أنّهم ـ مع ذلك ـ لم يتمكّنوا من استئصال أساس التعلّق بالدنيا وبما سوى الله تعالى من وجودهم . ونقصد بالدنيا كلّ ما سوى الله عزّ وجلّ ، مهما كان وفي أيّ مقام ودرجة وفضيلة كان .

فغير الله تعالى ـ مهما كان ـ هو دنيا ، ولو كان جنّةً ومقاماً ؛ لأنّ الدنيا هي الحياة الفانية ، فمن لم يحصر هدفه في الذات القدسيّة للحضرة الأحديّة ، عاش حياةً متدنّية ولو تحلّى خلال ذلك بالفضائل والمكارم .

إنّ أصحاب اليمين يعبرون جهنّم ، إلّا أنّهم لم يدركوا حقيقة النار في الدنيا ، فاقتربوا منها بعض الشيء ، لذا سيكونون كالراكب أو الراجل الذي يتحيّر خلال عبوره من مناظر جهنّم ، وينزعج من حرارتها وهوائها المؤذي .

أمّا المقرّبون والأبرار ، فهم الذين عرفوا حقيقة النار ووعوها ، فلم تتعلّق قلوبهم بها ، لذا صاروا يعبرونها كالبرق الخاطف وكالريح العاصفة .

وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا.[1]

وأمّا الذين لم يؤمنوا بالله ولم يعتقدوا بيوم الجزاء ، والذين ظنّوا هذا العالم عالم فوضى لا حساب بعده ، فيقول تعالى عنهم :

١ـ الآية ١٦ ، من السورة ٧٢ : الجنّ .

وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ.[1]

نعم، الصراط هو صراط عليّ بن أبي طالب، **وصِرَاطُ عَلِيٍّ حَقٌّ نُمْسِكُهُ**. ذلك النهج هو نهج الحقّ الذي ينبغي الاقتراب منه والتمسّك به، والدنوّ منه كلّ يوم أكثر فأكثر، حتّى يغدو المرء تابعاً له تمام الإتباع، وحتّى يُضحي لعليٍّ شيعةً ويلحق به ويصحبه إلى الجنّة التي أدركها وسعى إليها. وعليه أن لا يتعدّى ذلك الصراط في جميع الأفعال والأقوال، فذاك ـ لعمري ـ هو الخسران المبين.

نقل المحدّث القمّيّ عن كتاب «مصابيح الأنوار» قال:

بَلَغَنَا أَنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اشْتَهَى كَبِداً مَشْوِيَّةً عَلَى خُبْزَةٍ لَيِّنَةٍ، فَأَقَامَ حَوْلاً يَشْتَهِيهَا، ثُمَّ ذَكَرَ ذَلِكَ لِلْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ صَائِمٌ يَوْماً مِنَ الأَيَّامِ، فَصَنَعَهَا لَهُ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ قَرَّبَهَا إِلَيْهِ، فَوَقَفَ سَائِلٌ بِالبَابِ. فَقَالَ: يَا بُنَيَّ احْمِلْهَا إِلَيْهِ، لَا نَقْرَأُ صَحِيفَتَنَا غَداً: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا».[2]

وقد استشهد الإمام في بيانه هذا بالآية ٢٠، من السورة ٤٦: الأحقاف: وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ.

تأمّلوا عليّ بن أبي طالب هو خليفة المسلمين وحاكم العالم الإسلاميّ وقد اشتهى كبداً مشويّة، فينقضي عليه الحول وهو يغالب اشتهاءه،[3] دون

١ـ الآية ٧٤، من السورة ٢٣: المؤمنون.

٢ـ «سفينة البحار» مادة كبد، ج ٢، ص ٤٥٨.

٣ـ يتّضح من انقضاء سنة على اشتهاء أمير المؤمنين عليه السلام للكبد المشويّة ⇐

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن يسعه المجال لتحقيقه ، ودون أن يُلقي إليه بالاً ، بحيث لم يسعه الوقت ولا الحال طوال سنة كاملة ليقول جملة واحدة : (أريد كبداً مشويّة) .

وبعد مرور سنة ، وعند الإفطار يرى خليفة الإسلام ما اشتهاه ماثلاً أمامه ، لكنّه يعتبر مدّ يده إليه لانتزاع لقمة منه ـ مع وجود سائل يطرق الباب ـ انشغالاً بالحياة الدنيا ، واستمتاعاً بالطيّبات في الحياة الحيوانيّة ، وتنزّلاً عن مقام الإنسانيّة ، فيُعرض عنها دون أن يأمر ابنه بإعطاء السائل نصفها ، بل يقول له : احملها إليه ! فليأكل السائل هنيئاً مريئاً ، ولنتفرّج نحن !

هذه هي الحياة العليا ، وهذه هي الحياة الرفيعة السامية ، وهذه هي حياة الإنسان وتواجده في صراط الإنسانيّة المستقيم : أن يؤثر المرء على نفسه ، فيُعرض عن طعامه الذي اشتهاه طوال سنة ، وصار يراه الآن ماثلاً أمامه على مائدة فطوره ، ويُعطيه للسائل .

هذا هو **الصِّراطُ المُستَقيم** . أُقسم بالله عليكم ، لو فكّرتم من الآن إلى يوم القيامة ، فهل ستعرفون صراطاً أكثر استقامة من هذا الصراط ؟

أَوَ يمكنكم أن تتصوّروا في ذهنكم أفضل منه وأحسن ؟!

إنّني كلّما تأمّلت في هذه القصّة ونظائرها التي ملأت بحمد الله ومنّه صفحات تأريخنا وعطّرتها بسيرة ذلك الإمام وسائر الأئمّة الطاهرين ؛ وقارنتُ ذلك بأُسلوب معيشة خلفاء الإسلام الجائرين أمثال بني أُمّية وبني العبّاس ممّن تسلّطوا على رقاب الناس باسم الإسلام وعنوان خلافة رسول الله ، غمرتني الحيرة والعجب الشديدينِ .

⇦ دون أن يسعه المجال لبيان ذلك ، إنّ هذه القصّة وقعت زمن خلافته عليه السلام وانشغاله باستمرار في إصلاح أُمور المسلمين .

لقد كانت الموائد تبسط لمعاوية وفيها ألذّ أنواع الأطعمة في الدنيا ، من لباب الفستق ودهن مخّ طيور نادرة ؛ فكان يأكل بإفراط دون أن يشبع . وكان يقول : كللت من المضغ ولم أشبع بعدُ !

قيل إنّ زوايا فمه كانت لا تنفكّ مصفرّة من الطعام ، وكان نهماً في أكله عجولاً بحيث كان كُمّ ردائه ملوّثاً بالدسم . ويُعرض حاليّاً أحد أرديته ذات الأكمام المعروفة في أحد المتاحف العالميّة المشهوّرة ؛ وهذا الصراط صراطٌ معاكس للإنسانيّة . لذا نجد أمير المؤمنين عليه السلام يعبّر عن معاوية بالإنسان المعكوس والجسم المركوس :

وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ المَعْكُوسِ وَالجِسْمِ المَرْكُوسِ.[1]

يقول أحد شعراء أهل البيت في عصر الإمام الصادق عليه السلام :

سَمَّاهُ جَبَّارُ السَّمَا صِرَاطَ حَقٍّ فَسَمَى
فَقَالَ فِي الذِّكْرِ : وَمَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى
هَذَا صِرَاطِي فَاتْبَعُوا وَعَنْهُمُ لَا تُخْدَعُوا
فَخَالَفُوا مَا سَمِعُوا وَالخُلْفُ مِمَّنْ شَرَعَا[2]

١ـ الرسالة ٤٥ من رسائل «نهج البلاغة» ج ٢ ، ص ٧٣ بتعليق الشيخ محمّد عبده ، وهي الرسالة التي أرسلها عليه السلام إلى عثمان بن حنيف .

٢ـ «ديوان السيّد» ص ٦٤ . نقلاً عن «أعيان الشيعة» ج ١٢ ، ص ٢١٤ .

المجلس الثاني والخمسون

في حقيقة الصراط، وانحصار مصداقه الأعلى بأمير المؤمنين عليه السلام



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الحمد للّٰه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

اَهْدِنَا اَلصِّرَاطَ اَلْمُسْتَقِيمَ .[1]

تكرّر ذكر الصراط المستقيم في القرآن الكريم ، كما شاع ذكره وتكرّر في السُّنَّة النبويّة وأحاديث المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وسنبحث في هذا المجلس بحول الله وقوّته في حقيقة الصراط ، ثمّ في حقيقة الصراط المستقيم ، ليتجلّى واقعهما للعيان . ولابدّ ـ وصولاً إلى ذلك ـ من مقدّمتين .

المقدّمة الأُولى : إنّ الألفاظ الموضوعة والمستعملة في اللغات المختلفة لدى الجماعات المتباينة لفهم المعاني وتفهيمها ، هي ألفاظ ذات معانٍ عامّة . ولا يمثّل المعنى الموضوع له اللفظ أو المستعمل فيه اللفظ خصوص فرد معيّن من أفراد ذلك المعنى .

فلفظ «المصباح» مثلاً قد وُضع لمعنى عامّ ، وهو عبارة عن موجود نورانيّ يضيء الموجودات المظلمة بأشعّته ، وذلك ضمن مدى إشعاعه .

١ـ الآية ٦ ، من السورة ١ : الفاتحة .

وكان المصباح منحصراً في الماضي بفتيلة توضع في وعاء للزيت ، ثمّ توقد تلك الفتيلة فينبعث منها النور والدخان . وكان ذلك الشيء المعيّن بتلك الكيفيّة الخاصّة يُدعى مصباحاً . ثمّ شاع استعمال النفط والفانوس النفطيّ ، فأضحوا يضعون النفط في وعاء مغلق ويثبتون فيه فتيلة يغطّونها بزجاجة ، ودعوه مصباحاً دون أن يغيّروا في الاسم أدنى تغيير كأنّ معنى المصباح الذي كان يشتعل بالزيت سابقاً ، هو بعينه معنى المصباح النفطيّ ذي الزجاجة .

فلا خصوصيّة إذاً لزيت المصباح ودخان الفتيلة في معنى اسم المصباح ، بل إنّ معناه هو المعنى العامّ الذي يمثّل جسماً نورانيّاً مضيئاً . وباعتبار أنّ هذا المعنى الكلّيّ لا يختلف في هذين الفردينِ من فئة المصباح ، فقد استعمل لفظ «المصباح» للفرد الثاني بنفس العناية التي استعمل بها للفرد الأوّل .

واستمر الأمر على هذا النحو حين اخترع المصباح الغازيّ ، وتبعه المصباح الكهربائيّ بأنواعه المختلفة ، حيث أُطلق عليها بأجمعها اسم المصباح ؛ ولا يختصّ الأمر بلفظ المصباح ، فقد كان لفظ المصباح مجرّد مثال ، بل إنّ الأمر ينسحب على جميع الألفاظ في جميع لغات الدنيا ، حضريّة كانت أم بدويّة .

والأمر على هذه الشاكلة بالنسبة إلى لفظ «الصراط» فهو يعني الطريق والشيء الذي يُوصَل من خلال طيّه إلى شيء آخر ، والواسطة والرابط بين أمرينِ ، بحيث يرتبط ذانك الأمران بينهما من خلال الحركة والسير في تلك الواسطة ؛ سواءً كان ذلك الطريق طبيعياً أم صوريّاً ومثاليّاً أم نفسيّاً ، وبجميع الأقسام والجهات المختلفة التي يمكن تصوّرها في كلّ نوع .

فالفاصلة بين مدينتين أو بيتين تدعى صراطاً ، والفاصلة بين قطبين

كهربائيّين ، وبين الشرايين والأوردة التي تنقل الدم من القلب إلى نقاط البدن وتعيده من نقاط البدن إلى القلب ، وقراءة الكتاب التي تُعدّ طريقاً لتحصيل العلم ؛ والسفر في البحر والصحراء للتجارة ، الذي يمثّل سبيلاً لإعانة خلق الله وتهيئة ضروراتهم المعيشيّة ؛ والزراعة لتحصيل الغذاء ؛ وعبادة الله التي هي سبيل للتقرّب إليه ؛ والموت الذي يجسّد الطريق للورود في عالم البرزخ ؛ والموت من البرزخ الذي يمثّل طريق الورود إلى عالم القيامة ؛ وإظهار الشهادتينِ الذي يعدّ طريقاً للإسلام ؛ والولاية التي هي الطريق للإيمان ؛ وأخيراً الواسطة التي يحتاجها المرء للوصول إلى أيّ شيء ، هي بأجمعها أُمور تدعى صراطاً .

ومن الجليّ أنّه على الرغم من صدق معنى الصراط على جميع هذه المصاديق ، وأنّ هذا الصدق صدق حقيقيّ لا مجازيّ ، إلّا أنّ من البديهيّ أنّ أفراد هذا المعنى تتفاوت فيما بينها . فالطريق إلى«كرمان»هو غير الطريق لتقييم العدالة . وطريق الوصول للمحبوب هو غير طريق الوصول إلى مجهولٍ في المعادلات الجبريّة .كما أنّ طريق الجنّة هو غير طريق حلّ المسائل الرياضيّة .

المقدّمة الثانية : جاء في الآيات القرآنيّة الكريمة والروايات الواردة عن المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أنّ الله عزّ وجلّ قد عيّن طريقاً معيّناً لبلوغ المقام الكريم للإنسانيّة ، وللتقرّب إلى الله وإيصال القوى إلى فعليّتها ، وللقاء الله سبحانه ، ولطيّ مراحل الكمال ودرجاته .كما أنّه نهى عن سلوك بعض السبل . مثل آية :

قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى .[1]

١ـ الآية ١٠٨ ، من السورة ١٢ : يوسف .

وآية : **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى.**[1]

وآية : **وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ.**[2]

أمّا الآن وقد اتّضحت هاتان المقدّمتان ، فنقول بأنّ صراط الله تعالى هو السبيل إليه . ولأنّه عزّ وجلّ ليس له مكان خارجيّ ، فإنّ المقصود من السبيل ـ إذاً ـ هو السبيل من النفس لمعرفة ذات الله القدسيّة جلّ جلاله .

فالإنسان يمتلك حالات روحيّة مختلفة من بداية عمره إلى آخر لحظة من حياته ، كما يمتلك حركات نفسانيّة وملكات أخلاقيّة نشأت من تكرار أعماله وحالاته . فهو ينتقل باستمرار من صورة إلى صورة ، ومن حالٍ إلى أُخرى ، ومن عقيدة إلى أُخرى ، ومن كمال إلى آخر ، حتّى يصبح من المقرّبين والسابقين . فإن أخذت العناية الإلهيّة بيده ، صار من الكاملين . وإن كان من المتوسّطين ، صار من أصحاب اليمين . أمّا لو قاده الشيطان والنفس الأمّارة ، صار من الأشقياء وأصحاب الشمال .

على أنّ في وجدان وباطن نفس كلّ فرد من أفراد البشر طريقاً إلى الله تعالى ، كما أنّ جميع الأعمال التي يقوم بها في الظاهر ، إنّما يقوم بها وفق خطّته الباطنيّة . ويُدعى ذلك الطريق الباطنيّ بالصراط .

وباعتبار أنّ كلّ فرد من الأفراد يمتلك صفاتاً وملكات وغرائز خاصّة ، ويمتلك ـ في النهاية ـ عقائد وشاكلة ومنهاجاً يختصّ به ؛ فإن لكلّ فرد طريقاً خاصّاً إلى الله تعالى . ويتّضح على هذا الأساس بجلاء معنى الكلام المعروف : **الطُّرُق إِلَى اللهِ بِعَدَدِ أَنْفَاسِ الخَلَائِقِ.**

١ـ الآية ٣٠ ، من السورة ٥٣ : النجم .

٢ـ الآية ٨٦ ، من السورة ٧ : الأعراف .

بَيدَ أَنّ هذه الطرق ـ على كثرتها وتعدّدها ـ تعدّ مستقيمة فيما لو بلغت بالإنسان من خلال أقصر فاصلة وأدنى زمان إلى جنّة مرضاة الله الجليل ولقائه والاندكاك والفناء المحض في ذاته عزّ وجلّ. وهذا هو طريق المعرفة الذي يُعتبر كلّ واحد من الأئمّة مبيّناً وشارحاً ومفصّلاً له. بل إنّ وجود الإمام هو نفس الصراط والتحقّق الخارجيّ للصراط المستقيم. الإمام هو الصراط المستقيم، من أجل أن يسلك أتباعه الطريق الذي سلكه وانتهجه.

وباعتبار أنّ الإمام قد طوى، من خلال طريق صفاته، أسرع وأقصر وأقرب الطرق إلى الله تعالى، فإن نفس الإمام تمثّل الصراط المستقيم إلى الله سبحانه، وهو حقّاً طريق أحدّ من السيف وأدقّ من الشَّعرة.

يُروى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال:

إِنَّ الصُّورَةَ الإِنْسَانِيَّةَ هِيَ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَالجِسْرُ المَمْدُودُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ.[1]

وبطبيعة الحال، وكما سبق أن ذكرنا، فإنّ جميع موجودات هذه النشأة لها ظهور في نشأة القيامة، كما أنّ الصراط ـ بدوره ـ له ظهور وتجلٍّ، وذلك الظهور والتجلّي هو الطريق الذي يسلكه الإنسان في الدنيا، لأنّ حقيقة الدنيا تتمثّل في جهنّم، وصراط جهنّم هو الطريق الذي يسلكه الإنسان في الدنيا تجاه الله تعالى. فالبعض يعرج ويتعثّر عند عبوره هذا الصراط فيهوي في جهنّم. وأُولئك هم المغمورون في الشهوات، والمنغمسون في المادّيات واللذائذ الدنيويّة، إلّا أنّهم لمّا آمنوا بالله عزّ وجلّ فقد أضحوا يعبرون الصراط بقدم عرجاء.

١ـ «تفسير الصافي» ج ١، ص ٥٥، طبعة المكتبة الإسلاميّة.

روي في «تفسير القمّيّ» عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال :

هُوَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ مِثْلَ الْبَرْقِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ مِثْلَ عَدْوِ الفَرَسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ مَاشِياً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ حَبْواً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ مُتَعَلِّقاً فَتَأْخُذُ النَّارُ مِنْهُ شَيْئاً وَتَتْرُكُ مِنْهُ شَيْئاً .[1]

وهذه الطرق بأجمعها طرق إلى الله تعالى ، منتهى الأمر أنّها مختلفة تبعاً لحركة النفوس المختلفة . وهي ـ بعبارة أُخرى ـ طريق واحد ، إلّا أنّ سرعة العبور عليه مختلفة تبعاً للنفوس المختلفة . وأقرب الطرق وأقصرها وأسرعها هو صراط الإمام . أي ذلك الطريق الذي طواه الإمام بحسب ظروف الزمان والمكان والمقتضيات ، وبما يحمله من عقبات ومشاكل وصعاب . أمّا باقي السبل فتمتلك حظوظاً متفاوتة من الصراط المستقيم بحسب قربها أو بعدها عن هذا الطريق .

ومن هنا يتجلّى بوضوح كيف **أَنَّ عَلِيّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ** .

يتمثّل السبيل الذي يطويه الإنسان باتّجاه ربّه في نفس الإنسان ، إذ ينبغي على الجميع أن يجتازوا أنفسهم لكي يصلوا إلى الله عزّ وجلّ . وباعتبار تفاوت النفوس طهارةً ونزاهة ، واختلافها بلحاظ الصدق والصفاء ، وشوائب الإنّيّة الشخصيّة والاستكبار ، وفي خلوص النيّة والتزكية ، فإن هذه السبل ستتفاوت من ثَمّ وتختلف . ثُمّ إنّ النفس التي تتفوّق في إخلاصها وصدقها وصفائها وتزكيتها وطهارتها وسرعة حركتها ستجسّد الصراط المستقيم . ولا نعرف من بين جميع النفوس،ومن ضمنها نفوس الأنبياء ،

---

١ ـ «تفسير القمّيّ» ج ١ ، ص ٢٩ ، الطبعة الحروفيّة ، طبعة النجف .

نفساً تفوق أو تماثل - بلحاظ استقامة الطريق - نفس الرسول الأكرم ونفس عليّ بن أبي طالب ونفوس الأئمّة من ذرّيّتهما بالحقّ . لذا ، فإنّهم هم الصراط الأقوم والسبيل الأعظم .

أَنْتُمُ الصِّرَاطُ الأَقْوَمُ وَشُهَدَاءُ دَارِ الفَنَاءِ وَشُفَعَاءُ دَارِ البَقَاءِ.[1]

إنّ حقيقة الصراط هي الطريق الذي لا اعوجاج ولا انحراف فيه - مهما كان جزئيّاً - الذي يبلغ بالإنسان إلى وطنه الأصليّ ، وهو حرم أمن الله وأمانه . أي ذلك الطريق المستقيم الذي يحرّك الإنسان ويسوقه إلى نقطة بداية نزوله إلى هذا العالم .

ولقد نزل الإنسان إلى عالم الطبع هذا من مبدأ معيّن ، وكان يمثّل قوّةً وقابليّة محضة ، فتوجّب عليه في هذا العالم أن يحوّل جميع القوى والقابليات إلى فعليّتها من أجل العودة إلى نفس النقطة بفعليّة تامّة . ويدعى طريق العودة وكيفيّة الرجوع صراطاً ،كما تدعى طهارة الطريق ونزاهته وسرعته في الإيصال استقامةً .

وعلى جميع أفراد البشر - شاءوا أم أبوا - أن يطووا هذا الطريق إذ إنّهم يمتلكون -كلّاً بدوره - من الصفات الموهوبة من الله عزّ وجلّ ومن الغرائز الجبلّيّة ما يمكنهم أن يبلغوا مرحلة كمالهم من خلال هذه الصفات والغرائز وبواسطة مجاهدتها وتطهيرها . فإن بلغوا مرحلة الكمال انكشفت الحقيقة لهم وحظوا بمقام لقاء الله عزّ وجلّ .

بَيدَ أنّ هناك فاصلاً بين الذين يحظون بلقاء الله من خلال **التجلّيات الجماليّة** للحقّ عزّ وجلّ ، وبين الذين يحصلون على كشف للحجب من

١ـ من فقرات الزيارة الجامعة الكبيرة ، وقد رويت هذه الزيارة في «من لا يحضره الفقيه» ج ٢ ، ص ٦١٣ ؛ و «التهذيب» ج ٦ ، ص ٩٧ و ٩٨ .

خلال **التجلّيات الجلاليّة والقهّاريّة** ، فيصلون إلى نقطة عودتهم بواسطة ظهور أسماء الله مثل **الجَبَّار** و**شَدِيدُ العِقَاب** و**المُنْتَقِم** وأمثال ذلك .

على أنّ الإنسان يصل إلى المقصد في نهاية الأمر من خلال نسيان الطبع والمادّة والموت الاختياريّ أو الاضطراريّ ، فتتجسّد فيه التجلّيات الربّانيّة . إلّا أنّ الاستفادة من خصوصيّات أسماء الله وصفاته تتفاوت باختلاف الدرجات التكامليّة للنفوس ، فإن كان في حركته ملتفتاً إلى الحقّ مستعيناً به تاركاً للنفس الأمّارة ومتناسياً لها ،كان طريقاً مستقيماً . أي أنّه يطوي السبيل المستقيم من خلال استفادته من صفاته . فإن راجع وجدانه في كلّ لحظة وكلّ حادثة تمرّ عليه ، فأبعد عن عينه كلّ شائبة من النوايا التي تبعده عن مسيره ، وطرد عنها ألوان الشهوات والغضب والخواطر الوهميّة والشيطانيّة ، ولم يعمل شيئاً دون الالتزام بهذه القاعدة ، فسيكون قد خطا في الصراط المستقيم ، لأنّ الإنسان بصير على عمله ونيّته ، ويفهم ما يعمله ،كما يدرك فيما لو ابتعد عمله عن جوانب الإفراط والتفريط أم لا .

أمّا لو شابت نيّة الإنسان وخلوصه شائبة ، لأدّى ذلك الانحراف إلى خروجه عن الصراط المستقيم . فإن كان انحرافه عن ذلك الصراط يسيراً ، كانت استفادته من الصراط كبيرة . أمّا إذا ازداد انحرافه عن الصراط ، قلّت تبعاً لذلك استفادته من ذلك الصراط .

فالشخص الذي يتحرّك في سلوكه بزاوية انحراف خمس درجات عن الصراط المستقيم ، له حظّ من الصراط أعظم من المتحرّك بزاوية انحراف خمس وأربعين درجة . وإذا ما انحرف هذا الأخير على تسعين درجة ، فقد انعدمت استفادته من الصراط المستقيم . فإن زاد على التسعين وتحرّك في الجهة المعاكسة ، صار **لا يزيد من الله إلّا بُعداً** ، وهو في هذه

الحالة لا يستفيد شيئاً من الصراط المستقيم ، وكلّما ازداد حركة ازداد دخولاً في الظلمة وتكاثرت عليه الحجب .

وبيان ذلك أنّ الصراط الذي يقود الإنسان إلى الله تعالى ليس جسراً حقيقيّاً من الحديد والطابوق والقير وأمثال ذلك ، بل هو طريق نفسانيّ يتوجّب على النفس أن تتحرّك فيه ، فيكون هذا الصراط مطابقاً لتلك العادات والصفات النفسانيّة .

على أنّ لكلّ مسيرٍ نحوٌ خاصّ ،كما أنّ السير في كلّ طريق له كيفيّة خاصّة مختصّة به . فلو شاء المرء ـ مثلاً ـ الذهاب إلى المسجد ، توجّب عليه طيّ الطريق الأرضيّ . أمّا لو شاء السفر إلى مكّة ، لتوجّب عليه اختيار الطريق الجوّيّ أو البحريّ . أمّا لو شاء الإنسان السير إلى الله سبحانه ، فإنّ الأمر سيتعدّى أمر الحركة في الأرض والبحر والجوّ ، إذ ليس للّه من جهة ولا مكان خاصّ . وعلى المرء ـ والحال هذه ـ أن يسير في صفاته . وستكون هذه الحركة حركةً وسيراً من نوع مختلف ،كما أنّ ذلك الصراط هو الصراط النفسانيّ ، وسيكون ذلك العبور عبوراً من جميع الإنيّات في عوالم الحسّ والمثال والعقل ، وإيكال أرجاء مراتب الوجود إلى الحقّ سبحانه وتعالى .

وأجاد العارف الجليل الشيخ محمّد الشبستريّ حين أنشد في هذا المجال :

جهان آن تو و تو مانده عاجز

ز تو محروم تر كس ديد هرگز[1]

١ـ «ديوان گلشن راز» ص ١٧ إلى ١٩ .

يقول : «العالم ملكك بينما أنت لاتزال عاجزاً ؛ إنّ أحداً لم يشاهد كمثلك محروماً» .

چو محبوسان به یک منزل نشسته
به دست عجز پای خویش بسته
نشستی چون زنان در کوی ادبار
نمی‌داری ز جهل خویشتن عار
دلیران جهان آغشته در خون
تو سر پوشیده ننهی پای بیرون
چه کردی فهم از دین العجائز
که بر خود جهل می‌داری تو جائز
زنان چون ناقصات عقل و دین‌اند
چرا مردان رهِ ایشان گزینند
اگر مردی برون آی و نظر کن
هر آنچ آید به پیشت زان گذر کن
میاسا یک زمان اندر مراحل
مشو موقوف همراه رَواحِل
خلیل آسا برو حقّ را طلب کن
شبی را روز و روزی را به شب کن[1]

١ـ يقول : «فلقد جلستَ كالسجناء في أحد المنازل ، وقيّدتَ بِيَدِ العجز قدميك .
وجلستَ ـ كفعل النساء ـ في جادّة الإدبار ، غير عالم أنّ جهلك عار عليك .
فشجعان العالم مضمّخون بدمائهم ، فلا تخطو خارجاً مغطّى الرأس (كفعل النساء) .
وماذا فهمتَ ـ يا ترى ـ من دين العجائز ، إذ صرتَ تجيز لنفسك الجهل ؟
ولِمَ يختار الرجال طريق النساء ناقصات العقل والدين ؟!
فإن كنتَ رجلاً فاخرج وانظر وتخطَّ كلّ ما اعترضك .
ولا تخلدن للراحة لحظة خلال المراحل ، ولا تكن موقوفاً في مصاف الرواحل .
تشبّه بالخليل واطلب الحقّ وصِل الليل بالنهار في طلبك» .

ستاره با مه و خورشید اکبر
بود حسّ و خیال و عقل انور
بگردان زان همه ای راهرو روی
همیشه لا أحِبُّ الافِلین گوی
و یا چون موسی عمران در این راه
برو تا بشنوی إنّی أنَا الله
ترا تا کوهِ هستی پیش باقی است
جواب لفظ أرنی لَن تَرَانِی است
حقیقت کهربا ذات تو کاه است
اگر کوهِ توئی نبود چه راهست
تجلّی گر رسد بر کوه هستی
شود چون خاک ره هستی زپستی
گدائی ، گردد از یک جذبه شاهی
به یک لحظه دهد کوهی به کاهی
برو اندر پی خواجه به اسرا
تفرّج کن همه آیات کبری[1]

١ـ يقول : «إنّ النجوم والقمر والشمس الكبيرة هي كالحسّ والخيال والعقل الأنور.
فأعرض بوجهك ـ أيّها السالك ـ عن جميع الأشياء ، وردّد دوماً «لا أُحبّ الآفلين» .
وسر في هذا السبيل كما سار موسى بن عمران ؛ وسر حتّى تسمع «إنّي أنا الله» .
وما دام جبل الوجود ماثلاً أمامك ، فإنّ جواب «أرني» سيكون «لن تراني»
الحقيقة كالكهرباء ، وذاتك كقشّة التبن ؛ ولولا جبل ذاتك لما كان ثمّة من طريق .
ولو ظهر التجلّي أمام جبل الوجود ، لاندكّ الوجود من ضعته وأشبه تراب الطريق .
ولصار الشحّاذ بجذبةٍ واحدة ملكاً ، وصار في لحظة واحدة يَهَب جبلاً لقطعة قشّ .
اذهب واتبع النبيّ في إسرائه ، وتفرّج على جميع الآيات الكبرى» .

بـــرون آی از ســـرای امّ هـــانـــی
بگـــو مـطلق حــديــث مــن رآنــی
گـــذاری کــن ز کــاف کُــنج کَــونين
نشــين بــر قـاف تـرب قـاب قـوسين
دهــد حــق مـر تـرا از آنـچه خـواهـی
نــمايندت هــمه اشـــيا کــما هــی[1]

ويقول :

کــتاب حــق بــخوان از نــفس و آفــاق
مُــزيّن شــو بــه اصــل جــمله اخــلاق
أُصـــول خُـــلق نـــيك آمـد عـدالت
پس از وی حکــمت و عــفّت شــجاعت
حکـــيمی راست گــفتار است و کــردار
کســی کــو مـتّصف گـردد بـه ايـن چـار
ز حکـــمت بـاشدش جـان و دل آگــه
بـــه گُــرْبُـزْ بـاشـد و نـه مـرد ابـلـه[2]

١ـ يقول : «اخرج من بيت أُمّ هانئ ، وقل مطلق حديث «من رآني».
وتخطَّ خزائن الكونينِ ، واجلس عند قُرب قاب قوسينِ.
فسيعطيك الحقّ ما تشاء ، ويُريك ـكما هي ـالأشياء».

٢ـ ديوان «گلشن راز» ص ٥٥ و ٥٦.
يقول : «اقرأكتاب الحقّ في النفس والآفاق ، وتجمّل بأساس جميع الأخلاق.
إنّ أُصول الخلق الحسن هي العدالة ثمّ الحكمة والعفّة والشجاعة.
مَن له هذه الصفات الأربع فهو حكيم صادق القول ومنزّه السيرة.
قد تنوّر بالحكمة قلبه وروحه ، فلم يعد جريئاً داهية ولا أبلهاً».

بـه عـفّت شـهوت خـود كـرده مستور
شَـرَه هـمچون خـمود از وى شـده دور
شـجاع و صـافى از ذلّ و تكـبّر
مُـبـرّا ذاتـش از جـبـن و تـهوّر
عـدالت چـون شـعار ذات او شـد
نـدارد ظـلم از آن خُـلقش نـيكو شـد
هـمه اخـلاق نكـو در مـيانه است
كـه از افـراط و تـفريطش كـرانـه است
مـيانه چـون صـراط المسـتقيم است
ز هـر دو جـانبش قـعر جـحيم است
بـه بـاريكى و تـيزى مـوى و شـمشير
نـه روى كشـتن و بـودن بـر او ديـر[1]

إلى أن يصل إلى قوله :

بـسـيطُ الـذات را مـانـند گـردد
مـيـان ايـن و آن پـيـوند گـردد[2]

---

١ ـ يقول : «وقد ستر شهوته بعفّته ، وأبعد الشَّرَه عن نفسه كما أبعد الخُمود والخُمول .
غدا شجاعاً قد صفا من الذلّ والتكبّر ، وتبرّأت ذاته من الجبن والتهوّر .
صارت العدالة شعار ذاته ، وحسن خُلقه بانتفاء الظلم لديه .
إنّ جميع الأخلاق الحسنة أخلاق معتدلة بعيدة عن الإفراط والتفريط .
معتدلة كالصراط المستقيم في كلا جانبيه قعر جهنّم .
صراط حادّ كالسيف دقيق كالشعر ، فلا هو يقتل ولا يمكن المكث عليه طويلاً .»

٢ ـ يقول :
«صار شبيهاً ببسيط الذات ، رابطاً بين هذه الأجزاء وتلك» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نه پيوندى كه از تركيب اجزاست
كه روح از وصف جسميّت مبّراست
چو آب و گل شود يكباره صافى
رسد از حقّ بدو روح اضافى
چو بايد تسويه أجزاى اركان
در او گيرد فروغ عالم جان
شعاع جان سوى تن وقت تعديل
چو خورشيد زمين آمد به تمثيل[1]

وعلى أيّة حال فقد عُبّر عن المنازل والمراحل باختلاف العبارات والتعبيرات ، وعُدّ اجتياز الصراط أمراً منوطاً بهذه الاعتبارات . فقد عدّ البعض الصراط عبارة عن النفس ، واعتبر اجتيازه ، بمثابة عرفان النفس :

وَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ.[2]

أو بتطهير النفس وتزكيتها : **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّـٰهَا.**[3]

أو بإماتة النفس : **أَمَاتَ نَفْسَهُ وَأَحْيَى قَلْبَهُ.**[4]

واعتبره البعض عبارة عن الدنيا ، ويقصد بالدنيا ماسوى **الله** ، حيث

١ـ يقول : «لكنّ ذلك الارتباط ليس ناجماً عن تركيب الأجزاء ، إذ الروح براء من وصف الجسميّة .

وحين يصفى الماء والطين تماماً ، فإن روحاً إضافيّة ستصلهما من الحقّ تعالى .

وحين تتساوى أجزاء الأركان ، فإنّ عالم الروح ستسطع فيها .

وإنّ شعاع الروح على البدن حال اعتداله ، أشبه ، لو مثّلنا بشعاع الشمس للأرض» .

٢ـ «بحار الأنوار» ج ٢ ، ص ٣٢ ، الطبعة الحروفيّة .

٣ـ الآية ٩ ، من السورة ٩١ : الشمس .

٤ـ ورد في «نهج البلاغة» الخطبة ٢١٨ ، طبعة مصر ، مطبعة عيسى البابيّ الحلبيّ بتعليق الشيخ محمّد عبده ج ١ ، ص ٤٣٩ : «قد أحيى عقله وأمات نفسه» .

ورد : **أَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ**.[1]

كما عدّه البعض معادلاً لِلإنّيّة والوجود . فقد قيل :

بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِنِّيِّي يُنَازِعُنِي فَارْفَعْ بِلُطْفِكَ إِنِّيِّي مِنَ الْبَيْنِ

وعدّه البعض العبور من الصراطين : الظاهر والباطن ؛ أو الدنيا والآخرة ، أو الشريعة والطريقة ، أو عالَمَي الشهادة والغيب ، أو عالَمَي الخَلْق والأمر .

واعتبر البعض الصراط ذا منازل ثلاثة : الطبع والمثال والعقل ؛ وعدّوا عبور هذه المنازل بمثابة وقوف على المطلوب .

واعتبر البعض الآخر العبور ذا أربع مراحل ، حيث نقل عن بايزيد البسطاميّ قوله : تركتُ الدنيا في اليوم الأوّل ، وتركتُ الآخرة في اليوم الثاني ، وتخطّيت ما سوى الله في الثالث ، وفي اليوم الرابع سُئلت : **مَا تُرِيدُ** ؟ فقلت : **أُرِيدُ أَنْ لَا أُرِيدَ**.

وهو إشارة إلى المطلب الذي قاله البعض في تعيين المنازل الأربعة :

الأوّل : ترك الدنيا .

الثاني : ترك العقبى .

الثالث : ترك المولى .

الرابع : ترك الترك .

واعتبر البعض العوالم خمسة ، ودعوها بـ «عوالم الحضرات الخمس» حيث ورد في الدعاء المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام :

اللَّهُمَّ نَوِّرْ ظَاهِرِي بِطَاعَتِكَ ؛ وَبَاطِنِي بِمَحَبَّتِكَ ، وَقَلْبِي بِمَعْرِفَتِكَ ؛ وَرُوحِي بِمُشَاهَدَتِكَ ؛ وَسِرِّي بِاسْتِقْلَالِ اتِّصَالِ حَضْرَتِكَ يَا ذَا الْجَلَالِ

---

١ ـ «نهج البلاغة» الخطبة ٢٠١ ، ج ١ ، ص ٤١٨ .

وَالإكْرَام.[١]

ويقول محيى الدين بن عربي ضمن صلواته على خاتم الأنبياء محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : **مُحْصِي عَوَالِمِ الحَضَرَاتِ الخَمْسِ فِي وُجُودِهِ «وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ»**.

فعبّر البعض عن هذه العوالم الخمسة بعوالم الطبع والمثال والعقل والسرّ والذات . بينما اعتبر بعض آخر أنّ الطرق الأرضيّة سبعة طرق ، وأنّ الطرق السماويّة سبعة طرق أيضاً ، وأنّ المراد بالأرضين السبع الحجب الظلمانيّة ، وبالسماوات السبع الحجب الملكوتيّة والنورانيّة .

ثمّ جاء آخرون فاعتبروا المجموع سبعة عوالم ، وهي : عوالم الحسّ ، المثال ، العقل ، السرّ ، السرّ المُستَسِرّ ، السرّ المقنّع بالسرّ ، والذات ؛ حيث ورد في الروايات ذكر الحجب السبعة .

وعدّ بعض آخر العوالم عشرة ، كما في رواية عبد العزيز القراطيسيّ الذي قال له الإمام الصادق عليه السلام بأنّ للإيمان عشر درجات كدرجات السلّم . يُضاف إلى ذلك ما ورد في الرواية من أنّ سلمان الفارسيّ كان يمتلك درجات الإيمان العشر بأجمعها .

هذا وقد قسّم المرحوم الخواجه نصير الدين الطوسيّ في «أوصاف الأشراف» المنازلَ إلى ستّ مراحل ، ثمّ قسّم كلّ مرحلة من المراحل الخمس الأُولى إلى ستّة أقسام ، فصار مجموع العوالم مع المنزل الأخير الذي ذكر له مرحلة واحدة ، واحداً وثلاثين عالماً .

وقد اعتبر البعض الحجبَ سبعين حجاباً ، حيث أورد المجلسيّ

١ـ من فقرات الدعاء المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام الذي شرحه الحاجّ المولى جعفر كبوتر آهنگي وطُبع في كرّاسة .

رضوان الله عليه نقلاً عن «كشف اليقين» أنه روى بإسناده عن رسول الله صلّى الله عليه وآله رواية عن معراج النبيّ جاء فيها قوله صلّى الله عليه وآله :

فَتَقَدَّمْتُ فَكُشِفَ لِي عَنْ سَبْعِينَ حِجَاباً. [1]

واعتبر بعضٌ المنازلَ مائة منزل ، حيث ذكر الخواجة عبد الله الأنصاريّ في «منازل السائرين» أنّ المنازل عشرة ، ثمّ قسّم كلاً من هذه المنازل إلى عشرة ، فصار مجموعها مائة منزل . وبطبيعة الحال فإنّ المائة التي هي مجموع المنازل تمثّل اسم الله تعالى ، أحدها مكنون ومخزون ، وتسعة وتسعون منها معلوم . لذا فقد ورد في كثير من روايات الخاصّة والعامّة أنّ للّه تسعة وتسعين اسماً .

يروي الشيخ الصدوق في «التوحيد» و«الخصال» بسنده المتّصل عن سليمان بن مهران ، عن جعفر بن محمّد ، عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله :

إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمَاً ، مِائَةً إلَّا وَاحِداً ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ. [2]

كما ذكرت بعض الروايات أنّ للّه ثلاثمائة وواحد وستّين اسماً ، كما في الرواية الواردة عن إبراهيم بن عمر ، عن الإمام الصادق عليه السلام . [3]

واعتبر البعض أنّ مجموع الحجب ألف حجاب ، كما اعتبروا أسماء الله ألف اسم ؛ وعدّها البعض ألف منزل ومنزل .

١ـ «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٣٩٤ ، الطبعة القديمة الحجريّة .

٢ـ «التوحيد» للصدوق ، ص ١٩٤ ؛ و «الخصال» ص ٥٩٣ .

٣ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ١١٢ .

از ره نفس تا به كعبهٔ دل عارفان را هزار و يک منزل[1]

وصرّح البعض بأن هناك سبعين ألف حجاب، كما في الرواية الواردة في «كشف اليقين» عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال:

« ... ووصلتُ إلى حجب ربّي، دخلتُ سبعين ألف حجاب، بين كلّ حجاب إلى حجاب من حجب العزّة والقدرة والبهاء والكرامة والكبرياء والعظمة والنور والظلمة والوقار والكمال، حتّى وصلتُ إلى حجاب الجلال ... » .[2]

وقد قسّم العرفاء المسلمون الأجلّاء أسفار نفس الإنسان إلى الله تعالى وصولاً إلى آخر مرحلة منها، إلى أربعة أسفار. واقتدى بهم حكماؤنا العظام فاعتبروا الأسفار أربعة، فيقول المرحوم صدر المتألّهين الشيرازيّ قدّس سرّه في كتاب «الأسفار»:

وَاعْلَمْ أَنَّ لِلسُّلَّاكِ مِنَ العُرَفَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ أَسْفَاراً أَرْبَعَةً: أَحَدُهَا السَّفَرُ مِنَ الخَلْقِ إِلَى الحَقِّ. وَثَانِيهَا السَّفَرُ بِالحَقِّ فِي الحَقِّ. وَالسَّفَرُ الثَّالِثُ يُقَابِلُ الأَوَّلَ لِأَنَّهُ مِنَ الحَقِّ إِلَى الخَلْقِ بِالحَقِّ. وَالرَّابِعُ يُقَابِلُ الثَّانِي مِنْ وَجْهٍ، لِأَنَّهُ بِالحَقِّ فِي الخَلْقِ.[3]

ولأنّ العشق والشُّكر والحماس والهياج في السلوك أُمور منحصرة في السفر الأوّل، بينما تسود الطمأنينة والسكينة والاستقرار في بقية الأسفار، فربّما يتّضح على هذا الأساس معنى شعر حافظ في قوله:

١ـ يقول: «هناك من طريق النفس إلى كعبة القلب ألف منزل ومنزل للعشّاق».

٢ـ «بحار الأنوار» ج ٦، ص ٣٩٥، الطبعة الحجريّة؛ و ج ١٨، ص ٣٩٩، الطبعة الحروفيّة.

٣ـ «الأسفار الأربعة» ج ١، ص ١٣، الطبعة الحروفيّة.

نگويمت كه همه ساله مى پرستى كن

سه ماه مى خور و نه ماه پارسا مى‌باش [١]

إذ إنّ دورة السفر تشمل أربعة مراحل ، عَبّر عن ربع الدورة الأوّل «السفر الأوّل» بشرب الخمر ، وعن الأسفار الثلاثة الأُخرى بالتقوى .

وقد ذكر المرحوم الحكيم المتألّه الآخوند الملّا محمّد رضا القمشه‌اى مطالب حول كيفيّة الأسفار الأربعة ؛ ومضمونها أنّ السفر الأوّل (من الخلق إلى الحقّ) يتمثّل برفع الحجب الظلمانيّة والنورانيّة . وأنّ الحجب الظلمانيّة متعلّقة بالنفس ، أمّا الحجب النورانيّة فتتعلّق بالقلب والروح ، حيث ينبغي على السالك العبور من الأنوار القلبيّة والأضواء الروحيّة . وأن يتحرّك من مقام النفس إلى القلب ، ومن القلب إلى الروح ، ومن الروح إلى المقصد الأقصى .

فالعوالم الفاصلة بين السالك وبين الحقيقة ـ إذاً ـ ثلاثة عوالم ، وجميع الحجب التي ذُكرت في الأخبار أو على لسان الأعلام ترجع إلى هذه الحجب الثلاثة . وحين تزاح جانباً هذه الحجب الثلاثة ، وتُطوى هذه العوالم الثلاثة ، أي عوالم النفس والقلب والروح ، فسيصل السالك إلى مقام معرفة جمال الحقّ ، ويفني ذاته في الحقّ تعالى . ويُدعى هذا المقام ـ تبعاً لهذا الأساس ـ بمقام الفناء في الذات . ويتضمّن ثلاثة مقامات : مقام **السِّرِّ والخَفِيِّ والأَخْفَى** ، وتقع في السفر الثاني .

وقد جرى التعبير أحياناً عن مقام الروح بالعقل . ونظراً لتفصيل شهود المعقولات ، فقد اعتبروا مقام العقل غير مقام الروح ، فيكون

١ـ يقول : «لم أقل لك : اعكف على الخمر طوال السنة ، بل : اشرب الكأس ثلاثة شهور وكن زاهداً في التسعة الباقية !» .

مجموع المقامات على هذا الأساس سبع مقامات :

مَقَامُ النَّفْسِ ، مَقَامُ القَلْبِ ، مَقَامُ العَقْلِ ، مَقَامُ الرُّوحِ ، مَقَامُ السِّرِّ ، مَقَامُ الخَفِيِّ ، مَقَامُ الأَخْفَى.

وهذه المقامات السبعة هي مراتب الولاء وبلاد العشق التي يقول عنها المولويّ الروميّ :

هفت شهر عشق را عطّار گشت　　ما هنوز اندر خم يک کوچه‌ايم[1]

وحين يتخطّى السالك مقام الروح ويتجلّى له جمال الحقّ ، ويفني نفسه في ذات الحقّ تعالى ، فسيكون سفره الأوّل قد انتهى وصار وجوده حقّانيّاً ، وسيكون قد عرض عليه المحو وبلغ مقام الولاية . ثمّ يشرع في السفر الثاني من موقف الذات (وهو مقام السرّ) فيسير في كلّ واحد من الكمالات حتّى يشاهد جميع كمالات الحقّ ، ويرى نفسه فانياً في جميع الأسماء والصفات : **فَبِهِ يَسْمَعُ ، وَبِهِ يَبْصُرُ ، وَبِهِ يَمْشِي ، وَبِهِ يَبْطِشُ . فَعَالَم السرّ** هو مقام **الفناء** في الذات ، وعالم **الخفيّ** وهو أعلى من سابقه مقام الفناء في الصفات والأسماء والأفعال . أمّا عالم **الأخفى** فهو مقام الفناء ومن الاثنين : فناء الذات وفناء الصفة ، وهو أعلى من السفرين الأوّليّين ، ويمثّل المرحلة الأخيرة من السفر الثاني .[2]

وإن شئتَ فعبِّر عن **عالم السرّ** بأنّه فناء ذات السالك ، وهو نهاية

١ـ يقول : «لقد طاف «العطّار» مدن العشق السبع بينما لا نزال في منعطف الزقاق الأوّل».

٢ـ قال الحكيم السبزواريّ في حاشية «الأسفار» ج ١ ، ص ٢١ ، الطبعة الحروفيّة : وأَمَّا **الفَنَاءُ فَلَهُ مَرَاتِبُ : المَحْوُ وَالطَّمْسُ وَالمَحْقُ . فَالمَحْوُ فَنَاءُ أَفْعَالِ العَبْدِ فِي فِعْلِ الحَقِّ تَعَالَى ، وَالطَّمْسُ فَنَاءُ صِفَاتِهِ فِي صِفَتِهِ ، وَالمَحْقُ فَنَاءُ وُجُودِهِ فِي وُجُودِهِ.** ومن هنا فإنّه عدّ مراتب الفناء عكس ما عدّه المرحوم الحكيم القمشهاي.

السفر الأوّل وبداية السفر الثاني ؛ وعن **عالم الخفاء** بأنّه مقام الفناء في الأُلوهيّة ؛ وعن **العالم الأخفى** بأنّه مقام الفناء من كلا الفنائين . ومن هنا فإنّ دائرة الولاية ستنتهي في هذه الحال ، ويصل السفر الثاني إلى غايته ، وينقطع فناء السالك فيضع قدمه على مسار السفر الثالث .

فالسفر الأوّل : إذاً ، هو العبور من **عوالم الناسوت والملكوت والجبروت** ؛ والسفر الثاني هو العبور من **عالم اللاهوت** ؛ أمّا السفر الثالث وهو السفر من الحقّ إلى الخلق بالحقّ ، فهو أرقى من السفر الثاني وأعلى . بمعنى أنّ السُّكر والصحو سيزولان فيسير السالك في مقام الأفعال ـ مع وجود الفناء في الحقّ والفناء في صفات الحقّ والفناء عن الفناء ـ ويبقى على الرغم من المحو التامّ **ببقاء الحقّ** ، ويشاهد جميع عوالم الجبروت والملكوت والناسوت بأعيانها ولوازمها ، ويُخبر عن معارف الذات والصفات والأفعال .[1]

وللحكيم المتألّه العلّامة الميرزا محمّد حسن النوريّ نجل الحكيم المتألّه العلّامة علي النوريّ قدّس الله سرّهما كلام عن كيفيّة الأسفار الأربعة ، يُعدّ ـ بلحاظ فهم العموم ـ أسهل بياناً وأشدّ إمتاعاً ، ويتلخّص مضمونه بما يلي :

أنّ الإنسان ما دام لم يضع أقدامه على مسار السلوك العلميّ والنظريّ ، فإنّه يشاهد الكثرة ويغفل عن مشاهدة الوحدة . فتكون الكثرة في تلك الحال حاجباً عن الوحدة . أمّا حين يشرع في السلوك العلميّ فيسير من الوجودات إلى الصانع ، فإنّ الكثرات ستضمحلّ شيئاً فشيئاً وتتبدّل إلى الوحدة الصرفة الحقّة الحقيقيّة ، بحيث إنّه لن يرى الكثرة أبداً ، ولن ينظر

---

١ ـ «الأسفار» ، ج ١ ، حاشية ص ١٣ ، الطبعة الحروفيّة .

إلى أعيان الموجودات ، ولن يشاهد شيئاً غير الوحدة . فتكون الوحدة ـ إذ ذاك ـ حاجباً عن الكثرة . فالسالك قد أغمض عينه عن مشاهدة الكثرة بواسطة استغراقه في مشاهدة الوحدة .

ومرتبة هذا المنزل في السلوك الحاليّ بمرتبة السفر الأوّل للسالك العارف ، الذي ذكره الملّا صدرا في كتابه ، وهو السفر من الخلق إلى الحقّ ، أي من الكثرة إلى الوحدة .

وحين يصل السالك إلى عالم الوحدة فيحجب عن مشاهدة الكثرة ، فإنّه يستدل ـ من خلال السلوك العلميّ ـ بذات الحقّ على أوصاف الحقّ وأسمائه وأفعاله الواحد بعد الآخر والمرتبة بعد المرتبة . وهذه الدرجة بمثابة السفر الثاني للسلوك الفعليّ ، وهو السفر في الحقّ بالحقّ .

أمّا في الحقّ ، فلأنّ هذا السفر يمثّل سفراً في صفات الحقّ وأسمائه وخواصّه ؛ وأمّا بالحقّ ، فلأنّ السالك يتجسّد في هذه الحال بحقيقة الحقّ ، ويخرج من إنّيّة ووجود جميع كثرات العالم وأعيانه الخارجيّة .

وكثيراً ما يحصل في هذه المرحلة أن ينشرح صدر السالك وتُحلّ عُقدة من لسانه ، فيلاحظ الوحدة في الكثرة كما يلاحظ الكثرة في الوحدة ، دون أن يحجب أحدهما الآخر ، ويصبح السالك جامعاً لكلا النشأتينِ وبرزخاً بين المقامينِ ، وتصبح له ـ من ثمّ ـ قابليّة تعليم الناقصين وإرشاد ضعفاء العقول والنفوس . ومنزلة هذه الدرجة من السلوك الحالي والعمليّ بمثابة السفر الثالث ، وهو السفر من الحقّ إلى الخلق بالحقّ . وهذه المرحلة أعلى ممّا سبقها .

وهناك مرحلة أُخرى أدقّ وأتقن وأكمل ، وهي الاستدلال على الحقّ بوجود الحقّ ووجود غير الحقّ . بحيث تنعدم الواسطة ـ في البرهان ـ لوجوده ووجود غيره . وقد دُعي هذه البُرهان بـ **بُرهان لِمّ** وطريقة

الصدّيقين . وهذه المرتبة بمثابة السفر الرابع وهو السفر في الخلق بالحقّ.[1]

فإن شئنا أن نعثر على أحد من الموجودات سائر على الصراط المستقيم والنهج القويم في جميع خصوصيّاته في هذه الأسفار الأربعة ، بحيث يفوق الجميع في أفكاره وعقائده وملكاته وكيفيّة طيّه منازل فنائه في ذات الحضرة الأحديّة ، ويمتلك سيراً في كلّ ذلك ـ بلحاظ عبور مراحل النفس ـ دون أن ينحرف أدنى انحراف ، فإنّه سيجسّد حقيقة الصراط المستقيم ، ويجسّد الإمام الذي ينبغي أن يكون قدوة ومثالاً يُحتذى . فهو أوّلاً في مقام التكوين حقيقة الصراط ، والسبيل للوصول إلى مدارج الكمال . وهو ثانياً في مقام التشريع الهادي والمقتدى . وهذا هو المعنى الوارد في الرواية من أنّ الصورة الإنسانيّة هي الصراط المستقيم . وقد ورد

١ـ «الأسفار» ، ج ١ ، تعليقة ص ١٦ و ١٧ ، الطبعة الحروفيّة .

وقد ذكر المرحوم السبزواريّ في تعليقة ص ١٨ من «الأسفار الأربعة» مطالب بشأن الأسفار الأربعة ، مضمونها كما يلي : قال الشيخ المحقّق كمال الدين عبد الرزّاق الكاشيّ قدّس الله سرّه :

السَّفَرُ هُوَ تَوَجُّهُ القَلْبِ إلَى الحَقِّ تَعَالَى . وَالأَسْفَارُ أَرْبَعَةٌ : الأَوَّلُ هُوَ السَّيْرُ إلَى اللَهِ مِنْ مَنَازِلِ النَّفْسِ إلَى الوُصُولِ إلَى الأُفُقِ المُبِينِ وَهُوَ نِهَايَةُ مَقَامِ القَلْبِ وَمَبْدَأُ التَّجَلِّيَاتِ الأَسْمَائِيَّةِ .

الثاني هُوَ السَّيْرُ فِي اللَهِ بِالاتِّصَافِ بِصِفَاتِهِ وَالتَّحَقُّقِ بِأَسْمَائِهِ إلَى الأُفُقِ الأَعْلَى وَنِهَايَةِ الحَضْرَةِ الوَاحِدِيَّةِ .

الثَّالِثُ هُوَ التَّرَقِّي إلَى عَيْنِ الجَمْعِ وَالحَضْرَةِ الأَحَدِيَّةِ ، وَهُوَ مَقَامُ قَابَ قَوْسَيْنِ مَا بَقِيَتِ الاثْنَيْنِيَّةُ ، فَإذَا ارْتَفَعَ فَهُوَ مَقَامُ «أَوْ أَدْنَى» وَهُوَ نِهَايَةُ الوِلاَيَةِ .

الرَّابِعُ السَّيْرُ بِاللَهِ عَنِ اللَهِ لِلتَّكْمِيلِ ، وَهُوَ مَقَامُ البَقَاءِ بَعْدَ الفَنَاءِ وَالفَرْقِ بَعْدَ الجَمْعِ . »

ثمّ ذكر المرحوم السبزواريّ توضيحات نافعة عن مرتبة الواحديّة والأحديّة ومعنى القلب والروح ومعنى العوالم السبعة عند العرفاء ، وفسّرها بأنّها تمثّل الطبع والنفس والقلب والروح والسرّ والخفيّ والأخفى .

في الرواية في تفسير الآية الشريفة : **وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ** ، أنّ المراد به **صراط عليّ بن أبي طالب** عليه السلام ؛ وذلك لأنّ المراد بالصورة الإنسانيّة ، مرحلة الفعليّة المحضة التي تتواجد في أعلى صورها وأتقنها في عليّ بن أبي طالب عليه السلام . أمّا عامّة الناس فليس لهم صورة إنسانيّة فعليّة ، بل يمتلكون مجرّد قابليّة تحقّقها ، هذا إن لم يكونوا قد بدّلوا صورة الإنسانيّة من خلال ارتكابهم الذنوب الكبيرة .

وعلى أيّة حال فإنّ أفراد البشر هم في مقام التكامل ، إلّا أنّهم ليسوا كاملين ، أمّا الصورة الإنسانيّة فمختصّة بالإنسان الكامل . لأن الإنسان لم يمتلك صورة إنسانيّة حين كان نطفة ، لأنّه ـ إذ ذاك ـ في مرحلة تكامل .

ثمّ إنّ الإنسان ينمو فيكون كذا وكذا ، فلا يمتلك تلك الصورة بعدُ . ثمّ يأتي إلى الدنيا فلا يحوز صورتها الفعليّة ، إذ يولد طفلاً يلهو ويلعب .

ثمّ يصبح شابّاً ، إلّا أنّه يمتلك في جميع أحواله صورة حيوانيّة ، لأنّه لم يدرك بعدُ ذلك المقصد الذي خُلق الإنسان وهُيّئ للوصول إليه . فإن هو بلغ ذلك المقصد ، تحقّقت فيه آنذاك فقط الصورة الإنسانيّة .

ومن هنا فإنّ الشخص المنساق وراء الشهوات لا يمتلك صورة إنسانيّة ، بل يمتلك الصورة الحيوانيّة للحيوان الذي له هذه الخصوصيّة من الشهوة .

أمّا لو سار الإنسان باتّجاه الفعليّة في جميع مراحل القوّة والقابليّة ، وأوصل جميع القوى التي منّ الله بها عليه إلى مرحلة الفعليّة وفي سبيل التقرّب إلى الله تعالى ، فإنّه سيصبح إنساناً كاملاً له صورة إنسانيّة ؛ **الحِكْمَةُ صَيْرُورَةُ الإنْسَانِ عَالَماً عَقْلِيّاً مُضَاهِياً لِلْعَالَمِ العَيْنِيِّ**.

والحكيم هو الذي أكمل الصورة الإنسانيّة وجعل نفسه عالماً عقليّاً .

وكما أنّ لدينا عالماً طبعيّاً في الخارج ، فإنّ الحكمة العلميّة والعمليّة التي

تمثّل السير في الآفاق والأنفس، تجعل الإنسان ـ علماً وعملاً ـ عالَماً عقليّاً.

وذلك الإنسان هو الإنسان المجرّد، كما أنّه يمثّل الإنسان الخارج عن الزمان والمكان الذي لا تحدّه الجهات. والإنسان الذي يمثّل أقرب الحجب إلى الله تعالى، والإنسان الذي يمثّل اسم الله الأعظم، والإنسان الأفضل من الملائكة، الذي لا يمكن لأيّ مَلك مقرّب أو نبيّ مرسل أن يفصل بينه وبين الحضرة الأحديّة.

يصل هذا الإنسان إلى المقام الذي هو **أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ**، ويفنى في العقل الكلّيّ والنور الكلّيّ، فيُعبَّر عنه بالإنسان المقرّب والمخلَص، إلّا أنّه بعد فنائه يجد البقاء بعالم البقاء ويصبح جامعاً لجميع صفات الحقّ المتعال وأسمائه الحسنى، فتظهر فيه وتتجلّى جميع أسماء الحقّ وصفاته ـ وليس ذاته فقط ـ وتلك الصورة هي الصورة الإنسانيّة. فإن شئنا حقّاً أن نعثر في الخارج على مصداق أتمّ وأكمل لمثل هذه الصورة الفعليّة، فإنّه لن يكون غير أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

أي أنّ وجود ذلك الإمام وسرّه وعقيدته وحركته وفعله وظاهره وباطنه ودنياه وآخرته وجسمه وروحه على ذلك الصراط المستقيم الهادي إلى الجنّة، وهو الصراط بين الجنّة والنار.

أي أنّ على مَن يريد الذهاب إلى الجنّة أن يجتاز هذا الصراط، لأنّ سعة وقدرة وجاذبيّة تلك النفس المقدّسة تدعو الناس إلى ذلك المقصد الرفيع بتلك الكيفيّة.

ما بدان مقصد عالى نتوانيم رسيد

هم مگر پيش نهد لطف شما گامى چند[1]

١ـ يقول: «لن نستطيع بلوغ ذلك الهدف الرفيع إلّا إذا خطا أمامنا لطفُك عدّة خطوات».

لذا فقد جاء في الروايات أنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو الصراط المستقيم ، وأنّ الولاية والإمامة هما الصراط المستقيم .

وبطبيعة الحال فقد ذكرنا ما ذكرنا عرضاً للمطلب ، إلّا أنّنا سنذكر فيما بعد إن شاء الله تعالى أنّ الصراط المستقيم الذي هو النفس الخارجيّة للإمام ، له شمول آخر وجامعيّة أُخرى أسمى من هذا المعنى وأعلى .

وعلى كلّ تقدير ، فقد وردت روايات جمّة عن طريق الخاصّة والعامّة في أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو الصراط المستقيم .

يروي البحرانيّ في كتابه النفيس «غاية المرام» رواية واحدة عن العامّة ، وعشر روايات عن الخاصّة في تفسير الآية المباركة :

وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّـٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.[1]

ورد فيها أنّ عليّ بن أبي طالب هو المراد بالصراط المستقيم في هذه الآية .

أمّا الرواية التي نقلها عن العامّة ، فحديث نقله عن الشيرازيّ ـ أحد أعيان علماء العامّة ، له كتاب في المناقب ـ عن قتادة ، عن الحسن البصريّ ، في الآية الشريفة : **وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ**، **قَالَ: يَقُولُ: هَذَا طَرِيقُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَذُرِّيَّتِهِ طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ وَدِينٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَتَمَسَّكُوا بِهِ فَإِنَّهُ وَاضِحٌ لَا عِوَجَ فِيهِ.**[2]

وأمّا الروايات العشر التي نقلها عن الخاصّة فننقل منها ثلاث روايات :

١ـ الآية ١٥٣ ، من السورة ٦ ، الأنعام .

٢ـ «غاية المرام» ص ٤٣٤ ، الباب ٢٠٩ .

الأُولى : حديث جاء عن عليّ بن إبراهيم القمّيّ في تفسيره عن الإمام الصادق عليه السلام في معنى الآية : «وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ» ؛ قَالَ : الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ الإمَامُ. وَ «لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ». قَالَ: يَعْنِي غَيْرَ الإمَامِ . «فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ». يَعْنِي تَفرَّقُوا وَتَخْتَلِفُوا فِي الإمَامِ.[1]

الثانية : حديث يرويه محمّد بن الحسن الصفّار في «بصائر الدرجات» بإسناده عن أبي حمزة الثماليّ ، عن الإمام الصادق عليه السلام ؛ قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَهِ تَعَالَى : «أَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ» ؟ فَقَالَ: هُوَ وَاللَهِ عَلِيٌّ ، هُوَ وَاللَهِ الصِّرَاطُ وَالمِيزَانُ.[2]

الثالثة : حديث يرويه محمّد بن مسعود العيّاشيّ بإسناده عن بُريد العجليّ ، عن الإمام الصادق عليه السلام ؛ قَالَ:

«وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ».

قَالَ : تَدْرِي مَا يَعْنِي بِـ «صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا» ؟! قُلْتُ: لَا.

قَالَ : وَلَايَةُ عَلِيٍّ وَالأَوْصِيَاءِ.

قَالَ : وَتَدْرِي مَا يَعْنِي «فَاتَّبِعُوهُ» ؟ قُلْتُ : لَا !

قَالَ : يَعْنِي عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ صَلَوَاتُ اللَهِ عَلَيْهِ.

قَالَ : وَتَدْرِي مَا يَعْنِي : «وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» ؟

قُلْتُ : لَا ! قَالَ : وَاللَهِ وَلَايَةُ فُلَانٍ وَفُلَانٍ .

قَالَ : وَتَدْرِي مَا يَعْنِي : «وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» ؟

١ـ «غاية المرام» ص ٤٣٤ ، الباب ٢٠٩ .

٢ـ «غاية المرام» ص ٤٣٤ ، الباب ٢١٠ .

قَالَ : يَعْنِي سَبِيلَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.[١]

أمّا في تفسير الآية الشريفة : أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ؛[٢] فقد وردت في «غاية المرام» رواية واحدة عن طريق العامّة وثلاث روايات عن طريق الخاصّة جاء فيها أنّ المراد بالصراط المستقيم في الآية هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام . ونورد هنا رواية عن الخاصّة .

يروي محمّد بن يعقوب الكلينيّ بإسناده عن محمّد بن الفضيل ، عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام ؛ قَالَ : قُلْتُ : «أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ» ؟ قَالَ : إنَّ اللَهَ ضَرَبَ مَثَلاً: مَنْ حَادَ عَنْ وَلَايَةِ عَلِيٍّ كَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ لا يَهْتَدِي لأَمْرِهِ ، وَجَعَلَ مَنِ اتَّبَعَهُ سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَالصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ .[٣]

أمّا الرواية الواردة عن طريق العامّة ، فيقول الراوي عن عبد الله بن عمر إنَّهُ قَالَ لِي : إنِّي أَتَّبِعُ هَذَا الأَصْلَعَ[٤] فَإنَّهُ أَوَّلُ النَّاسِ إسْلَاماً وَالحَقُّ مَعَهُ ، فَإنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ» : فَالنَّاسُ مُكِبُّونَ عَلَى الوَجْهِ غَيْرَهُ.[٥]

١ـ «غاية المرام» ص ٤٣٤ ، الباب ٢١٠ .

٢ـ الآية ٢٢ ، من السورة ٦٧ : الملك .

٣ـ «غاية المرام» ص ٤٣٥ ، الباب ٢١٢ .

٤ـ يقصد به أمير المؤمنين عليه السلام ، ويُطلق على من انحسر شعر مقدّم رأسه ، وكان عليه السلام كذلك . (م)

٥ـ «غاية المرام» ص ٤٣٥ ، الباب ٢١٣ .

كما أورد في «غاية المرام» ثلاثة أحاديث عن طريق العامّة وأربعة عن طريق الخاصّة في شأن الآية المباركة: **وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَاطِ لَنَـٰكِبُونَ**،[1] جاء فيها أنّ المراد بالصراط هو ولاية أهل البيت عليهم السلام. وننقل هنا رواية واحدة من كلٍّ من الطريقين.

أمّا عن طريق العامّة فيروي **إبراهيم بن محمّد الحموينيّ** بإسناده عن **سعد بن طريف** عن الأصبغ بن نباتة، عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: «**وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَاطِ لَنَـٰكِبُونَ**»، **قَالَ: عَنْ وَلَايَتِنَا.**[2]

وأمّا عن طريق الخاصّة فيروي محمّد بن العبّاس بن ماهيار في تفسيره «فيما نزل في أهل البيت» بإسناده عن الإمام عليّ بن أبي طالب في تفسير قوله تعالى: «**وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَاطِ لَنَـٰكِبُونَ**»، **قَالَ: عَنْ وَلَايَتِنَا أَهْلَ البَيْتِ.**[3]

وفي الحديث أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: **لَا يَجُوزُ أَحَدٌ عَنِ الصِّرَاطِ إلَّا وَكَتَبَ لَهُ عَلِيٌّ الجَوَازَ.**

وقد أوردنا هذه الروايات بأسانيدها المختلفة عن طريق الشيعة والعامّة في الجزء الأوّل من مجموعة «معرفة الإمام». وممّا يثير العجب أنّ أبا بكر هو أحد الذين رووا هذه الرواية عن رسول الله بلا واسطة، حيث تُعدّ سلسلة سند هذه الرواية إلى أبي بكر صحيحة في نظر العامّة؛ كما أنّ من الذين رووا هذا الحديث دونما واسطة ابن عبّاس وابن مسعود، إلّا أنّ معظم

١ـ الآية ٧٤، من السورة ٢٣: المؤمنون.

٢ـ «غاية المرام» ص ٢٦٣، الباب ٥٦.

٣ـ «غاية المرام» ص ٢٦٣، الباب ٥٧.

أعيان علماء العامّة نقلوا هذا الحديث في كتبهم المعتبرة بإسنادهم إلى أبي بكر ، وقد نقل المرحوم آية الله الشيخ نجم الدين الشريف العسكريّ ذلك مفصّلاً .[1] كما نُقلت هذه الرواية في «غاية المرام» الباب الرابع والخمسين ، ص ٢٦٢ في عشرة أحاديث عن طريق العامّة ، وفي الباب الخامس والخمسين ص ٢٦٢ في سبعة أحاديث عن طريق الخاصّة .

ونشرع الآن ببحث إجماليّ في مضمون هذا الحديث الشريف ، إذ يقول الحديث بأنّ عليّاً هو صراط الحقّ ، وإنّ مَن سيتمكّن من عبور هذا الصراط هو الذي يمتلك تقارباً مع عليّ عليه السلام في جميع الجوانب ، سواءً من جانب العقيدة أم المَلَكة والأخلاق والصفات والسيرة . فإن لم يكن كالإمام استقامةً ، فعليه ـ على الأقلّ ـ أن لا يبتعد عنه ولا يُخالفه في النهج .

ثمّ إنّ الإنسان يمرّ خلال اجتيازه الصراط بجملة من العقبات منها عقبة الصلاة ، عقبة الأمانة ، عقبة الرَّحِم ، عقبة الولاية ، عقبة التوحيد ؛ وينبغي على المرء أن يحصل على تصريح بالعبور في كلّ واحدة من هذه العقبات التي يعسر تخطّيها واجتيازها . أي أنّه ينبغي أن يكون هناك تشابهاً ـ على أقلّ تقدير ـ بين صلاته وصيامه وجهاده وحجّه وزكاته مع أعمال ذلك الإمام .

فإن شاء امرؤ ـ والحال هذه ـ أن يتحرّك على هذا الصراط دون أن يكون له معرفة به ، ودون أن يكون منخرطاً في طريق الولاية ونهج التوحيد ، فإنّه سيحتاج إلى تصريح بالعبور ، وسيكون ممّن يُلقى بهم في نار جهنّم فيصدق عليهم أنّهم عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ .

١ـ «مقام الإمام أمير المؤمنين عند الخلفاء وأولادهم والصحابة» ص ٣ إلى ٦.

ومن هنا فقد جاء في الروايات المتواترة للشيعة والعامّة : **عَلِيٌّ قَسِيمُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ** ، أي أنّ عليّاً هو صراط الحقّ الذي عيّنه الباري المتعال وقال في شأنه : إن شئتم السير باتّجاهي والخلود في حَرَمي والتنعّم برضواني فينبغي أن تكون جميع أُموركم سويّة صحيحة ، وأن تكونوا قد أعطيتم لنفسكم حقّها وللآخرين حقوقهم ولله تعالى حقّه ، وأن تكونوا قد اجتنبتم الظلم والتعدّي . أنتم بشر ، فعليكم أن تجعلوا لأنفسكم صورةً إنسانيّة ، وأن تتخطّوا الصفات البهيميّة .

وحقّ الله هو أن تعرفوه ، فتعبروا ـ من خلال ورودكم هذا الصراط وأُنسكم بالأنوار القدسيّة الإلهيّة واستجلابكم لها ـ من ظلمات عالم النفس وكدورات الشهوة .

وهذا المعنى محال ومتعذّر بدون الورود في صراط الولاية المستقيم .

وعلى هذا الأساس ، فسيكون الوارد في هذا الصراط وارداً في الجنّة ، أمّا غير الوارد فيه فسيهوي في النار . والبغض والعداوة والحسد والحقد والبخل والطمع والجشع ، والاعتداء على الحقوق ، والجحود ، وإنكار الحقّ ، والاستكبار هي النار ؛ أمّا العطف والمحبّة والحنان والإيثار والعفو والعدل والتواضع والخضوع والخشوع والتسليم والانقياد للحقّ تعالى فهي الجنّة . وحبّ عليّ الذي يمثل أُنموذج هذه الصفات ومَثَلَها الأعلى هو طريق الجنّة ؛ أمّا بغضه ونصب العداوة له فيستلزمان الخشونة والاستكبار الباطنيّ ، ويستلزمان جهنّم في نهاية المطاف .

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : **حُبُّ عَلِيٍّ حَسَنَةٌ وَبُغْضُ عَلِيٍّ سَيِّئَةٌ.**[1]

١ـ وردت روايات متضافرة بهذا المضمون من قبل الشيعة والعامّة ، منها ما أورده ⇐

حبّ عليّ حسنة ، والحسنة ـ كما هو بيّن ـ طريق الجنّة . وبغض عليّ سيئة ، والسيّئة ـ كما هو جليّ ـ طريق النار . فعليٌّ ـ إذاً ـ قسيم الجنّة والنار . هذا من جهة .

ومن جهة أُخرى فإنّ الصراط الذي يفصل بين الإنسان وبين الحقّ هو طريق يبلغ بالإنسان إلى مقام العرفان ويجعله فانياً في ذات الحقّ تعالى ، وينفي عنه جميع شؤون عالم الوجود وعالم الاستكبار والتفرعن ، ويدخله في عالم التوحيد ، ثمّ يجعله ـ عند العودة إلى عالم البقاء ـ متّصفاً بصفات الحقّ عزّ وجلّ .

وأمير المؤمنين عليه السلام هو الجامع لكلّ هذه الصفات والمقامات أي أنّه هو الوليّ الذي بلغ مقام الفناء في الله عزّ وجلّ ، وصار ـ فوق ذلك ـ باقياً بمقام البقاء بالله ؛ كما أنّه حامل لواء الحمد والإمامة ، وذو سعة وشمول يكتنفان جميع عالم الوجود ، وهو الجامع لجميع أسماء الحقّ وصفاته . فمن شاء عندئذٍ اجتياز مرحلة من هذه المراحل ، فينبغي أن يكون عبوره وعمله منطبقاً مع الإمام ، سواءً في الصلاة ، أم في الأمانة أم في صلة الرحم أم في الجهاد ، أم في إعانة الفقراء والمساكين أم في الإنفاق في سبيل الله أم في الإيثار أم في المحبّة والولاية أم في اتّباع كتاب الله وسُنّة رسوله أم في مراحل تزكية النفس وتهذيبها .

فكلّما كان المرء أقرب إلى هذا الصراط ، سهل عليه العبور عندئذٍ ، وزادت سرعة طيّه للصراط فصار يجتازه كالبرق الخاطف . أمّا إذا أبطأ في سرعته قليلاً ، عبر بسرعة الريح ، فإن أبطأ وثقُل مرّ كالراكب ، فإن ثقل مرّ

⇐ القندوزيّ في «ينابيع المودّة» ص ١٢٥ طبعة إسلامبول : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : حُبُّ عَلِيٍّ حسنةٌ لا تضرُّ معها سيّئةٌ ؛ وبُغضُ عليٍّ سَيّئةٌ لا تنفع معها حسنةٌ .

كالراجل، فإن ثقل وأبطأ مرّ يجرّ أقدامه جرّاً. أمّا إذا كان الأمر لا سمح الله أعسر من ذلك، فستتعلّق إحدى قدميه في النار وينال منها لفحة. فإن ثقل أكثر، هوى في النار ليطهّره الله بذلك. فإن كان من الأشقياء والمنكرين خُلِّد في عذاب الله نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِ الحَلِيمِ.



المجلس الثالث والخمسون

صراط جهنم، والطريق إلى الجنة



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا * لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَآءً وِفَاقًا.[1]

ورد في كثير من الآيات القرآنيّة أنّ العبور على صراط جهنّم أمر مختصّ بالظالمين ، بينما يتعيّن ـ في الوقت نفسه ـ على جميع الجنّ والإنس أن يردوا في النار ، ليخرج منها من شاء الله تعالى له الخروج والنجاة .

فتبعاً لمضمون الآية الكريمة : وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا التي بحثنا معناها مفصّلاً ؛ ولمضمون الآية المباركة :

وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.[2]

فينبغي على جميع أفراد الجنّ والإنس المكلّفين بالتكليف الإلهيّ دخول جهنّم التي تمثّل ظهوراً للدنيا وتجلّياً لها ، ثمّ إنّهم يخرجون منها

١ـ الآيات ٢١ إلى ٢٦ : ، من السورة ٧٨ : النبأ .

٢ـ الآية ١٣ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

تبعاً للإرادة والمجاهدة فيتوجّهون إلى الجنّة التي تمثّل الحياة العُليا .

ويمكن القول ـ توضيحاً لهذه الحقيقة ـ بأنّ هناك صراطاً إلى جهنّم مآله ومرجعه إلى النار ؛ وأنّ هناك صراطاً إلى الجنّة ينتهي إلى الرضوان ، على الرغم من كونه فوق جهنّم ، ممّا يجعل الوصول إلى مقام الرضوان مستلزماً للعبور على جهنّم .

وهناك آيات ذات دلالة على أنّه ينبغي على جميع الأفراد أن يجتازوا الصراط ، وأنّ الصراط هو الصورة الإنسانيّة وحقيقة الولاية . صراطٌ مرجعه ومآله جنّةُ الله ورضوانه ، ولو استلزم المشاق والمشكلات والامتحانات والابتلاءات والمجاهدات ، وكان العبور منه ـ وهو الصراط على جهنّم النفس الأمّارة ـ قد تجسّد في ذلك العالم على هيئة صراط على جهنّم ، بحيث لا يمكن للمرء بلوغ الدرجات العليا والمقامات الحسنى إلّا باجتيازه والعبور فوقه .

وهناك آيات ذات دلالة على أنّ الصراط الذي يعبر عليه الظالمون والمستكبرون هو صراطٌ إلى جهنّم ، مآله ومرجعه عذاب الله وسخطه . مثل آية :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا.[1]

وآية : **ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ.**[2]

وليس المراد من الأزواج في هذه الآية خصوص نسائهم ، لأنّ عبارة

١ـ الآيتان ١٦٨ و ١٦٩ ، من السورة ٤ : النساء .

٢ـ الآيتان ٢٢ و ٢٣ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا تشمل الرجال والنساء ؛ بل المراد بها الأزواج من طائفة الجنّ الذين بادلوا الظالمين المودّة . يشهد على هذا المعنى الآية الشريفة :

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا.[1]

فالمراد ـ إذاً ـ من الأزواج ، شياطين الجنّ الذين يتعاملون مع الإنس ويلقون إليهم بالمودّة ، فيشتركون في إغواء بعضهم البعض وفي إبعادهم عن طريق الله تعالى ، دون أن ينطوي الأمر على إجبار للطرف الآخر ولا على سلبٍ لإرادته واختياره . إذ يُستفاد من الآيات القرآنيّة والروايات الواردة أنّ الظالمين لهم شيطان يُلقي إليهم سيّئ القول وخادعه ويجهد لسدّ طريقهم إلى الله تعالى .

مثل آيات :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ * وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْا فِى ٱلْبِلَـٰدِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ.[2]

حيث بيّنت الآية الكريمة أنّ الله تعالى للطاغين بالمرصاد . ومن الجليّ أنّ الطغيان هو الإفراط في الظلم والاستكبار .

ومثل آية : **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا.**[3]

وعلى أيّة حال فإن الظلم هو الاعتداء والتجاوز ، أو التفريط والتقصير في حقّ الناس ، أو في حقّ النفس ، أو في حقّ الله تعالى .

١ـ الآية ٦٨ ، من السورة ١٩ ، مريم .

٢ـ الآيات ٦ إلى ١٤ ، من السورة ٨٩ : الفجر .

٣ـ الآيتان ٢١ و ٢٢ ، من السورة ٧٨ : النبأ .

فالظلم للناس هو الإجحاف بحقوقهم ، والاعتداء على أموالهم وأعراضهم ونواميسهم ونفوسهم وتهديد إيمانهم ، أو التقصير والتفريط في حقّهم كعدم إعطاء نصيب الفقراء والمحتاجين ، وعدم رعاية الضعفاء واليتامى والمساكين والبائسين ، وحرمانهم من الاستفادة من معارف الإسلام والقرآن ، ومن التعليم والتربية بالآداب الدينيّة والسنن النبويّة وفقاً لمنهاج الأئمّة المعصومين ، وترك أفكارهم متعطّشة لمعين التوحيد والمعارف الحقّة . وأخيراً فإنّ الظلم عبارة عن التقصير والإمساك عن إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه الذي يجب له على الإنسان بنحوٍ من الأنحاء .

والظلم في شأن النفس هو عدم تربيتها تربية صالحة وتركها مرخاة العنان في نواياها الشيطانيّة والشهويّة والغضبيّة ، وإهدار ثروة الحياة والعمر ، وإضاعة أيّام العمر باطلاً باللهو واللعب ، وعدم إيصال الكمالات والقابليّات الموهوبة من قبل الله تعالى إلى فعليّتها في طريق التقرّب إليه سبحانه وبلوغ مقام الإنسانيّة الشامخ .كما أنّه عبارة عن إتلاف العلوم والمعارف ، وصرف القدرات والإمكانات في أُمور سطحيّة وغير نافعة . وظلم النفس ـ أخيراً ـ هو كلّ ما يحدّها عن الرقيّ والتكامل ويقطع عليها طريق الوصول إلى الفناء في الله عزّ وجلّ والبقاء به تعالى .

أمّا الظلم في شأن الله تعالى فهو التقصير تجاهه عزّ وجلّ ، أي التقصير في أمر الولاية التي مرجعها إلى أولياء الله ؛ فمن ظلم الولاية وظلم أولياء الله ، فإنّه قد ظلم الله تعالى .

ولقد خاطب الله سبحانه نبيّه موسى على نبيّنا وآله وعليه السلام :

يا موسى لم لا تعودني في مرضي ؟

فقال : أَوَ تمرض أنتَ يا إلهي ؟!

فجاءه الخطاب : بلى ، لقد مرض عبدي فلان ووليّي فلان في الموضع

الفلاني فلم تعده . فأنتَ ـ إذاً ـ لم تعدني !

أجل ، إنّ وليّ الله الذي ليس في قلبه ولا في خواطره وأفكاره من شيء إلّا الله ، سيكون قلبه محلّ الله تعالى ومأواه ، ومركزاً لتجلّياته وظهوره . والله تعالى لا يمرض ، لكنّنا إذا شئنا أن نبلغ بارتباط وتوحّد أولياء الله معه سبحانه إلى أقصاه ، فعلينا القول إنّ الله قد مرض بمرض وليّه .

ومن جهة أُخرى فإنّ من يعادي مقام الولاية ، فإنّه يعادي الله عزّ وجلّ ؛ ومن يودّهم ويحبّهم فإنّه يودّ الله ويحبّه . ومن يُثير عليهم الفتنة ، فإنه يثير الفتنة على الله تعالى . ومن يعينهم فإنّه يعين الله تعالى .

وعلى أيّة حال فإنّ جميع أقسام الظلم الذي قد يبدر من الإنسان ، والطغيان والتمرّد اللذين قد يصدران منه ناشئة من اتّباعه الأهواء الشيطانيّة والنفس الأمّارة . وأساس ذلك الاغترار بزينة الدنيا والتعلّق القلبيّ بالأوهام والتخيّلات التي ندعوها في عالمنا ـ عالم الاعتبار ـ بالنظام الاجتماعيّ والمدنيّة ، فنبتعد بذلك عن الحقائق ونتعلّق بالأوهام فنسلك في النتيجة طريق جهنّم ، ونبتعد عن الصراط المستقيم بمقدار ازدياد درجة ظلمنا وإجحافنا .

على أنّ هناك مزالّ تدعى **بالعقبات** في الصراط الذي نجتازه ؛ والعقبة هي الهوّة في المناطق الجبليّة التي يصبح الطريق فيها ضيّقاً وخطراً ، بحيث إنّ أدنى زلّة وغفلة ستكون كافية للمرء ليهوي في أعماق الوادي السحيق .

وللمرحوم الشيخ الصدوق كلام في كتابه «الاعتقادات» نورده هنا مع إيضاحات منّا . قال : اعتقادنا في العقبات التي على طريق المحشر أنّ كلّ عقبة منها اسمها اسم فرض وأمر (كعقبة الصلاة ، عقبة الصيام ، عقبة الزكاة ، عقبة الجهاد ، عقبة الحجّ ، عقبة الأمانة ، عقبة الولاية وغير ذلك من

الفرائض) ونهي (كعقبة ترك الكذب ، وترك الغيبة ، وترك الزنا ، وسائر المحرّمات الإلهيّة) .

فمتى انتهى الإنسان إلى عقبةٍ اسمها فرض ، وكان قد قصّر في ذلك الفرض ، حُبس عندها وطولب بحقّ الله فيها . (وخوطب بخطاب : **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ**. فهو يُسأل مثلاً : ماذا عملتَ بشأن الأمانة ؟ وماذا عملتَ بشأن الصلاة ؟ وهكذا يُسأل في كلّ واحدة من العقبات) . فإن هو خرج منها بعملٍ صالح أو برحمةٍ تدركه ، فقد نجا منها إلى عقبة أُخرى ، ويبقى يُدفع من عقبة إلى أُخرى ، ويُحبس عند كلّ عقبة فيُسأل عمّا قصّر فيها من معنى اسمها ؛ فإن سلم من جميعها انتهى إلى دار البقاء فيحيا حياةً لا موتَ فيها أبداً ، وسعد سعادةً لا شقاوة معها أبداً ، وسكن في جوار الله مع أنبيائه وحُججه والصدّيقين والشهداء والصالحين من عباده .

وإن حُبس على عقبة فطُولب بحقٍّ قصّر فيه فلم يُنجه عمل صالح قدّمه ، ولا أدركته من الله عزّ وجلّ رحمةٌ ، زلّت به قدمه عن العقبة فهوى في جهنّم نعوذ بالله منها . وهذه العقبات كلّها على الصراط (أشبه بالعقبات الموجودة في الجبال ، فإن نحن اجتزنا عقبةً منها سلمنا منها ، وإن زلّت بالإنسان قدمه فيها هوى) .

اسم عقبةٍ منها الولاية ، يُوقف جميعُ الخلائق عندها فيُسأَلون عن ولاية أمير المؤمنين والأئمّة من بعده عليهم السلام . فمن أتى بها نجا وجاز ، ومن لم يأت بها بقي فهوى . وذلك قول الله عزّ وجلّ : **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ**.[1]

وأهمّ عقبة منها المرصاد ، وهو قول الله عزّ وجلّ : **إِنَّ رَبَّكَ**

١ـ الآية ٢٤ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

لَبِٱلْمِرْصَادِ.[١]

ويقول عزّ وجلّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يَجُوزُنِي ظُلْمُ ظَالِمٍ.

واسمُ عقبةٍ منها الرَّحِم؛ واسم عقبة منها الأمانة؛ واسم عقبة منها الصلاة؛ واسم كلّ فرض أو أمر أو نهي يُحبس عندها العبد فيُسأل.

كان هذا هو كلام الشيخ الصدوق محمّد بن عليّ بن الحسين بن موسى ابن بابويه في «الاعتقادات». وقال الشيخ المفيد: محمّد بن النعمان رحمة الله عليه في شرحه على «اعتقادات الصدوق»:

العقبات عبارة عن الأعمال الواجبة والمُساءلة عنها والمُواقفة عليها. وليس المراد بها جبالٌ في الأرض تُقطع. وإنّما هي الأعمال شُبّهت بالعقبات، وجُعل الوصف لما يلحق الإنسان في تخلّصه من تقصيره في طاعة الله تعالى، كالعقبة التي يجهده صعودها وقطعها. قال تعالى:

فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ.[٢]

فسمّى سبحانه الأعمال التي كلّفها العبد عقبات تشبيهاً بالشعب المتعرّجة بأعالي الجبال، لما يلحق بالإنسان في أدائها من مشاقّ، كما يلحقه في صعود العقبات وقطعها. وقال أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه:

إنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَؤُوداً وَمَنَازِلَ مَهُولَةً لَابُدَّ مِنَ المَمَرِّ بِهَا وَالوُقُوفِ عَلَيْهَا، فَإِمَّا بِرَحْمَةِ اللهِ نَجَوْتُمْ وَإِمَّا بِهَلَكَةٍ لَيْسَ بَعْدَهَا انْجِبَارٌ.

أراد عليه السلام بالعقبة تخلّص الإنسان من العقبات التي عليه، وليس كما ظنّه الحشويّة من أنّ في الآخرة جبالاً وعقبات يحتاج الإنسان

١ـ الآية ١٤، من السورة ٨٩، الفجر.

٢ـ الآيات ١١ إلى ١٣، من السورة ٩٠: البلد.

إلى قطعها ماشياً أو راكباً. وذلك لا معنى له فيما توجبه الحكمة من الجزاء ولا وجهَ لخلق عقبات تسمّى بالصلاة والزكاة والصيام والحجّ وغيرها من الفرائض يلزم الإنسان أن يصعدها، فإن كان مقصّراً في طاعة الله حالَ ذلك بينه وبين صعودها، إذ كان الغرض في القيامة الوقوف على الأعمال والجزاء عليها بالثواب والعقاب، وذلك غير مفتقر إلى تسمية عقبات وخلق جبال وتكليف قطع ذلك وتصعيبه أو تسهيله، مع أنّه لم يرد خبرٌ صحيح بذلك على التفصيل فيُعتمد عليه وتخرج له الوجوه. وإذا لم يثبت بذلك خبر، كان الأمر فيه ما ذكرناه.

كان هذا هو بيان الشيخ المفيد أعلى الله تعالى مقامه الشريف.

ويقول المجلسيّ رضوان الله عليه عقب كلام المفيد رحمة الله عليه:

تأويل ظواهر الأخبار بمحض الاستبعاد بعيدٌ عن الرشاد، ولله الخيرة في معاقبة العاصين من عباده بأيّ وجهٍ أراد. (لذا فلا إشكال بأن يكون المراد من العقبات المعنى الظاهريّ من العقبات والجبال صعبة العبور) وقد مضى بعض الأخبار في ذلك وسيأتي بعدها والله الموفّق للخير والسداد.[1]

كان هذا كلام جدّ أُمّنا لأبيها: العلّامة محمّد باقر المجلسيّ رحمة الله عليه، والحقّ أنّه كلام مقبول، لأنّ الإنسان لا يمكنه تأويل ظواهر الأخبار بمجرّد الاستبعاد، خاصةً فيما يتعلّق بعوالم الغيب التي لا يدركها بالحسّ.

وبغير ذلك فإنّ جميع المعارف الغيبيّة من الحور والقصور والجنّات والنعيم قابلة للتأويل. وإذا فُتح باب التأويل في هذا المجال على مصراعيه، وفُسح المجال للانسان للتأويل بحرّيّة، فإن كلّ شيء سينهار وَلَنْ يَبْقَى حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ.

١ـ «بحار الأنوار» ج ٧، ص ١٢٨ إلى ١٣٠، الطبعة الحروفيّة.

ويبدو أنّ المرحوم المفيد يريد بيان معنى دقيق من خلال التفاته إلى هذا المعنى ، وهو أنّ هناك معانٍ معقولة جرى تشبيهها في الأخبار والروايات بالمحسوسات ، وعلينا أن نأخذ بذلك المعنى المعقول ونعتبر المعنى المحسوس مجرّد تشبيه .

فقد جاء في القرآن الكريم مثلاً : **ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ** .[1]

ومن المسلّم أنّه من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ، لأنّ الله ليس بجسم ، وليس له عرش للحكم . فينبغي علينا أن نعتبر أنّ هناك عرشاً للّه يتناسب مع وجوده البحت البسيط المجرّد الذي لم يزل ولا يزال ، وهو عالم إرادة الله ومشيئته ، والبناء المشيّد للإمكان وعالم الوجود . وكما أنّ عرش حكومة السلطان هو محلّ ظهور قدرته وصدور أوامره حين يتربّع عليه فيصدر أحكامه وأوامره وينادي بنداء الأنانيّة ؛ فإن الله تعالى ـ في المقابل ـ يتسلّط على عالم الوجود ويهيمن عليه ويصدر أحكامه التكوينيّة والتشريعيّة بواسطة عالم المشيئة والإرادة . فعرش الله وكرسيّه ـ إذاً ـ هما عالم مشيئته وإرادته . ومن المسلّم أنّ الله تعالى له عرش بهذه الصفة .

وورد في القرآن الكريم : **ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** .[2] حيث إنّ من المسلّم أنّ حمل العرش ليس كمثل حمل عرش السلطان على أكتاف الناس .

وفي القرآن الكريم أيضاً : **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ** .[3]

فهل هناك ثمانية ملائكة يحملون على أكتافهم عرش الله وكرسيّ

١ـ الآية ٥ ، من السورة ٢٠ : طه .

٢ـ الآية ٧ ، من السورة ٤٠ : غافر .

٣ـ الآية ١٧ ، من السورة ٦٩ : الحاقّة .

حكومته ؟ أم أنّ الأمر يختلف عن ذلك ؟ إنّ المؤتمرين بإرادة عرش الحضرة الأحديّة سبحانه وتعالى في هذا العالم ـ عالم المادّة والإمكان ـ أربعة من الملائكة المقرّبين هم عزرائيل ، جبرائيل ، ميكائيل وإسرافيل ؛ وهم حملة وسائط الفيض وما يحتاجه عالم الطبع . أمّا في ذلك العالم فإنّ حملة احتياجات ذلك العالم سيتضاعفون نظراً لسعة ذلك العالم وتجرّده الملكوتيّ ، فيصبحون ثمانية من الملائكة المقرّبين يشكّلون واسطة للفيض السبحانيّ لمقام الأحديّة إلى ذلك العالم . وهذا هو معنى الثمانية ومعنى حمل عرش الله عزّ وجلّ .

وجاء أيضاً في القرآن الكريم : **وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**.[١]

فهل الله سبحانه جسم له مجيء وذهاب ، شأنه شأن الإنسان ؟

أبداً أبداً . بل إنّ معنى مجيء الله هو ظهوره عزّ وجلّ ، لأنّ المجيء في اللغة بمعنى الظهور التدريجيّ . ومن هنا فإنّ ظهور الله والملائكة هو مجيؤهم ، ومجيء الله عزّ وجلّ هو ظهور وطلوع قدرته وعلمه وحياته البسيطة المجرّدة . ونظير هذه التعابير كثير وجمّ في الآيات والروايات مثل : **يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**؛[٢] ومثل : **عَيْنُ اللَـهِ ، وأُذُنُ اللَـهِ ، ولِسَانُ اللهِ** وغيرها ممّا لا يُحصى .

وقد جاء في القرآن الكريم :

وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ.[٣]

١ـ الآية ٢٢ ، من السورة ٨٩ : الفجر .

٢ـ مقطع من الآية ١٠ ، من السورة ٤٨ : الفتح .

٣ـ الآية ١٥٣ ، من السورة ٦ : الأنعام .

فهل يمكن اعتبار الصراط والسبيل والسبل في هذه الآية بمعنى الطرق المادّيّة الطبيعيّة ، والقول بأنّ المراد بذلك الجادّة ، لأنّ الجادّة مستقيمة ومعبّدة ، في مقابل الطرق المعوجّة غير المعبّدة ؟

من المسلّم أنّ هذا الصراط وهذا السبيل أمران معنويّان ، وأنّهما كناية عن كشف الحجب عن العبد ووصوله إلى مقام العزّ الشامخ للحقّ تعالى من خلال العمل بالقرآن والسنّة واتّباع نهج النبيّ العظيم الشأن .

ولو قلتم ـ مثلاً ـ بأنّ لديكم محاكمة غداً ، وإنّها عقبة يتوجّب عليكم اجتيازها ، فماذا سيكون مرادكم ـ يا ترى ـ من تلك العقبة ؟ أهناك في جلسة المحاكمة جبل يتوجّب اجتياز عقبته ؟ أم أنّ المراد بذلك هو تمكّنكم من الإجابة بصورة مقنعة ، واستطاعتكم الدفاع عن حقّكم ؟

وعلى أيّة حال فإنّ جميع هذه الموضوعات هي من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ، أو من باب استعمال الألفاظ في معانيها الحقيقيّة بناءً على قولنا بأنّ الألفاظ قد وُضعت للمعاني العامّة .

وعلى هذا الأساس فإنّ العقبة لا تعني عقبة الجبل ، كما أنّ العرش لا يعني الكرسي الخشبيّ أو الذهبيّ ؛ بل العقبة بمعنى الضائقة مادّيّةً كانت أو معنويّة . كما أنّ العرش بمعنى محلّ الحكم ، سواءً كان ذلك العرش خشبيّاً أم ذهبيّاً أم كان إحاطةً وهيمنةً مثاليّة وبرزخيّة ونفسيّة وقيامتيّة .

والعلّة في ذلك أنّهم لمّا أرادوا بيان تلك المعاني المعقولة ، فإنّهم لم يجدوا مناصاً من استعمال هذه الألفاظ المتداولة المستعملة في المعاني المحسوسة ، فعبّروا عن تلك المعاني بقالب الألفاظ المتداولة . بَيدَ أنّ المجلسيّ ـ على أيّة حال ـ لم يتكلّم في هذا المجال على غير طائل . إذ من المسلّم بأنّ الموجود المادّيّ محسوس في هذا العالم ، وكثيراً ما يحصل أن تخرج بعض الأُمور عن نطاق عالم المادّة وتدخل ضمن عالم المثال

والصورة ، فيراها الإنسان في عالم الصورة .

فقد تشاهدون في نومكم أنّكم تشربون الماء ـ مثلاً ـ أو تسبحون في بحر زلال صافٍ ، ويحصل ذلك بسبب اتّباعكم المعارف والعلوم . فالعلم من الصفاء بالقدر الذي لو شُبّه معه في عالم الحسّ بشيء ، لكان ذلك الشيء ماءً ، لا حجارةً ولا خشباً ولا شجراً . فالماء في جريانه يمثّل رحمةً لا بُخل فيها . إذ يمكن لكلّ امرئ أن يشرب الماء دون تزاحم مادّيّ ، ولو صُبّ الماء على الأرض لجرى أينما أمكنه الجري ، ولتسلل في فتحات الأرض والجبال ومساماتها ، ولجرى في طبقات الصخور . فتلك هي خاصّيّة الماء . والعلم في عالمه ومرتبته على هذه الشاكلة . لذا يرى طلبة العلم في نومهم أنّهم يبحثون عن الماء ؛ فإن انهمكوا في تحصيله فعلاً ، شاهدوا أنّهم يشربونه أو يسبحون فيه .

أمّا من يشاهد في نومه أنّه يشرب اللبن ، فإنه يحظى بالمعارف الإلهيّة .

وأمّا من يشاهد أنّه يذهب إلى الحمّام فيغسل بدنه أو يتوضّأ أو يغتسل ، فمن المسلّم أنّه في صدد تزكية نفسه وتطهيرها ، لأنّ الاغتسال والطهارة الظاهريّة مثال وأُنموذج محسوس من الطهارة الباطنيّة ، حيث تتجلّى تلك الطهارة الباطنيّة في ذلك العالم في هيئة الوضوء والاغتسال .

وقد يرى امرؤ في النوم أنّه يريد التوضّؤ أو القيام بالتطهير ، لكنّه يبحث عن الماء فلا يعثر عليه . ومثل هذا الشخص في صدد تزكية نفسه إلّا أنّه لم يوفّق بعدُ للقيام بتلك التزكية . وبطبيعة الحال فإنّ هذه المطالب متعلّقة بعالم المثال والبرزخ والصورة وليس بعوالم ما فوق الصورة .

فما أخبرنا به القرآن ـ إذاً ـ من أنّ الجنّة والنار والحور العين و**جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ودرجات الجنّة ودركات الجحيم هي أُمور ذات

صورة يمثل أمراً صحيحاً صائباً ، وعلينا ألّا نقول بأنّها معانٍ محضة لا صورة لها ، وأنّها بأجمعها من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ، إذ ليس الأمر على هذه الشاكلة .

فكما يرى الإنسان المعاني المعقولة في النوم في صورة وهيئة معيّنة ، وكما تتجسّد أعماله ومقاصده ونواياه وأمانيه في صورة معيّنة في عالم النوم ؛ فإنّ الصلاة والحجّ والصوم والجهاد والولاية والأمانة تتجسّد ـ بدورها ـ في ذلك العالم في صور نِعم الجنّة ، وتتجلّى أمام الإنسان في تلك الصور .

قد ترون في النوم أنّكم تريدون عبور طريق متعرّج مليء بالمنعطفات ، وأنّ الغبار والتراب يتساقط من جوانب الطريق ممّا يجعل العبور عسيراً وشاقّاً . ومعنى ذلك أنّ هناك موانع ومشكلات تعترض مسيركم إلى هدفكم . وأنّ بلوغكم ذلك الهدف يستلزم تجشّم المشاقّ والصعوبات .

أجل ، فقد كان كلام المجلسيّ متيناً حين نوّه على عدم استطاعتنا تأويل المعارف الدينيّة وحملها على المعاني المعقولة والمحامل غير الظاهريّة بمجرّد استبعادنا لها ؛ إلّا أنّ ذلك صحيح فيما يتعلّق بعالم الصورة وبالملكوت الأسفل .

بَيدَ أنّ كلام المرحوم المفيد وقوله بأنّه ما لم تقم الحجّة ، وما لم يردنا خبر صحيح من المعصومين ، فإنّنا نرفض باب استعمال المعقول في المحسوس ، ونلتزم بكثير من الصور ، هو كلامٌ لا يخلو من وجه . وَٱلسَّلَامُ عَلَى مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ .

ينقل عليّ بن إبراهيم القمّيّ رواية في كيفية الصراط على جهنّم ، ينقلها المرحوم الصدوق بدوره في كتاب «الأمالي» . والنقلان متشابهان ، إلّا

أنّنا نورد عبارة الصدوق باعتبار وجود اختلاف طفيف في المتن .

يروي المرحوم الصدوق في «الأمالي» عن أبيه ، عن عليّ ، عن أبيه ، عن عليّ بن الحكم ، عن المفضّل بن صالح ، عن جابر ، عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام قال : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ : «وَجِاىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ» سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ؛ فَقَالَ :

أَخْبَرَنِي الرُّوحُ الأَمِينُ أَنَّ اللهَ لَا إلَهَ غَيْرُهُ إذَا جَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ أُتِيَ بِجَهَنَّمَ تُقَادُ بِأَلْفِ زِمَامٍ ؛ أَخَذَ بِكُلِّ زِمَامٍ مِائَةُ أَلْفِ مَلَكٍ مِنَ الغِلَاظِ الشِّدَادِ ، لَهَا هَدَّةٌ وَتَغَيُّظٌ وَزَفِيرٌ وَإنَّهَا لَتَزْفِزُ الزَّفْرَةَ . فَلَوْلَا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخَّرَهُمْ إلَى الحِسَابِ لَأَهْلَكَتِ الجَمْعَ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا عُنُقٌ يُحِيطُ بِالخَلَائِقِ : البَرُّ مِنْهُمْ وَالفَاجِرِ . فَمَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِهِ مَلَكاً وَلَا نَبِيّاً إلَّا نَادَى : رَبِّ ! نَفْسِي نَفْسِي ؛ وَأَنْتَ يَا نَبِيَّ اللهِ تُنَادِي : أُمَّتِي ؛ أُمَّتِي ! ثُمَّ يُوضَعُ عَلَيْهَا صِرَاطٌ أَدَقُّ مِنْ حَدِّ السَّيْفِ عَلَيْهِ ثَلَاثُ قَنَاطِرَ ، أَمَّا وَاحِدَةٌ فَعَلَيْهَا الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ ؛ وَأَمَّا الأُخْرَى فَعَلَيْهَا الصَّلَاةُ ؛ وَأَمَّا الأُخْرَى فَعَلَيْهَا عَدْلُ رَبِّ العَالَمِينَ لَا إلَهَ غَيْرُهُ . فَيُكَلَّفُونَ المَمَرَّ عَلَيْهِ فَتَحْبِسُهُمُ الرَّحِمُ وَالأَمَانَةُ ، فَإنْ نَجَوْا مِنْهَا حَبَسَتْهُمُ الصَّلَاةُ ، فَإنْ نَجَوْا مِنْهَا كَانَ المُنْتَهَى إلَى رَبِّ العَالَمِينَ جَلَّ وَعَزَّ ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : «إنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ» وَالنَّاسُ عَلَى الصِّرَاطِ فَمُتَعَلِّقٌ وَقَدَمٌ تَزِلُّ وَقَدَمٌ تَسْتَمْسِكُ وَالمَلَائِكَةُ حَوْلَهُمْ يُنَادُونَ : يَا حَلِيمُ اغْفِرْ وَاصْفَحْ وَعُدْ بِفَضْلِكَ وَسَلِّمْ سَلِّمْ .

وَالنَّاسُ يَتَهَافَتُونَ فِيهَا كَالفَرَاشِ ، وَإذَا نَجَا نَاجٍ بِرَحْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ نَظَرَ إلَيْهَا فَقَالَ : الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ بَعْدَ إيَاسٍ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ ، إنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.[1]

---

١ ـ «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ١٢٥ و ١٢٦ ، الطبعة الحروفيّة ؛ و«تفسير القمّيّ» ⇐

وورد في «علل الشرائع» عن الإمام الصادق عليه السلام في معنى الآية الشريفة : **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ** ؛ قال :

لَا يُجَازُ بِهِ قَدَمُ عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ وَعَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ؛ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ جَمَعَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ ؛ وَعَنْ حُبِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ. [1]

ويروي علي بن إبراهيم القمّيّ في «تفسيره» ، عن الإمام الصادق عليه السلام ؛كما يروي الصدوق في «الأمالي» و «عيون أخبار الرضا» عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : **إنَّ الْمَسْؤُولَ عَنْهُ وَلَايَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.** [2]

وروى في «مجمع البيان» عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، قال :

تَقُولُ النَّارُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : جُزْ يَا مُؤْمِنُ فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهَبِي. [3]

كما روى عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : **أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : «وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا» ـ الآيَاتُ ، فَقَالَ : إذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَلَيْسَ قَدْ وَعَدَنَا رَبُّنَا أَنْ نَرِدَ النَّارَ ؟ فَقَالَ : قَدْ وَرَدْتُمُوهَا وَهِيَ خَامِدَةٌ.** [4]

إنّ جهنّم هي مظهر الدنيا ؛ ولقد قدم أولياء الله إلى الدنيا بَيدَ أنّهم اجتازوها دون أن يتعلّقوا بها ، لذا فإنّ نار جهنّم ستكون خامدة وهامدة عند عبورهم عليها في الآخرة ، وستكون عليهم برداً وسلاماً ، إذ إنّ النفس

⇦ ص ٧٢٤ و ٧٢٥.

١إلى ٤ـ «رسالة الإنسان بعد الدنيا» ، (المعاد) ؛ للعلّامة الطباطبائيّ ، النسخة الخطّيّة ، ص ٣٢.

الأمّارة خاضعة لهيمنتهم وسيطرتهم وليس العكس .

روي في «تفسير الصافي» حول تفسير : **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** نقلاً عن «معاني الأخبار» عن الإمام الصادق عليه السلام :

هِيَ الطَّرِيقُ إلَى مَعْرِفَةِ اللَهِ ، وَهُمَا صِرَاطَانِ : صِرَاطٌ فِي الدُّنْيَا وَصِرَاطٌ فِي الآخِرَةِ ، فَأَمَّا الصِّرَاطُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ الإمَامُ المُفْتَرَضُ الطَّاعَةُ ، مَنْ عَرَفَهُ فِي الدُّنْيَا وَاقْتَدَى بِهُدَاهُ ، مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ الَّذِي هُوَ جِسْرُ جَهَنَّمَ فِي الآخِرَةِ ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فِي الدُّنْيَا زَلَّتْ قَدَمُهُ عَنِ الصِّرَاطِ فِي الآخِرَةِ فَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ .[١]

وجاء في رواية أُخرى : **نَحْنُ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ .**[٢]

وجاء في بعض الروايات : **هُوَ صِرَاطُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ .**[٣]

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام : **إنَّ الصِّرَاطَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .**[٤]

أجل ، فالدقّة والتأمّل في هذه الروايات النازلة من مصادر الوحي تبيّن بجلاء أنّ الصراط له ظاهر وباطن . فظاهره نهج الإمام ، وباطنه حقيقة الولاية التي تتجلّى يوم القيامة في هيئة صراط يمدّ على جهنّم فيُنجي الناس

---

١ و ٢ـ «تفسير الصافي» ص ٥٤ ، تفسير سورة الحمد ؛ طبعة المكتبة الإسلاميّة .

٣ـ جاء في «شواهد التنزيل» للحاكم الحسكانيّ ، ج ١ ، ص ٩٢ : عن سلام بن المستنير الجعفيّ قال : دخلتُ على أبي جعفر ، يعني الباقر [عليه السلام] فقلت : جعلني الله فِداك إنّي أكره أن أشقّ عليك ، فإن أذنتَ لي أسألك . فقال : سَلني عمّا شئتَ . فقلتُ : أسألك عن القرآن ؟ قال : نعم . قلت : قول الله تعالى : **هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ** ؟ قال : **صِرَاطُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ** . فقلت : صراط عليّ بن أبي طالب ؟ فقال : صراط عليّ بن أبي طالب .

٤ـ «تفسير الصافي» ص ٥٤ ، تفسير سورة الحمد ؛ طبعة المكتبة الإسلاميّة .

من ورودها .

قال المرحوم المحدّث القمّيّ : أقول : جمعوا الحروف المقطّعات من أوائل سور القرآن وحذفوا المكرّرات منها ، فصار تركيبها : **عَلِيٌّ صِرَاطُ حَقٍّ نُمْسِكُهُ** ، أو : **صِرَاطُ عَلِيٍّ حَقٌّ نُمْسِكُهُ**.[1]

وقال : وجاء في «تفسير الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام» :

تَعَلَّقْ مُحِبِّي فَاطِمَةَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهَا فِي الْقِيَامَةِ بِأَهْدَابِ[2] مِرْطِهَا[3] مَمْدُوداً عَلَى الصِّرَاطِ.[4]

ومن المناسب أن نختم بحثنا عن الصراط برواية عن «جامع الأخبار» ننقلها تيمّناً وتبرّكاً : إنّ فاطمة صلوات الله عليها قالت لأبيها : يا أبت ! أخبرني كيف يكون الناس يوم القيامة ؟ قال : يا فاطمة ! يشغلون فلا ينظر أحد إلى أحد ، ولا والد إلى الولد ، ولا ولد إلى اُمّه . قالت : هل يكون عليهم أكفان إذا خرجوا من القبور ؟ قال : يا فاطمة ! تبلى الأكفان وتبقى الأبدان ، تُستر عورة المؤمن وتبدى عورة الكافر .

قالت : يا أبت ! ما يستر المؤمنين ؟ قال : نور يتلألأ لا يبصرون أجسادهم من النور . قالت : يا أبت ! فأين ألقاك يوم القيامة ؟ قال : انظري عند الميزان وأنا اُنادي : ربّ أرجح مَن شهد أن لا إله إلّا الله . وانظري عند الدواوين إذا نُشرت الصحف وأنا اُنادي : ربِّ حاسِبْ اُمَّتي حساباً يسيراً . وانظري عند مقام شفاعتي على جسر جهنّم ، كلّ إنسان مشغول بنفسه ، وأنا

١ـ «سفينة البحار» مادّة صرط ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

٢ـ الهُدْب والهُدُب : شعر أشفار العين ؛ والهدب من الثوب : طرفه الذي لم يُنسج .

٣ـ المِرط بكسر الميم : كساء طويل من صوف ونحوه ، وجمعه مروط .

٤ـ «سفينة البحار» ج ٢ ، ص ٢٨ .

مشتغل بأُمّتي أُنادي : يا ربِّ سلِّمْ أُمّتي ، والنبيّون عليهم السلام حولي ينادون : ربِّ سَلِّمْ أُمّة محمّد صلّى الله عليه وآله . وقال عليه السلام : إنّ الله يُحاسب كلّ خلق إلّا من أشرك بالله فإنّه لا يحاسب ويؤمر به إلى النار .[1]

١ ـ «بحار الأنوار» ج ٧، ص ١١٠ و ١١١ .

المجلس الرابع والخمسون

حقيقة ميزان الأعمال يوم القيامة



بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ.[1]

الحقّ هو الواقع ، ضدّ الباطل الذي هو الأمر الموهوم المتخيّل وغير الواقعيّ . فما له تحقق ووجود في الخارج يدعى حقّاً ، أمّا ما يفتقد الأصالة والوجود ، ويحوم حول الاعتبار والخيال والوهم فيُدعى باطلاً . والعالم الآخر هو عالم الحقّ في مقابل عالم الباطل . وهو دار القرار في مقابل دار المجاز ؛ ودار الواقعية واليقين في مقابل دار الاعتبار ؛ وعالم الثبات والاستقرار في مقابل عالم الوهم والخيال . ومن هنا فإنّ ما يمتلك واقعاً سيكون هناك ذا وزن وثقل ، أما الأُمور التي لا تمتلك واقعاً وحقيقة فستكون بلا وزن :

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ *

---

١ ـ الآيتان ٨ و ٩ ، من السورة ٧ : الأعراف .

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ.

ويستفاد من هذه الآية عدّة أُمور ؛ أحدها أنّها تقول : فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ ولا تقول : وَمَن ثَقُلَ مِيزَانُهُ. ممّا يُستنتج منه امتلاك الإنسان يوم القيامة عدّة موازين وليس ميزاناً واحداً فقط . فمن ثقلت موازينه كان كذا ، ومن خفّت موازينه كان كذا .

ويستفاد من بعض الروايات أنّ سبب مجيء تعبير الموازين ـ بصيغة الجمع ـ بلحاظ تعدّد أنواع أعمال الإنسان وصنوف سيرته . ولولا ذلك ، لكان الميزان واحداً والحقّ واحداً .

والأمر الآخر الوارد في الآية الشريفة أنّ ميزان عمل المفلحين هو الثقيل فقط . أمّا الخاسرون والمسيؤون فميزان عملهم خفيف طفيف . وليس الأمر بحيث إنّ لأفراد البشر المختلفين موازين أعمال تتفاوت ثقلاً ودرجةً .

وعلينا أن نرى الآن ماهيّة ميزان الأعمال ، فهل يؤتى بميزان فيضعون الحسنات في إحدى كفّتيه ، والسيّئات في الكفّة الأُخرى ، فمن ثقلت حسناته سعد وفاز ، ومن ثقلت سيّئاته خسر وشقي ؟

لوكان الأمر على هذه الشاكلة لقيل : فَمَن ثَقُلَتْ حَسَنَاتُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ، وَمَن ثَقُلَتْ سَيِّئَاتُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ. مع أنّ الآية لم تستخدم هذا التعبير . فهي لا تقول بأنّ ميزان حسنات أصحاب الجنّة ثقيل ، وإنّ ميزان سيّئات أصحاب النار ثقيل ، بل ورد التعبير في هذه الآية وفي غيرها بأنّ موازين أعمال المفلحين ثقيلة ، وأنّ موازين أعمال الظالمين والخاسرين خفيفة . لكأنّ الأعمال السيّئة ليست ذات وزن ولا ثقل أساساً ، بل هي خفيفة في ذلك

العالم وبلا وزن .

ويستفاد من هذا الأمر أنّ ما هو متداول بين العوامّ من أنّ الحسنات توضع يوم القيامة في كفّة ميزان ، وتوضع السيّئات في كفّته الأُخرى ، فإن رجحت كفّة حسنات الإنسان سيق إلى الجنّة ، وإن رجحت كفّة سيّئاته اقتيد إلى النار ، يمثّل كلاماً اختلقه العوامّ من عند أنفسهم ، لا تؤيِّده آية ولا رواية . ناهيك عن أنّ آيات القرآن ـ ومن بينهاالآية التي نحن بصدد تفسيرها ـ تخالف هذا الذوق والاتّجاه ، وتُجمع على أنّ الحسنات ذات وزن وثقل ، وأنّ السيّئات خفيفة بلا وزن ، ممّا يستتبع كون ميزان أعمال المحسنين ثقيلاً وميزان أعمال المسيئين خفيفاً . إذ إنّ المفسدين بلا وزن أساساً ، فلا يقيم لهم الله يوم القيامة وزناً .

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾.[1]

يقول تعالى : فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ، أي أنّنا لا نضع لمثل هؤلاء الضالّين ميزاناً لأنّهم بلا وزن . والحال أنّ السيّئات لو كانت ذات وزن وثقل ، لثقل ميزانها بلحاظ السوء والقُبح ورجح على جميع الموازين .

ولمّا كانت أعمال هؤلاء المسيئين في منتهى القبح بحيث لا تحتوي على شيء من الحسنات فتجعل لميزانهم وزناً ولو طفيفاً ، لذا فقد تعذّر تسمية ميزان أعمالهم بالخفيف ، وصار ميزانهم بلا وزن أساساً . بل هو لا شيء في الحقيقة .

ولمّا كانت أعمال وموازين الذين ثقلت موازينهم ترتفع إلى الأعلى ،

---

١ ـ الآيات ١٠٣ إلى ١٠٥ ، من السورة ١٨ : الكهف .

وموازين من خفّت موازينهم تنحطّ إلى الأسفل ؛ فلابدّ لنا من توضيح المراد بذلك .

فنقول : إنّنا نزن الأشياء في عالمنا ـ عالم الطبيعة ـ فينزل الميزان إن ثَقُل ، ويرتفع إن خفّ . أمّا في ذلك العالم فإنّ الأمر على العكس تماماً .

وهناك في القرآن الكريم آية تقول : **إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُ.**[1]

والكلمة الطيّبة هي روح المؤمن ؛ وصعودها هو النتيجة والصفة الخاصّة الناتجة من الإيمان ؛كما أنّ العمل الصالح هو الذي يرفع هذه الروح الطيّبة الطاهرة للمؤمن .

العمل الصالح يمنح الروح قوّة وقدرة ويُعينها في الارتقاء في درجات القرب من الحقّ تعالى . فهو أشبه ـ لو مثّلناه ـ بالوقود الذي تستخدمه الطائرة في تحليقها إلى الأعالي . منتهى الأمر أن هذا الأمر يحصل في عالم الطبيعة ، وذاك في عالم المعنى والملكوت .

يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ.[2]

ولدينا أيضاً الآية الشريفة : **لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ* ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ**[3] التي تبيّن بجلاء أنّ أوضع الأمكنة وأدناها قدْراً وأخفّها وزناً ليس الموضع العلويّ ، بل هو أسفل المواضع . إذ السّفل في مقابل العلوّ . ومن هنا فإنّ جميع الأشياء التي لا قيمة معنوية لها تهبط إلى الأسفل ؛ أمّا الموضع العالي فهو محلّ المطهّرين وموضع النزاهة والطهارة .

١ـ الآية ١٠ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

٢ـ الآية ١١ ، من السورة ٥٨ : المجادلة .

٣ـ الآيتان ٤ و ٥ ، من السورة ٩٥ : التين .

وجاء في الآية القرآنيّة الكريمة :

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

فلماذا تصعد حسنات الإنسان الثقيلة في ذلك العالم ، بينما تهبط سيّئاته الخفيفة إلى الأسفل ؟ ولِمَ ينعكس الأمر في هذا العالم ؟

الجواب : أنّ هذا العالم هو عالم المادّة ، وحقيقة هذا العالم مستبطنة داخل المادّة . ونظراً لأنّ الموازين التي تستخدم في هذا العالم هي موازين مادّيّة تعمل وفق قوّة الجاذبيّة الأرضيّة التي تمنح للأشياء وزناً وثقلاً ، فإنّ من يثقل في الميزان يهبط إلى الأسفل ، ومن يخفّ في الميزان يرتفع إلى الأعلى . أمّا ذلك العالم فليس عالماً مادّيّاً ، لذا فإنّ الأعمال لا توزن هناك وفق انجذابها إلى مركز الأرض . ذلك العالم عالمٌ علويّ يرجع فيه كلّ شيء إلى أصله ويلتحق بمنبعه ومبدئه . وسيتّجه ـ من ثمّ ـ كلّ عمل حسن إلى مركز أسماء الحقّ المتعال وصفاته ، كما سيتّجه الكلم الطيّب ـ بدوره ـ إلى ذات الحقّ . وسيُقاس كلّ عمل في ذلك العالم وفق حقيقته . فإن فاقت حقيقته حقائق الأعمال الأُخرى ارتفعت وعلت واتّجهت إلى أسماء الحقّ وصفاته ، واتّجهت نحو ذات الحقّ .

وباعتبار أنّ ذلك العالم عالم علويّ مقابل عالمنا السفليّ ، فإنّ العمل الذي له حقيقة أقلّ سوف لن يتّجه إلى عالم القُرب ، بل يصوّب إلى عالم البُعد ويتدنّى هابطاً إلى العالم الأسفل وأسفل السافلين .

ويتّضح ـ بناءً على ما قيل ـ أنّ الآيات التي تدلّ على أنّ الكلام الطيّب يرتفع إلى الله تعالى ، وأنّ الله يرفع المؤمنين وأهل العلم ، أنّ مرجعها إلى أمر استقرار المركز في الأعلى . الأمر الذي ينجم منه أنّ من كانت حقيقته

١ـ الآية ١٧ ، من السورة ١٣ : الرعد .

أكثر ، فإنّ ميزانه يثقل ويتّجه نحو المركز إلى الأعلى . ومن خفّ ميزانه فإنّه يبتعد عن ذلك المركز والمبدأ .

وقد حان الوقت ـ بعد ان اتّضحت هذه المطالب ـ لنرى هيئة الموازين التي تُقاس بها أعمال الإنسان يوم القيامة ، لأنّ عالم الميزان هو أحد العوالم التي سنواجهها فيما بعد . وقد تطرّقت أبحاثنا في عالم القيامة إلى بحث قيام الإنسان في محضر الله تعالى ، وإلى عالم العَرْض ، وعالم الحشر ، وعالم النشور ، ثمّ إلى عالم صحف الأعمال وتطاير الكتب ، ثمّ إلى عالم الشهادة وعالم الصراط . أمّا الآن فقد بلغ بنا البحث إلى عالم الميزان ، وسنتحدّث فيما بعد مفصّلاً ـ وبالترتيب ـ عن عالم الحساب ، عالم الجزاء ، عالم الأعراف ، عالم الشفاعة ، عالم المياه الأربعة وماء الكوثر وكيفيّة فوران عين الكوثر ، ثمّ نتحدّث عن عالم الجنّة والنار .

ونحتاج في بياننا لعالم الميزان لذكر مقدّمتين تطرّقنا إليهما في عالم الصراط . الأُولى ، عن معنى الميزان ، وهل يشبه ميزان يوم القيامة الموازين ذات الكفّتين المستعملة في هذا العالم ، أم أنّه ميزان ذو هيئة وكيفيّة أُخرى تختلف عنها ؟ حيث ستّتضح ـ بذلك ـ العلّة في قوله تعالى في قرآنه الكريم : **فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ** و **مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ** ، وعدم قوله : **فَمَن ثَقُلَتْ حَسَنَاتُهُ** أو **مَن ثَقُلَتْ سَيِّئَاتُهُ** .

أمّا المقدّمة الأُولى ، فهي : أنّ الألفاظ الموضوعة في اللغة ذات معانٍ عامّة . وقد أشرنا في مباحث الصراط ـ مثلاً في هذا الأمر ـ عن مثال المصباح ، وتبيّن كيف أنّ الخصوصيّات الفرديّة لا دخل لها في معاني الأفراد . ومن المناسب أن نورد هنا عبارة المرحوم الفيض : الملّا محسن الكاشانيّ في «تفسيرالصافي» باعتبار أهمّيّتها البالغة .

قال : إنّ لكلّ معنى من المعاني حقيقة وروحاً ، وله صورة وقالب .

وقد تتعدّد الصور والقوالب لحقيقة واحدة. وإنّما وُضعت الألفاظ للحقائق والأرواح، ولوجودهما في القوالب تستعمل الألفاظ فيهما على الحقيقة لاتّحاد ما بينهما. مثلاً لفظ القلم إنّما وضع لآلة نقش الصور في الألواح من دون أن يعتبر فيها كونها من قصب أو حديد أو غير ذلك. بل ولا أن يكون جسماً ولا كون النقش محسوساً أو معقولاً، ولا كون اللوح من قرطاس أو خشب، بل مجرّد كونه منقوشاً عليه. وهذا حقيقة اللوح وحدّه وروحه فإن كان في الوجود شيء يستطر بواسطة نقش العلوم في ألواح القلوب، فأخلق به أن يكون هو القلم فإنّ الله تعالى قال: عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ؛[1] بل هو القلم الحقيقيّ حيث وجد فيه روح القلم وحقيقته وحدّه، من دون أن يكون معه ما هو خارج عنه. وكذلك الميزان مثلاً فإنّه موضوع لمعيار تُعرف به المقادير، وهذا معنى واحد هو حقيقته وروحه، وله قوالب مختلفة وصور شتّى بعضها جسمانيّ وبعضها روحانيّ، كما يُوزن به الأجرام والأثقال مثل ذي الكفّتين والقبّان وما يجري مجراهما، وما يوزن به المواقيت والارتفاعات كالإسطرلاب، وما يوزن به الدواير والقسي كالفرجار، وما يوزن به الأعمدة كالشاقول، وما يوزن به الخطوط كالمسطر، وما يوزن به الشِّعر كالعروض، وما يوزن به الفلسفة كالمنطق، وما يوزن به بعض المدركات كالحسّ والخيال، وما يوزن به العلوم والأعمال، كما يوضع ليوم القيامة، وما يوزن به الكلّ كالعقل الكامل، إلى غير ذلك من الموازين.[2]

١ـ الآيتان ٤ و ٥، من السورة ٩٦: العلق.

٢ـ «تفسير الصافي» المقدّمة الرابعة، من المقدّمات العشر التي أوردها المرحوم الفيض كمقدّمة لتفسيره، وتضمّ أنفس المطالب، ج ١، ص ١٩، بالقطع الوزيريّ.

وقال أيضاً: إنّ ميزان كلّ شيء هو المعيار الذي به يُعرف قدر ذلك الشيء، فميزان الناس يوم القيامة ما يوزن به قدر كلّ إنسان وقيمته على حسب عقيدته وخلقه وعمله، لتجزى كلّ نفس بما كسبت. وليس ذلك إلّا الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، إذ بهم وباتّباع شرائعهم واقتفاء آثارهم وترك ذلك، وبالقرب من سيرتهم والبعد عنها يعرف مقدار الناس وقدر حسناتهم وسيّئاتهم. فميزان كلّ أُمّة هو نبيّ تلك الأُمّة ووصيّ نبيّها والشريعة التي أتى بها، فمن ثقلت حسناته وكثرت فأُولئك هم المفلحون، ومن خفّت وقلّت فأُولئك الذين خسروا أنفسهم بظلمهم لها من جهة تكذيبهم للأنبياء والأوصياء أو عدم اتّباعهم.

روي في «الكافي» و «معاني الأخبار» عن الإمام الصادق عليه السلام:

إِنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: «وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ»؛ قَالَ: هُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالأَوْصِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وفي رواية أُخرى: **نَحْنُ المَوَازِينُ القِسْطُ.**[1]

وعلى أيّة حال فإنّ المطلب الأخير الذي ذكره المرحوم الفيض في تفسير سورة الأعراف، ذيل الآية: **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ**، هو بمثابة المقدّمة الثانية للمطلب الذي نحن في صدد بيانه، حيث اتّضحت من خلال ذلك النتيجة المتوخّاة، وتبيّن بناءً على المقدّمة الأُولى أنّ الألفاظ ـ من ضمنها لفظ الميزان ـ وُضعت لمعاني عامّة.

كما تبيّن ـ بناءً على المقدّمة الثانية ـ أنّ الله عزّ وجلّ يضع يوم القيامة ميزاناً لأعمال الإنسان ومقامه. وينتج من ضمّ هاتين المقدّمتين إلى بعضهما

١ـ «تفسير الصافي» ج ١، ص ٥٦٥، في تفسير الآية: **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ**، في سورة الأعراف.

أنّ ميزان الأعمال يوضع ليوزن فيه الناس والأنبياء والأوصياء ونهجهم وشريعتهم وسلوكهم إلى الله تعالى ، وأنّ عمل كلّ فرد من أفراد الأُمم السابقة واللاحقة سيوزن بهذا الميزان .

بيان تفصيليّ في معنى الميزان

أمّا الآن وقد اتّضحت بحمد الله هاتين المقدّمتين والنتيجة المترتّبة عليها إجمالاً ، فنشرع بتفصيل ذلك تبياناً لهذه الحقائق :

أمّا المقدّمة الأُولى ، فإنّ الميزان يعني آلة للقياس والوزن . وكان الميزان سابقاً ذا كفّتين معلّقتين بسلاسل طويلة وفي قمّته مؤشّر (لسان الميزان) . ثمّ شاع استعمال ميزان ذي كفّتين غير معلّقتين ، وله مؤشّر في الأسفل . ودُعي الميزان الثاني ميزاناً بنفس العناية الأُولى . ثمّ استعملت موازين عموديّة ذات كفّة واحدة (قبّان) ، وموازين كبيرة لوزن الأشياء الثقيلة وموازين ذات عتلات ونوابض ؛ فدُعيت بأجمعها موازين بنفس العناية .

ويُلاحظ أنّ لفظ **الميزان** لم يوضع لخصوص وزن الأشياء ، بل إنّه كذلك يعني آلة لقياس الأشياء والأُمور المختلفة . ومن البديهيّ أنّ آلة قياس شيء تختلف عن آلة قياس الأشياء الأُخرى . فجهاز قياس مقدار الكهربائيّة المستهلكة (عدد الكيلو واطات) يُدعى مقياساً للكهرباء ؛ أمّا جهاز قياس فولتيّة المحرّك الكهربائيّ فيدعى «فولتمتر» ، كما يدعى جهاز قياس شدّة جريان التيّار الكهربائيّ «امبير متر» ، ويُدعى جهاز قياس المقاومة الكهربائيّة ، «أُومتر» ، ويُدعى جهار قياس درجة حرارة البدن «ترمومتر» . وهي بأجمعها تدعى مقاييس على الرغم من اختلافها وتنوعها . كما تدعى كلّ آلة من آلات قياس ضغط الدم ، ونبض القلب ، واتّجاه الريح ،

وضغط الهواء ، والزلزلة ، وحرارة الجوّ ، ميزاناً وجهازاً للقياس مع أنّ تركيب كلّ منها ومهمّته مغاير تماماً لتركيب الآخر ومهمّته .

فجهاز القياس هو لفظ عامّ يُطلق على جميع هذه الأجهزة ، بَيدَ أنّ جهاز قياس كلّ شيء يتناسب مع ذلك الشيء . فمقياس الماء يختلف عن مقياس الحرارة ،كما أن مقياس نبض القلب يُغاير الميزان الذي يوزن به الحطب .

ويُلاحظ أنّ الموازين والمعايير الأخلاقيّة ،كالمحبّة والسخاء والشجاعة تدعى بدورها موازيناً ، إلّا أنّها ليست مادّيّة وليس لها هيكل معيّن .

فإن شئنا قياس محبّة شخص ما ،كأن نرى المحبّة التي يمتلكها زيد ـ مثلاً ـ فعلينا أن نمتلك ميزاناً ومعياراً لذلك . إذ إنّ مقدار المحبّة متفاوت لدى أفراد البشر . وينبغي حتماً أن يكون هناك شاخص معيّن نجعله بمثابة الميزان فنقيس به . فما هو ذلك الشاخص ؟ وما صفته وكيفيّته ؟

ولو أردنا قياس الخضوع والخشوع والعبوديّة والتقوى والصدق والغيرة والحميّة والإيثار والإنفاق والجهاد والشجاعة والصفات الحسنة الأُخرى ، وقياس فناء الوجود المجازيّ والبقاء بالحقّ تعالى ، وتجلّي الأسماء والصفات ، ودرجة الفناء ومرتبة البقاء ؛ فأيّ معيار وميزان ينبغي استخدامه لتحقيق هذا الغرض ؟ هل تختلف درجات هذه الأُمور أم لا ؟ وإذا اختلفت ، فما هو ميزان قياسها ؟

لقد علمنا أنّ مقياس كلّ شيء ينبغي أن يتناسب مع ذلك الشيء ، فإن ساقونا يوم القيامة وأرادوا قياس صفاتنا هذه ، فإنّ وزن بدننا لن يضيرنا شيئاً في ذلك العالم . لأنّ المرء لن يُسأل عن وزنه بالكيلو غرامات ، وكم نقص وزنه في شهر رمضان ؟ لأنّهم لا يتعاملون في ذلك العالم مع البدن

والوزن .

سيسألون المرء هناك : ما مقدار المحبّة التي لديك ؟ وما قدر خضوعك وخشوعك للحقّ تعالى ؟ وما درجة عبوديّتك له ؟ وكم كان إيثارك وعفوك ؟ وما درجة معرفتك بذات الحقّ تعالى ودرجة يقينك وإيمانك ؟ وكم هي درجة إخلاصك وخلوصك ؟

وعليهم أن يقيسوا هذه الأُمور فيشخّصوا على ضوئها مقام المرء ودرجته ، لأنّ درجات الجنّة ومقاماتها الثمانية تقابل المقادير المختلفة الموجودة من هذه الأُمور ، كما أنّ دركات النار وأبوابها السبعة تقابل ـ بدورها ـ درجات فقدان هذه الأُمور وانعدامها لدى المرء .

فبأيّ معيار ينبغي قياس هذه الأُمور من أجل تعيين أجر الإنسان أو عقابه ؟

أمّا المقدّمة الثانية ، فقد جاء في الآيات المباركة والروايات الواردة عن الأئمّة الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أنّ الله تعالى قد وضع ميزاناً لقياس أعمال الإنسان في الدنيا ، كما أنّ الأعمال ستوزن في الآخرة . بَيدَ أنَّهُ لم يُشاهد في آية أو روايةٍ ما أنّ الحسنات توضع في أحد كفّتي الميزان ، وأنّ السيّئات توضع في الكفّة الأُخرى . بل إنّ جميع الآيات والروايات متّفقة في الدلالة على أنّ الحسنات ذات وزن واعتبار ، وأنّ السيّئات بلا وزن ولا اعتبار ، وأنّ الحسنات هي التي تأخذ بِيَدِ الإنسان وتنجيه في ذلك العالم الربوبيّ ، وأنّ السيّئات ليس لها قابليّة للمقاومة والصمود هناك . فمن زادت حسناته ثقل ميزانه ، ومن قلّت حسناته خفّ ميزانه . يُضاف إلى ذلك أنّ السيّئات تسبّب خفّة الميزان .

ورد في كتاب «التوحيد» للشيخ الصدوق ، عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير الآية الشريفة :

فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ... أنّه قال (ضمن حديث طويل) :

فَإِنَّمَا يَعْنِي الحِسَابَ ؛ تُوزَنُ الحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ ؛ وَالحَسَنَاتُ ثِقْلُ المِيزَانِ وَالسَّيِّئَاتُ خِفَّةُ المِيزَانِ.[1]

أي أنّ الحسنات هي معيار جميع الأعمال التي عملها الإنسان في دنياه ، حسنةً كانت أم سيّئة . فالأعمال الحسنة والأعمال السيّئة للإنسان تُقاس بمعيار الحسنات .

إنّ شجاعة حَسَن ـ مثلاً ـ لها ميزان خاصّ في ذلك العالم ، وسخاءه له ميزان خاصّ ؛ ولكلّ من عبوديّته وعفّته ميزان خاصّ . كما أنّ جميع درجات شجاعة الإنسان ، حسنها وسيّئها ، تقاس بميزان الشجاعة . كما تقاس درجات عبوديّة الإنسان بما فيها من مراتب حسنة مقبولة ومراتب سيّئة مذمومة بمقياس العبوديّة . والأمر على هذا المنوال بالنسبة إلى جميع الصفات والأخلاق والملكات التي يقاس كلٌّ منها بمعيار وميزان خاصّ توزن به تلك الصفة المعيّنة .

أمّا الآن وبعد أن ذكرنا هاتين المقدّمتين بالتفصيل ، فنقول : إنّ المراد بميزان الأعمال في يوم القيامة هو المثل الكامل للحُسن والتقوى والصبر والإيثار والجهاد والورع والعبوديّة واليقين والتوحيد في كلّ أُمّة من الأُمم السالفة ، ويتجسّد ذلك المثل الكامل في نبيّ تلك الأُمّة ووصيّ نبيّها ، وفي الكتاب والشريعة اللذين أتى بهما إلى تلك الأُمّة . أمّا في هذه الأُمّة ـ أُمّة آخر الزمان ـ فيتجسّد في الوجود المقدّس للرسول الأكرم والصدّيقة الكبرى فخر نساء العالم سيّدة نساء العالمين والأوصياء الإثني عشر للنبيّ

١ـ «التوحيد» للصدوق ، ص ٢٦٨ .

الأكرم ، وأوّلهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ثمّ أولاده الأحد عشر الواحد تلو الآخر ، وآخرهم **قائم آل محمّد الحجّة بن الحسن العسكريّ** عجلّ الله تعالى فَرَجه الشريف ، الذين يُعدّ وجودهم وتوحيدهم وعبادتهم وجهادهم وإنفاقهم وصفاتهم النفسانيّة وعقائدهم وجميع ملكاتهم ، الميزان والمعيار لتشخيص مقدار الصفات الحسنة في أُمّة آخر الزمان .

جاء في «الاحتجاج» عن الإمام الصادق عليه السلام : **أَنَّـهُ سُئِلَ : أَوَ لَيْسَ تُوزَنُ الأَعْمَالُ ؟ قَالَ : لَا ؛ لِأَنَّ الأَعْمَالَ لَيْسَ أَجْسَاماً ، وَإنَّمَا هِيَ صِفَةُ مَا عَمِلُوا ، وَإنَّمَا يَحْتَاجُ إلَى وَزْنِ الشَّيْءِ مَنْ جَهِلَ عَدَدَ الأَشْيَاءِ وَلَا يَعْرِفُ ثِقْلَهَا وَخِفَّتَهَا وَإنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ .**

قِيلَ : فَمَا مَعْنَاهُ فِي كِتَابِهِ : «فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ» ؟ قَالَ: فَمَنْ رَجَحَ عَمَلُهُ .[1]

أي أنّ من رجح عمله واقترب من العدل ، ثقل ميزانه تبعاً لذلك ؛ ومن كان فعله مرجوماً وبعيداً عن العدل ، خفّ ميزانه تبعاً لذلك . والعدل هو ذلك الموجود الذي لوحظت جميع جهاته على نحو الكمال بلا إفراط ولا تفريط . فإن زادت الشجاعة فيه عن حدّها المطلوب المستوي صارت تهوّراً مذموماً ، وإن انحطّت عن ذلك الحدّ استحالت جُبناً مقيتاً . فالشخص الكامل ـ إذاً ـ شجاع بلا تهوّر ولا جُبن .

ونرى أنّ المتهوّر يرتكب أعماله دون تأمّل ودراية فيخطئ فيها ويندم في العاقبة عليها . أمّا الجبان فيقصّر تبعاً لضيق نفسه عن فعل ما هو صحيح في موقعه دفاعاً عن حريم غيرته وعزّته ، فيندم في العاقبة على

---

١ ـ «تفسير الصافي» ج ١ ، ص ٥٦٥ ، طبعة المكتبة الإسلاميّة ؛ و «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٤٨ ، الطبعة الحروفيّة .

تقصيره . أمّا الشجاع فيدافع بالقدر اللازم بما هو صحيح وفي الموقع المناسب ، فيكون فعله صائباً ، ولا يتعرّض للندم على فعله أبداً .

وستقاس الشجاعة يوم القيامة بميزان العدل ، أي بشاخص الشجاعة ؛ فيوضع شاخص للشجاعة يمثّل العدل المحض الخالي من الجبن والتهوّر ، فتقاس شجاعة الأفراد وفقاً لذلك الشاخص .

والأمر على هذه الشاكلة بالنسبة إلى العفّة والحياء . فهما إن تخطّيا الحدّ استحالا خموداً غير مقبول ، وإن قصرا عن الحدّ ولم يبلغاه كانا شرهاً غير مقبول . حيث تمثّل ملكة العفّة الحدّ المعتدل بين صفتي الإفراط وهي الخمود ، والتفريط وهي الشره . وذلك الحدّ الوسط هو العدل في هذه الصفة .

والأمر كذلك بالنسبة إلى الفهم والذكاء اللذين لو زادا عن حدّهما كانا دهاءً مذموماً ، لأنّ صاحب الدهاء له من حدّة الذهن والذكاء ما يجعله ـ علاوة على سرعة فهمه للأُمور ـ يُضيف إليها شيئاً من ذهنه ومن عند نفسه ، فيفهم من النتيجة أُموراً معيّنة ، ويدرك ويعتقد بأُمور غير موجودة في الخارج يختلقها ذهنه ، فيتعامل معها على أنّ لها وجوداً خارجيّاً . وهو فهم خاطئ بطبيعة الحال .

أمّا الأبله ذو الذهن الضعيف ، البطيء في استيعاب الأُمور وإدراكها ، فيدرك الأُمور أقلّ من حقيقتها ، وهو فهم خاطئ بدوره .

على أنّ الحدّ المعتدل بين الدهاء والبلاهة يمثّل الحكمة التي تمتاز بصفة العدالة ، أي أنّها تجسّد الفهم الصحيح الكامل ، لا التقصير في فهم الحقيقة ولا الإضافة عليها ، ثمّ الاعتقاد بأنّ تلك الإضافة منها .

وسيؤتى بميزان العدل فتُقاس به ملكة السخاء والإنفاق ، وملكة الإيثار والتضحية ، والعفووالتسامح ، وكلّ واحدة من الصفات النفسانيّة

الأُخرى .

فإن هم أرادوا قياس شجاعة الشجعان بذلك الميزان ، توجّب عليهم أن يضعوا في إحدى كفّتيه معيار العدالة المذكور ، وفي الكفّة الأُخرى شجاعة أحد الأفراد ؛ فإن تساوتا في الوزن ، اتّضح أنّ الشجاعة المقاسة قد بلغت حدّها الأعلى ؛ أمّا لو خفّت تبيّن أنّها لم تبلغ الذروة بعد . فإن كانت خفيفة جدّاً ،كانت بعيدة عن حدّ العدل (أي الشجاعة) وانتمت إلى التهوّر أو الجبن .

وباعتبار أنّ الشجاعة المقبولة للأفراد يوم القيامة ينبغي أن تتحلّى ـ إضافة إلى جانب الاعتدال ـ بقصد القُربة ، وأن تبتعد عن الهوى والهوس والرغبات النفسانيّة والبواعث الشيطانيّة ، لذا ينبغي ـ بالنسبة إلى هذه الأُمّة مثلاً ـ أن توضع في إحدى كفّتي ميزان العمل شجاعة رسول الله أو أمير المؤمنين ودفاعهما عن حقوقهما وعن حقوق المسلمين ، وتوضع في الكفّة الأُخرى شجاعة من يراد قياس شجاعته . فتتّضح بذلك حدود تلك الشجاعة ومشخّصاتها تبعاً لاختلافها أو اقترابها من معيار الشجاعة وشاخصها . لذا قال الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية إنّ : **المِيزَانُ هُوَ العَدْلُ**.

وجاء في الآية القرآنيّة أنّ الميزان هو الحقّ ، وذلك قوله تعالى : **وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ**.

وميزان العدل ـ كما سنذكر ـ هو نفسه ميزان الحقّ . إذ الحقّ والعدل متّحدان في المصداق ، إلّا أنّ مفهومهما متفاوت بلحاظ الاعتبار .

وستُقاس صلوات كلّ أُمّة من الأُمم إلى صلاة الحقّ والعدل . أي أنّ العدل سيوضع في كفّة ، وتوضع الصلاة المراد قياسها في الكفّة الأُخرى . وكلّما اقتربت هذه الصلوات إلى تلك الصلاة بلحاظ طهارة السرّ وحضور

القلب وقوّة الخِطاب وشدّة الفناء ونـزاهـة النـيّة وسـائر الآداب والجـوانب الظاهريّة والباطنيّة ، اقترب مؤشّر ميزان الصلاة مـن تـلك الصـلاة الواقـعيّة الحقيقيّة ، وبالعكس فكلّما ابتعدت عن تلك الأُمور ، ابتعد في المقابل مؤشّر ميزان الصلاة وأشار إلى زيادة الفاصلة بين الصلاتينِ .

وإذا ما شئنا أن نفهم ميزان العدل الإلهيّ جيّداً وندرك كيفيّة قـياسه ، فعلينا تشبيهه بالحاسبات الإلكترونيّة في عالمنا المعاصر . منتهى الأمـر أنّ هذه الأجهزة أجهزة مادّيّة ، بينما ذلك الميزان معنويّ روحانيّ .

وكما تشخّص الحاسبات الإلكترونيّة الشبيهة بالرادار الحدّ والقـياس المطلوب على الفور ، فإنّ أجـهزة مـيزان الصـلاة ومـيزان الصيام ومـيزان الزكاة وميزان الجهاد وميزان الولاية وميزان معرفة الله تعالى وغـيرها مـن الأُمور الحسنة تشخّص على الفور ميزان خلوص النيّة ونـزاهـتها فـي هـذه الأعمال .

وكلّما وضعت هذه الأعمال في إحدى الكـفّتين ووضـع عـدل تـلك الصفة أو الفعل في الكفّة الأُخرى فاقترب مؤشّر الميزان من الوسط ، كـلّما اقترب ذلك العمل من الصحّة والمطلوبيّة . وكلّما ابتعد مؤشّر المـيزان عـن الوسط ، كان ذلك العمل مُداناً ومذموماً .

ولو فرضنا ـ مـثلاً ـ أن صـفحة المـيزان التـي يـتحرّك عـليها مـؤشّر الميزان مدرّجة إلى ألف درجة ، فإنّ المؤشّر سيتحرّك عند وضع صـلاةٍ مـا في كفّة الميزان فيشير إلى درجة ما ضمن هذه التدريجات . فإن قيست كلّ صلاة على حدة ، ثمّ فوضل بين تلك الصلوات فشُخّص مقام المصلّي تـبعاً لقياس عدل صلاة المصلّي ، لكان ذلك أمراً شيّقاً ، ولأثارت هذه الأجـهزة المعنويّة العجب ، وكانت جديرة بالتأمّل والتفكّر والمشاهدة .

وحين يثقل ميزان عمل المـقرّبين والمـخلَصين والأبـرار والأخـيار

والصالحين ، فيقترب من درجة العدل الحقيقيّ أو يعادلها وزناً ، فعند ذلك ينبغي أن يُنادى بنداء : **وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ**.

والأمر على هذا المنوال في باب الإنفاق ، إذ يؤتى بالإنفاق الذي فعله الإنسان في الدنيا بنوايا ومقاصد مختلفة ، فأنفق على قومه وجيرانه ـ وقد يكون بطبيعة الحال قد أنفق ما أنفق في سبيل الله تعالى ، إلّا أنّه قد ينفق لهدف آخر ـ وسيؤتى يوم القيامة بإنفاقه بجميع مواصفاته ، سواء قلّ أم كثر ، سرّاً كان أم علانية ، فيوضع ذلك الإنفاق في كفّة ويوضع في الكفّة الأُخرى روح الإنفاق وحقيقته الخالصة والمحضة في سبيل الله تعالى دونما شائبة من انتظار جزاء دنيويّ أو أُخرويّ ،كإنفاق أمير المؤمنين عليه السلام في كلّ حال مع عدم امتلاكه مالاً آخر ، ومع عدم ادّخاره شيئاً لنفسه وأهل بيته .

فقد كان له عليه السلام أربعة دراهم ، فأنفقها بأجمعها في سبيل الله تعالى سرّاً وعلانية وفي الليل والنهار ، فنزلت في حقّه الآية الشريفة : **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**.[1]

وقد روى في «مجمع البيان» و«الجوامع» عن ابن عبّاس في تفسير هذه الآية أنّها نزلت في أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ،كان له أربعة دراهم ، فأنفق درهماً ليلاً ودرهماً نهاراً ، وأنفق درهماً سرّاً ودرهماً علانيةً .كما وردت هذه الرواية عن الصادقين عليهما السلام ، ورواها كذلك العيّاشيّ عن أبي إسحاق .[2]

١ـ الآية ٢٧٤ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ «تفسير الصافي» ج ١ ، ص ٢٢٩ .

ولأنّ عليّاً عليه السلام كان أميراً للمؤمنين ، فقد كان إنفاقه أمير الإنفاق وسيوضع يوم القيامة إنفاقه الخالص المحض لوجه الله الكريم في كفّة عدل الإنفاق وحقّ الإنفاق ، ثمّ يوضع إنفاق الآخرين في الكفّة الأُخرى فيُقاس إلى ذلك المثل والأُنموذج والأُسوة الحسنة . فمن كان إنفاقه أفضل وأنزه وأشدّ خلوصاً ، اقترب مؤشّر ميزان إنفاقه من إنفاق الإمام ، ومن ساء إنفاقه وشابته الشوائب ، ابتعد مؤشّر ميزان إنفاقه عن إنفاقه عليه السلام .

وقد يقول قائل : لقد عشتُ في آخر الزمان ، وكنت أعزباً ، وكانت البيئة والعصر فاسِدَيْنِ فتلوّثت بالذنب والخطيئة . فيؤتى على الفور بميزان العفّة ويُقال له : لقد كان النبيّ يوسف شابّاً وسيماً ، وكانت الظروف لابتلائه بالذنب أكثر مساعدةً ومواتاة ، حيث واجه امرأة عزيز مصر التي ينبغي أن تكون من أجمل نساء عصرها ، وذلك في مصر التي يشتهر أهلها بالملاحة ، وفي حجرة مغلقة الأبواب ، وتعرّض للضغط والأمر بارتكاب الذنب ، وهُدِّد ـ إن لم يُساير المرأة ـ أن يُتّهم ويُلقى في السجن بتلك التهمة سنين طوالاً . فانظر كيف أوكل نفسه إلى ربّه وأعرض عن الذنب !

ثمّ يقيسون عفّته فيشير مؤشّر ميزان العفّة إلى درجة عفّته . نعوذ بالله من شرور النفس الأمّارة بالسوء إلّا ما رحم الله .

وهكذا الأمر حين تواجه المرء ضائقة ماليّة يتعسّر عليه معها إعاشة عائلته عن طريق كسب المال الحلال ، فيمدّ يده إلى المال الحرام ، ويسعى لاكتساب المال المشتبه . حيث يؤتى على الفور بميزان الحلال ويُقال له : أضائقتك أعسر أم ضائقة فلان وفلان ؟ ويُقال لزوجته : أمشكلاتكِ في الالتزام بالدين أشدّ وأكثر أم مشكلات آسية امرأة فرعون ؟

وحين تشكو النساء من المشاكل الاقتصاديّة ومسائل الحمل والرضاع وتربية الأطفال ، فيؤتى على الفور بمثال النساء وأُنموذجهنّ :

فاطمة الزهراء بنت نبيّ آخر الزمان ، ويقال لهنّ : لقد تزوّجتْ في التاسعة من عمرها وتوفيّت ودفنت في الثامنة عشر ، وأنجبت خلال ذلك خمسة أولاد ، وكانت مثالاً للعلم والتقوى والولاية والصبر والاحتمال واليقين والمعرفة والتوحيد أنجبت الحسن والحسين ومحسناً وزينب وأم كلثوم وليس معلوماً ـ لو قدّرت الحياة لجنينها السقط محسن ـ أن يكون أقلّ شأناً من إخوته وأخواته .

ولقد كانت فاطمة الزهراء تحيك الصوف ، وتحصد الحنطة بيديها ، وتخبز الخبز وتهزّ المهد . وكانت تُطعم صغارها خبز الشعير بينما تتصدّق بعائداتها من فدك على الفقراء . وكانت تقوم للصلاة والعبادة حتّى تتورم قدميها ، وقد ثابرت على محبّة زوجها عليّ بن أبي طالب وحامت عن دين الله ودافعت عن الوصاية والولاية إلى أن استُشهدت في سبيل ذلك .

جاء في كتابي «الكافي» و «معاني الأخبار» عن الصادق عليه السلام : **أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ : «وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ» ؛ قَالَ : هُمُ الأَنبِيَاءُ وَالأَوصِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.**[1]

وفي رواية أُخرى : **نَحْنُ المَوَازِينُ القِسْطُ.**

وقال المرحوم الفيض بعد نقله هاتين الروايتين والرواية السابقة التي نقلها عن «الاحتجاج» : وقد حققنا معنى الميزان وكيفيّة وزن الأعمال ووقفنا بين الأخبار المتعارضة في ذلك والأقوال بما لا مزيد عليه في كتابنا الموسوم بـ «ميزان القيامة» وهو كتاب جيّد لم يُسبق بمثله فيما أظنّ ، يوفّق لمطالعته وفهمه مَن كان مِن أهله إن شاء الله .[2]

١ـ «تفسير الصافي» ج ١ ، ص ٥٦٥ ؛ و «معاني الأخبار» ص ٣١ .

٢ـ «تفسير الصافي» ج ١ ، ص ٥٦٥ .

ويتّضح بضمّ ما ذكرناه إلى المطالب السابقة أنّ هناك طائفتين من الناس ليس لهما ميزان .

الطائفة الأُولى : الأفراد الذين بلغوا في الإساءة والقبح حدّاً حبطت معه أعمالهم وخلت من أيّة حسنة ـ ولو في الجملة ـ لتُقاس في الميزان .

أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا.[1]

الطائفة الثانية : الذين تخطّوا الإخلاص ومجاهدة النفس الأمّارة ، فبلغوا درجة الخلوص والطهارة المطلقة ، وصاروا من الفانين في ذات الله تعالى ، وأضحوا ـ وفقاً للآية القرآنيّة ـ من المقرّبين والمخلَصين .

فلقد بلغ هؤلاء مرحلة في عالم التوحيد أسقطوا فيها جميع أقسام الغيريّة ، وأحرقوا واستأصلوا من كيانهم وصقع أنفسهم بنيان الكثرة القائم على الأوهام والأفكار الباطلة المتخيّلة ، وبلغوا مقام مشاهدة الوحدة في الكثرة ، والكثرة في الوحدة ، وأضحوا فانين في أحديّة الذات المقدّسة في نفس الوقت الذي فنوا في وحدانيّته عزّ وجلّ . فلم يبقَ لهم عند ذاك بقايا من وجود وعمل وصفة لتوزن في الميزان . إذ أوكلوا كلّ ذلك إلى ربّهم وعدوّه مِلْكاً مطلقاً له تعالى . ولم يبق لهم من شيء ينسبونه إلى أنفسهم ، ليكون ـ من ثمّ ـ قابلاً لأن يُوزن .

فَأُولَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ.[2]

هناك حقيقة : **يَا لَيْتَنَا كُنَّا مَعَكَ فَنَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً** ؛ أي المعيّة الصرفة لأولياء الله والمعصومين الذين تمثّل نفوسهم ووجودهم وسيرتهم عين

١ـ الآية ١٠٥ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٢ـ الآية ٤٠ ، من السورة ٤٠ : غافر .

ميزان القسط والعدل والحقّ . فمن فني وأزاح عن نفسه كلّ شائبة وجودية نفسانيّة ، واتّخذ لنفسه **صِبْغَةَ اللَّهِ الَّتِي لَا صِبْغَةَ مَعَهَا** ، فتحقّق مقام الإثنينيّة ووجدت المعيّة . وإذ يُفني الحبُّ الشديد المحبَّ في المحبوب ، فلن يقام للفانين في الولاية ثمّة ميزان .

عَلِيٌّ حُبُّهُ جُنَّة قَسِيمُ النَّارِ وَالجَنَّة

وَصِيُّ المُصْطَفَى حَقّاً إمَامُ الإنْسِ وَالجِنَّة[1]

١ـ هذان البيتان لعامر بن تغلبة حسب نقل العالم الجليل والعلّامة الكبير الشيخ حسين بن عبد الوهاب ، من علماء القرن الخامس في كتاب «عيون المعجزات» ص ٣١ .



المجلس الخامس والخمسون

الأنبياء والأئمة هم ميزان الأعمال



بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ.[1]

لا يعترض الشكّ في أنّ الله تعالى قد خلق كلّ شيء وفق معيار وميزان خاصّين ، وأنّه قد أرسل الأنبياء بالميزان وأنّ على البشر ـ من ثمّ ـ أن يسيروا على سنّة التشريع وفق هدى نظام الميزان .

وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ.[2]

ٱللَهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ.[3]

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ

١ـ الآيات ٦ إلى ١١ ، من السورة ١٠١ : القارعة .

٢ـ الآيات ٧ إلى ٩ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

٣ـ الآية ١٧ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ.[١]

يستفاد من هذه الآيات أنّ عالم التكوين قد أُرسي على أساس حسابات متقنة ، ووفق معايير وموازين دقيقة ، وأنّ إرسال الرسل وإنزال الكتب السماويّة قد تحقّق ـ بدوره ـ على أساس من الميزان ، وأنّ عالم البشريّة لم يُترك سدىً ، بل يمتلك ميزاناً . كما يستفاد منها بأنّ عالَم التشريع ليس خالياً من الحساب ، وأنّ على جميع أفراد البشر أن يجعلوا موازينهم وفق محور الحقّ ونظام القسط . فمن ثقلت موازينه منهم ، عاش في الدنيا مطمئناً وفي الآخرة مكرّماً ، ومن خفّت موازينه عاش في الدنيا منكوباً وفي الآخرة ذليلاً يلاحقه العار إلى قعر جهنّم .

وقد أوردنا في البحث السابق مطالب عامّة عن معنى الميزان ، ثمّ بحثنا في خصوص معناه في القيامة بالنسبة إلى أفعال الإنسان . وقد اتّضح بحمد الله ومنّه أنّ المراد بالميزان بالنسبة إلى أيّ أُمّة : نبيّ تلك الأُمّة ووصيّ ذلك النبيّ والكتاب الذي ينبغي على تلك الأُمّة العمل به ؛ وبالنسبة إلى أُمّة آخر الزمان فالميزان هو الوجود المقدس لرسول الله وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما وآلهما والقرآن الكريم الذي : إِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ‌* لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.[٢]

وقد نشب بين المفسّرين والمتكلّمين اختلاف في كيفيّة نصب الميزان يوم القيامة ، حيث يذكر المرحوم الشيخ الطبرسيّ أقوالاً في تفسير «مجمع البيان» ذيل الآية الشريفة : وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ: ذُكر فيه أقوال ،

١ـ الآية ٢٥ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

٢ـ الآيتان ٤١ ، و ٤٢ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

أحدها إنّ الوزن عبارة عن العدل في الآخرة ، وإنّه لا ظلم فيها على أحد . وثانيها : إنّ الله ينصب ميزاناً له لسان وكفّتان يوم القيامة ، فتوزن به أعمال العباد الحسنات والسيّئات ؛ عن ابن عباس والحسن (البصريّ) ، وبه قال الجبائيّ . ثمّ اختلفوا في كيفيّة الوزن ، لأنّ الأعمال أعراض لا يجوز عليها الإعادة ولا يكون لها وزن ولا تقوم بأنفسها ،فقيل توزن صحائف الأعمال ، عن عبد الله بن عمر وجماعة . وقيل : يظهر علامات للحسنات وعلامات للسيّئات في الكفّتينِ فيراها الناس ، عن الجبائيّ . وقيل : يظهر للحسنات صورة حسنة وللسيّئات صورة سيّئة ، عن ابن عبّاس . وقيل : توزن نفس المؤمن والكافر ، عن عُبيد بن عُمير ، قال : يؤتى بالرجل العظيم الجثّة فلا يزن جناح بعوضة . وثالثها : إنّ المراد بالوزن ظهور مقدار المؤمن في العِظَم ومقدار الكافر في الذلّة ،كما قال سُبحانه : **فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا**.[1]

وقد نقل المجلسيّ رضوان الله عليه في كتابه «البحار» هذه المطالب عن «مجمع البيان» ، ثمّ أورد بيان الفخر الرازيّ ، ونقل الروايات الواردة في المقام ، ثمّ عقّب على ذلك بقوله :

قال الشيخ المفيد رحمه الله ، الحساب هو المقابلة بين الأعمال والجزاء عليها ، والمواقفة للعبد على ما فرط منه ، والتوبيخ على سيّئاته ، والحمد على حسناته ، ومعاملته في ذلك باستحقاقه ؛ وليس هو كما ذهبت

١ـ الآية ١٠٥ ، من السورة ١٨ : الكهف .

«بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٤٣ و ٢٤٤ ؛ و«مجمع البيان» ج ٢ ، ص ٣٩٩ ، طبعة صيدا . ثمّ قال : وأحسن الأقوال القول الأوّل وبعده الثاني ، وإنّما قلنا ذلك لأنّه اشتهر عندالعرب قولهم كلام فلان موزون وأفعاله موزونة ، يريدون بذلك أنّها واقعة بحسب الحاجة لا تكون ناقصة عنها ولا زائدة عليها زيادة مضرّة أو داخلة في باب العبث .

العامّة إليه من مقابلة الحسنات بالسيّئات والموازنة بينهما على حسب استحقاق الثواب والعقاب عليهما، إذكان التحابط بين الأعمال غير صحيح، ومذهب المعتزلة فيه باطل غير ثابت. وما يعتمد الحشويّة في معناه غير معقول، والموازين هي التعديل بين الأعمال والجزاء عليها، ووضع كلّ جزاء في موضعه، وإيصال كلّ ذي حقٍّ إلى حقّه؛ فليس الأمر في معنى ذلك على ما ذهب إليه أهل الحشو من أنّ في القيامة موازين كموازين الدنيا لكلّ ميزان كفّتان توضع الأعمال فيها، إذ الأعمال أعراض، والأعراض لا يصحّ وزنها، وإنّما توصف بالثقل والخفّة على وجه المجاز، والمراد بذلك أنّ ما ثقل منها هو ما كثر واستحقّ عليه عظيم الثواب، وما خفّ منها ما قلّ قدره ولم يستحقّ عليه جزيل الثواب. والخبر الوارد أنّ أمير المؤمنين والأئمّة من ذرّيّته عليهم السلام هم الموازين فالمراد أنّهم المعدّلون بين الأعمال فيما يستحقّ عليها، والحاكمون فيها بالواجب والعدل. ويُقال: فلان عندي في ميزان فلان، ويُراد به نظيره. ويُقال: كلام فلان عندي أوزن من كلام فلان، والمراد به أنّ كلامه أعظم وأفضل قدراً. والذي ذكره الله تعالى في الحساب والخوف منه إنّما هو المواقفة على الأعمال، لأنّ من وقف على أعماله لم يتخلّص من تبعاتها، ومن عفى الله تعالى عنه في ذلك فاز بالنجاة. ومن ثقلت موازينه بكثرة استحقاقه الثواب فأُولئك هم المفلحون، ومن خفّت موازينه بقلّة أعمال الطاعات، فأُولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنّم خالدون. والقرآن إنّما أنزل بلغة العرب وحقيقة كلامها ومجازه، ولم ينزل على ألفاظ العامّة وما سبق إلى قلوبها من الأباطيل ـ انتهى كلام المفيد قدّس سرّه.

ثمّ يقول المجلسيّ: قد سبق الكلام منّا في الإحباط، وأمّا إنكار الميزان بهذه الوجوه فليس بمرضيّ لما عرفتَ من وجوه التوجيه فيه.

نعم ، قد سبق بعض الأخبار الدالّة على أن ليس المراد الميزان الحقيقيّ ، فبتلك العلّة يمكن القول بذلك . وإن أمكن تأويل بعض الأخبار بأنّ الأنبياء والأوصياء عليهم السلام هم الحاضرون عند الميزان الحاكمون عليها ، لكنّ بعض الأخبار لا يمكن تأويلها إلّا بتكلّف تامّ . فنحن نؤمن بالميزان ونردّ علمه إلى حملة القرآن ولا نتكلّف علم ما لم يوضَّح لنا بصريح البيان ، والله الموفّق وعليه التكلان .[1]

يقول الحقير : لا يمكن إنكار الميزان ، **ونحن نؤمن به** ونقرّه ، وإذا ضممنا ما ذكرنا سابقاً من أنّ الألفاظ موضوعة للمعاني العامّة الكلّيّة إلى الروايات الواردة في أنّ الأنبياء والأوصياء هم الميزان ، وأنّ نهجهم وسيرتهم هما الميزان ، لاستخلصنا أنّ ذلك الميزان متناسب مع وزن الأعمال والعقائد والملَكات ، وأنّه ينبغي أن يوضع في إحدى كفّتيه المعيار الصحيح والأساس الثابت ، بينما توضع أعمالنا في كفّته الأُخرى . وبطبيعة الحال ، ينبغي أن تتناسب كفّتي الميزان وطريقة الوزن مع تلك الأعمال ليمكننا القول ـ من ثمّ ـ بأنّ الميزان قد استعمل في معناه الحقيقيّ لا المجازيّ . لكنّ هذا الالتزام لا يستدعي منّا القول بأنّ الحسنات توضع في إحدى كفّتي الميزان بينما توضع السيّئات في الكفّة الأُخرى . كما لا يلزمنا اعتبار أنّ الأنبياء والأوصياء يحضرون عند الميزان ، لأنّهم هم الميزان . إلّا أنّهم ميزان يتناسب مع ذلك العالم ويتناسب مع وزن الأعمال وتقديرها .

يُضاف إلى ذلك أنّنا لا نعتبر أنّ الميزان هو نفس المقابلة والموازنة بين الأعمال وجزائها ، إذ إنّنا لا نستعمل الميزان مجازاً في مجرّد معنى

ا ـ «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٥٢ و ٢٥٣ ، الطبعة الحروفيّة .

العظمة والأهمّيّة ، بل نقول بالميزان الذي يُنصب في القيامة ويمثّل أحد مواقفها . إلّا أنّه ـ كما سبق أن ذكرنا ـ ليس شبيهاً بهذه الموازين الدنيويّة التي تُقاس بها الأشياء ذات الوزن ، فتكون النتيجة أنّ كلامَي «المفيد» و«المجلسيّ» رحمة الله عليهما سيحتفظان بأهمّيّتهما وأصالتهما كلّاً بدوره ، كما أنّهما لن يكونا خاليينِ من النقص كلّاً بدوره ، والحمد لله أوّلاً وآخراً .

إنّ ميزان العدل سيُقام يوم القيامة ، حيث تقول الآية الكريمة : **وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ**.[1]

كما يقول القرآن من جهة أُخرى : **وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ**.[2]

الأمر الذي يشير إلى أنّ ميزان الحقّ هو بذاته ميزان العدل . وقد جاء في بعض الروايات أنّ المراد بالميزان يوم القيامة هو ميزان العدل . وبطبيعة الحال فإنّ هناك اختلافاً بين معنى العدل ومعنى الحقّ ، إذ يعني العدل الشيء الذي يجعله الإنسان مقابل شيء آخر فيساويه من جميع الجهات دونما زيادة ولا نقصان ودونما إفراط ولا تفريط ؛ أمّا الحقّ فيمثّل عين التحقّق والواقعيّة . وربّما كان الحقّ أدقّ وألطف من العدل في مفهومه ، لأنّ الحقّ هو عين التحقّق ، أمّا العدل فيتلوه في الدرجة ، إذ ينبغي على الإنسان أن يقارن مع الحقّ شيئاً آخر فينظر أيّهما يرجح بصاحبه ، ليصدق من ثَمَّ معنى العدل . **إنَّ القُرآنَ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضاً**.[3]

١ـ الآية ٤٧ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٢ـ الآية ٨ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٣ـ نقل في «الدرّ المنثور» ج ٢ ، ص ٨ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه ⇐

إنّ الميزان الذي يقام يوم القيامة هو الحقّ وهو العدل ، فالوزن هنالك الحقّ . أي أنّ الحقّ هو الذي يمتلك وزناً وثقلاً ، أمّا الباطل فلا وزن له ولا ثقل . وقد ورد مفهوم الثقل والخفّة في بعض الآيات ، مثل : فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ.

والمراد بهما ثقل الميزان وخفّته . فالمؤمنون ميزانهم ثقيل راجح ، أمّا الكافرون فميزانهم خفيف طفيف . وكلّما زادت السيّئات وتراكمت خفّ بسببها الميزان . وفي المقابل كلّما زادت الحسنات ثقل الميزان ورجح ، لأنّ الميزان هو الحقّ لا سواه ، ولأنّه يُقاس بالحقّ . فكلّما زاد فيه ما له عنوان الحقّ والتحقّق ثقل الميزان ، وكلما قلّ ذلك فيه خفّ .

ومن الجليّ أنّ الحسنات لها عنوان الحقّ ، وأنّ السيّئات هي الباطل ، والباطل جفاء وهباء ، لا قيمة له ولا وزن .

وخلافاً لعالم المادّة والطبع الذي يزداد فيه الشيء الثقيل الكثيف انجذاباً إلى الأرض وجاذبيّتها ، فإنّ موجودات عالم التجرّد والمعنى تزداد ارتفاعاً كلّما زادت أصالة ووزناً . وقد جاء في شأن النبيّ إدريس على نبيّنا وآله وعليه السلام : وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا.[1]

وجاء في شأن إبراهيم عليه السلام : وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ.[2]

كما جاء في شأن أهل البيت عليهم السلام : فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن

⇐ قال : «إنّ القرآن لم ينزل ليكذّب بعضُه بعضاً ، ولكن نزل ليصدّق بعضه بعضاً .» كما ورد في «نهج البلاغة» الخطبة ١٣١ ، وفي طبعة مصر ، مطبعة عيسى البابي الحلبيّ ، تعليق الشيخ محمّد عبده : ج ١ ، ص ٢٥٢ : «ينطقُ بعضُه ببعضٍ ، ويشهدُ بعضُه على بعضٍ» .

١ـ الآية ٥٧ ، من السورة ١٩ : مريم .

٢ـ الآية ٨٣ ، من السورة ٦ : الأنعام .

تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ.[١]

أمّا بشأن بَلْعَم بن بَاعُورَاء فنظراً لتوجّهه إلى الدنيا فلم يرفعه الله ، بل خلّده على الأرض وجعل إقامته فيها سرمديّة :

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.[٢]

وبما أنّ قيمة الأعمال تقاس يوم القيامة بحسب ميزان قربها من الحقّ تعالى : ولأنّ العمل الأكثر تقرّباً أكثر وزناً وقيمة ، وأنّ العمل الأبعد أخفّ وزناً وقيمة ، ولأنّ الحسنات والسيّئات إنّما تكتسب عنوان الحسنات وعنوان السيّئات وفقاً لهذا الأساس والمعيار ، فسيكون مناط الثقل والوزن بمدى تجسيد الحقّ والواقعيّة . فكلّما انطوى العمل على قدر أكبر من ذلك ، كان أكثر أصالة وأرجح مقبوليّة . أمّا العمل الذي لا ينطوي على شيء ذي بال منها ، فسيكون بلا قيمة وبلا قدر .

إنّ ذلك العالم هو عالم الحياة والقدرة والعلم ، وعالم النور والتجرّد الذي لا سبيل للظُلمة إليه . ومن هنا فإنّ الأفراد الذين يُبتلون بالسيّئات فتستحيل نفوسهم نفوساً شيطانيّة ، سيعجزون عن بلوغ ذلك العالم وسيضيعون ويفنون في مراكز البُعد ومظاهر الجهل والشقاء (أي في جهنّم) ؛ وسيكون ميزانهم خفيفاً ، وقد لا يكون لهم ميزان أساساً ولا عمل يرفعهم إلى الأعلى .

وقد تحدّثت آيات القرآن كثيراً عن أمر **الضلال والإضلال** ، مشيرةً

١ـ الآية ٣٦ ، من السورة ٢٤ : النور .

٢ـ الآية ١٧٦ ، من السورة ٧ : الأعراف .

إلى أنّ أُولئكم الأفراد سيضلّون ويضيعون قبل بلوغهم مقام الحقيقة وعالم النور والواقعيّة ، وسيعجزون عن المقاومة في عالم النور ، وعن تحمّل تلك الأنوار القاهرة والجذبات السبحانيّة .

وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ.[1]

وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا.[2]

ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ.[3]

لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ.[4]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ.[5]

ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا.[6]

ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ.[7]

إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا.[8]

وعلى أيّة حال فإنّ هذه الآيات وكثير غيرها ممّا ورد في القرآن الكريم تدلّ بأجمعها على أنّ المشركين والكافرين والطاغين والمتمرّدين وأتباعهم يفتقدون الأصالة والوزن ، وأنّهم سيحترقون ويفنون ويضيعون

١ـ الآية ١٠٨ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ١٣٦ ، من السورة ٤ : النساء .

٣ـ الآية ٢٤ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٤ـ الآية ٩٤ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٥ـ الآية ١٢٥ ، من السورة ١٦ : النحل .

٦ـ الآية ٤٨ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٧ـ الآية ١٧ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٨ـ الآية ٦٧ ، من السورة ٣٣ : الأحزاب .

قبل الوصول إلى مقام عزّ الأنوار الربوبيّة .

وبصفة أنّ السيّئات عديمة الوزن والثقل وأنّ المشركين والكافرين لا وزن لهم ؛ ولأنّ أعمال المشركين والكفار ستُقاس في الميزان على أساس ما تمتلك من أصالة وحقيقة ، فإنّها ستكون خفيفة . أمّا الحسنات فهي ثقيلة لأنّها ذات أصالة . وهناك لكلّ عمل ميزان خاصّ ، لذا وردت الموازين في الآية الشريفة بصيغة الجمع .كما جاء في الرواية : **الصَّلَاةُ مِيزَانٌ ، مَن وَفَى اسْتَوْفَى.**[1]

الصلاة ميزان للتكامل والرقيّ وبلوغ درجات القرب وكمال الإنسانيّة فمن رعاها حقّ رعايتها وحافظ عليها ، استوفى حقّه بكماله وتمامه ونال قصده في درجات القرب . لذا ورد في الرواية الصحيحة عن الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : **مَا بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَبَيْنَ أَنْ يَكْفُرَ إلَّا أَن يَتْرُكَ الصَّلَاةَ الفَرِيضَةَ مُتَعَمِّدَاً أَوْ يَتَهَاوَنَ بِهَا فَلَا يُصَلِّيهَا.**[2]

وروى الصدوق في كتابه «فضائل الشيعة» بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام ، عن آبائه عليهم السلام ؛ **قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: حُبِّي وَحُبُّ أَهْلِ بَيْتِي نَافِعٌ فِي سَبْعَةِ مَوَاطِنِ أَهْوَالُهُنَّ عَظِيمَةٌ: عِنْدَ الوَفَاةِ، وَعِنْدَ القَبْرِ ، وَعِنْدَ النُّشُورِ ، وَعِنْدَ الكِتَابِ ، وَعِنْدَ الحِسَابِ وَعِنْدَ المِيزَانِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ.**[3]

١ـ ينقل هذا الحديث الفيض في «المحجّة البيضاء» ج ١ ، ص ٣٤٠ ، عن «من لا يحضره الفقيه» ؛ كما أورده الكلينيّ في «الكافي» ج ١ ، ص ٢٦٦ و ٢٦٧ بإسناده عن السكونيّ ، عن الإمام الصادق عليه السلام ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

٢ـ «المحجّة البيضاء» ج ١ ، ص ٣٤٠ ؛ و «المحاسن» للبرقيّ ، ج ١ ، ص ٨٠ ؛ و «عقاب الأعمال» للصدوق ، ص ١٩ ، الطبعة الحجريّة .

٣ـ «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٤٨ ، الطبعة الحروفيّة .

ويتّضح أنّ حبّ رسول الله وأهل بيته ممّا ينفع المرء ويُثقل أعماله ويرجّحها في الميزان .

روى الصدوق في «التوحيد» بسنده عن أبي معمّر السعدانيّ ، عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ضمن حديثٍ ردّ فيه على من ادّعى أنّ في آيات القرآن تناقضاً ؛ قال عليه السلام :

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : «وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا» فَهُوَ مِيزَانُ العَدْلِ يُؤْخَذُ بِهِ الخَلَائِقُ يَوْمَ القِيَامَةِ يَدِينُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الخَلْقَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ بِالمَوَازِينِ .

(وهنا يقول المرحوم الصدوق استطراداً : وفي غير هذا الحديث : المَوَازِينُ هُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالأَوصِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

ثمّ يتابع ذكر الحديث) :

وَأَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا» فَإِنَّ ذَلِكَ خَاصَّةٌ . (ولا منافاة له مع ذلك الحكم العامّ الكلّيّ) .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : «فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ» فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : لَقَدْ حَقَّتْ كَرَامَتِي ـ أَوْ قَالَ : مَوَدَّتِي ـ لِمَنْ يُرَاقِبُنِي وَيَتَحَابُّ بِجَلَالِي . إِنَّ وُجُوهَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ نُورٍ ، عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ ، عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ خُضْرٌ .

قِيلَ : مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟!

قَالَ : قَوْمٌ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ وَلَكِنَّهُمْ تَحَابُّوا بِجَلَالِ اللَّهِ وَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

نَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ بِرَحْمَتِهِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : «فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ، وَخَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ» ؛ فَإِنَّمَا يَعْنِي الحِسَابَ . تُوزَنُ الحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ ؛ وَالحَسَنَاتُ ثِقْلُ المِيزَانِ وَالسَّيِّئَاتُ

خِفَّةُ المِيزَانِ.[1]

وعلى أيّة حال فيستفاد ممّا جاء في هذه الرواية ـ إضافة إلى ما ذكرنا من أنّ السيّئات طفيفة لا وزن لها ـ العلّة في عدم وجود ميزان للذين يدخلون الجنّة بغير حساب. لأنّ **التحابب في الله وفي جلال الله** يعني المودّة والأُخوّة والعلاقة الحميمة وقضاء البعض حوائج البعض الآخر للّه فقط وفي سبيله وذكراً له ووصولاً إلى لقائه ومعرفته عزّ وجلّ.

ومثل هؤلاء الأفراد الذين ليس لهم في أعمالهم الشخصيّة من قصد إلّا الله تعالى، والذين لاثمن لمعاملاتهم إلّا الله عزّ وجلّ، فإنّ ديتهم ـ في المقابل ـ ليست إلّا الله سبحانه. وجملة **أَنَا دِيَتُهُ** توضّح هذا المعنى بجلاء. وأُولئك الذين يدخلون في جنّة لقاء الله وذات الحضرة الأحديّة، ويمّحون في أنواره عزّ وجلّ.

كما سبقت الإشارة إلى أنّ هناك ـ في المقابل ـ أفراداً من أصحاب النار يدخلونها بغير حساب ولا ميزان.

جاء في «الكافي» عن الإمام السجّاد عليه السلام ضمن كلامٍ له في الزهد قال:

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَهِ أَنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ لَا يُنْصَبُ لَهُمُ المَوَازِينُ وَلَا يُنْشَرُ لَهُمُ الدَّوَاوِينُ وَإِنَّمَا يُحْشَرُونَ إلَى جَهَنَّمَ زُمَراً؛ وَإنَّمَا نَصْبُ المَوَازِينِ وَنَشْرُ الدَّوَاوِينِ لِأَهْلِ الإسْلَامِ. وَاتَّقُوا اللَهَ عِبَادَ اللَهِ ـ الخبر.[2]

وبناءً على ذلك فلا منافاة بين آية **فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا** وبين

١ـ «التوحيد» للصدوق، ص ٢٦٨.

٢ـ «رسالة الإنسان بعد الدنيا» للعلّامة الطباطبائيّ، المعاد، النسخة الخطيّة ص ٣٤ و ٣٥.

آية وَمَن خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ ؛ لأنّ الأُولى تتعلّق بالمشركين ومنكري لقاء الله تعالى ، أمّا الثانية فتتعلّق بالمؤمنين من ذوي الأعمال الضعيفة الخفيفة في الميزان .

وبعبارة أُخرى فإنّ الآية الثانية عامّة ، أمّا الآية الأُولى ففي حكم المخصّص لها .

ومن بين الأُمور التي توجب ثقل الميزان ورجحانه حُسن الخلق ؛ روى الكلينيّ في «الكافي» عن الحسين بن أحمد ، عن المعلّى ، عن الوشّاء ، عن عبد الله بن سنان ، عن رجل من أهل المدينة ، عن عليّ بن الحسين عليه السلام ؛ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مَا يُوضَعُ فِي مِيزَانِ امْرِئٍ يَوْمَ القِيَامَةِ أَفْضَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلْقِ.**[1]

يستفاد من مجموع ما ذُكر أنّ جزاء الناس في يوم القيامة يقوم على أساس ميزان عملهم ، وأنّ أيّة فرقة أو طائفة لا تُثاب ولا تُعاقب إلّا بلحاظ موازين حسناتها وسيّئاتها ، وأنّ الحسب والنسب سيفقدان أثرهما يومذاك ، وأنّ العلاقات المادّيّة والطبيعيّة ستُلغى ، فيُثاب الناس على أُسس نظام الأصالة والواقعيّة والتحقّق ؛ وذلك التحقّق في الميزان هو الذي يحدّد درجة كلٍّ منهم في عالم الأنوار والحقائق .

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ .[2]

١ـ «أُصول الكافي» ج ٢ ، ص ٩٩ ، طبعة مطبعة الحيدريّ .

٢ـ الآيات ١٠١ إلى ١٠٤ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

الأنبياء والأوصياء هم المعيار والميزان ؛ وكلّ أُمّة تقاس مقارنة إلى الموازين الروحيّة والعمليّة والسلوكيّة لإمامها ، فيكون المعيار في ذلك الحجج الإلهيّة الذين يمثّلون واسطة الفيض وواسطة التربية والتعليم التشريعيّ للناس . وسيحتجّ الله تعالى على الناس بسنّة أُولئكم الحجج ومنهاجهم ، وسيحاسب الناس فيثيبهم أو يعاقبهم بناءً على تلكما السنّة والمنهاج :

لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ.[1]

على أنّ للبعض أعمالاً تفوق في سطوعها وإشراقها ونورها دائرة الأفكار وحدود التصوّر ، وتبهر الأنظار بتلألؤها وضيائها . كما أنّها من الصفاء والطهارة بحيث تتعدى السعة الوجوديّة للملائكة فلا يستطيعون بلوغها ونيلها ، لأنّ تلك الأعمال مختصّة بعشّاق لقاء الله ومتيّمي جماله الخالد ، والسعاة المجاهدين في طريقه ، الذين ينسون كلّ ما سواه . فأيّ ثواب وجزاء يمكن أن يقدّر لهم يومئذٍ ؟

وحين نعلم أنّهم قد تخطّوا عالم الوجود بأسرارهم وأرجاء وجودهم ، ناهيك عن أفكارهم وتصوّراتهم الذهنيّة وقلوبهم ومدركاتهم الباطنيّة ؛ وحين يكونون قد عبروا عالم الوجود ودفنوا ـ إلى الأبد ـ وجوداتهم المعارة المجازيّة في مقبرة النسيان ، ونصبوا خيامهم وسرادقاتهم في عالم أزليّة الحقّ من خلال الاندكاك في ذات الحضرة الأبديّة والفناء فيها ، فلن يكون لهم ـ والحال هذه ـ من أجر ولا جزاء إلّا الله سبحانه .

إنّ تلك الطهارة والخلوص ، وتلك الدرجة من النيّة الحميدة والاستغراق في مشاهدة المحبوب الخالد هي التي منحت عمل مولانا

١ـ الآية ٤٢ ، من السورة ٨ : الأنفال .

ومولى الموحّدين أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المحبّين جوهرة وأصالة جعلتا أوّل ما خلق الله وصاحب المقام المحمود على الإطلاق : محمّد المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول،في ضربة سيفٍ واحدة انهال بها عليّ عليه السلام على فرق عمرو بن عبد ودّ :

ضَرْبَةُ عَلِيٍّ يَوْمَ الخَنْدَقِ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الثَّقَلَيْنِ.

ولم يكن هذا التعبير تعبيراً عن القوّة الفائقة والتفوّق الظاهريّ ، أو عن عزّ الإسلام من جانب الحكم الاجتماعيّ ؛ إذ كيف يمكن لهذه المعاني أن تجعل ضربةً واحدة أفضل من عبادة جميع الجنّ والإنس ؟! بل إنّه تعبير عن حالة الخلوص والاستغراق والاندكاك المحض ، إذ لم يكن عليّ ليرى في ذلك الوقت ولا ليسمع إلّا الله تعالى ، ولم يكن ليتحدّث إلّا إليه عزّ وجلّ .

وبطبيعة الحال فإنّ مثل هذا العمل أفضل من عبادة الجنّ والإنس من ذي الوجودات اللاهثة وراء الثواب والدرجات والمقامات . ولهذا السبب فإنّ أمير المؤمنين ليس لديه ثمّة ميزان للعمل ، وسيدخل الجنّة بغير حساب ، بل إنّه بذاته ميزان الأعمال : **السَّلَامُ عَلَى مِيزَانِ الأَعْمَالِ.**[1]

الإمام عليّ هو ميزان الأعمال ، وقسيم الجنّة والنار ، والصراط المستقيم وهو المعيار والمحكّ ، وهو المركز والمحور ، وهو صاحب العرفان الإلهيّ وصاحب الولاية وذو التحابب في الله تعالى ، وممّن ترسّخ فيهم حبّ الله تعالى ، إذ كان محبّاً لعظمة الله وجلاله ، ولأنّ سيرته وصفاته

١ـ هذه الفقرة من بين فقرات السلام الواردة في زيارة الإمام المطلقة ، حيث يزوره الزائر ثمّ يقف عند رجلي القبر ويقول : **السَّلَامُ عَلَى أَبِي الأَئِمَّةِ وَخَلِيلِ النُّبُوَّةِ وَالمَخْصُوصِ بِالأُخُوَّةِ. السَّلَامُ عَلَى يَعْسُوبِ الدِّينِ وَالإِيمَانِ وَكَلِمَةِ الرَّحْمَنِ. السَّلَامُ عَلَى مِيزَانِ الأَعْمَالِ وَمُقَلِّبِ الأَحْوَالِ...** إلى آخر السلام عليه . وقد أورد المرحوم المجلسيّ هذه الزيارة في «بحار الأنوار» ج ١٠٠ ، ص ٢٨٧.

ونواياه ووجوده كانت للّه تعالى ، فهو - إذاً - الميزان .

لاحظوا أنّ جميع علائق الحبّ في عصرنا الحاضر تدور حول محور الدنيا ، وأنّ المؤتمرات والجلسات والأحزاب والأُمم والجامعات والكتب والمكتبات تدور بأجمعها على أساس المادّة والطبيعة ، وتتحرّك على ضوء علم الاجتماع والاقتصاد وأشباه ذلك .

فأين هي - يا ترى - المدرسة التي تتحرّك بجناحَي العلم والعمل في تربية أفراد يحبّون الله،ويدركون بصفاء السرّ المعانيّ الحقّة الحقيقيّة ؟! فلو شاء إنسان في عصرنا الحاضر تهذيبَ نفسه وإصلاحها ، لكيل له من التُّهم ما يجعله ينكّس رأسه خجلاً .

أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ.

أُفٍّ لكم ولأفكاركم ونواياكم القبيحة وللآلهة الخياليّة التي اختلقتموها في قلوبكم وأذهانكم إفكاً وبُهتاناً ، فابتعدتم - عمداً أو جهلاً - عن هذا الإله الرحيم الرؤوف واتّبعتم سواه .

إنّ أمثال هؤلاء لمّا عجزوا عن فهم معنى «ويتحابّ بجلالي» (بالجيم المعجمة) ، فقد حرّفوها وطبعوها «ويتحابّ بحلالي» (بالحاء المهملة) ، ثمّ عدّوا الرواية في تعليقهم في هامش الكتاب من الآحاد ومن الروايات الغريبة ، ليوجدوا بذلك سدّاً منيعاً أمام إرادة من يحاول فهم هذه الرواية ويسعى إلى محبّة الله تعالى ،[1] وليقفوا بنهجهم وسلوكهم في عبادة الدنيا

١- إشارة إلى الحديث الذي نقلناه مؤخّراً عن «التوحيد» للصدوق ، حيث ورد في جميع نسخ «التوحيد» بلفظ «بجلالي» بالجيم ، كما أورده المرحوم المجلسيّ في «البحار» طبعة الكمبانيّ ، جزء «العدل والمعاد» وهو الجزء الثالث من أجزاء «البحار» ص ٢٦٣ بالجيم ، ثمّ حُرِّف في الطبعة الأخيرة الحروفيّة إلى الحاء وذُكر في الهامش أنّ الرواية من الآحاد الغريبة .

حائلاً أمام سير مجتمع العلم والأدب في طريق لقاء الله تعالى :

نعم ، إنّ المتحابّين في جلال الله سبحانه ليس لهم من مقصد وهدف وغاية ومعبود إلّا الله عزّ وجلّ .

هرسو كه دويديم همه سوى تو ديديم
هر جا كه رسيديم سر كويِ تو ديديم
هر قبله كه بگزيد دل از بهر عبادت
آن قبلهٔ دل را خم أبروى تو ديديم
هر سَروِ روان را كه در اين گلشن دهراست
بر رسته به بُستان و لب جوى تو ديديم
از باد صبا بوى خوشت دوش شنيديم
با باد صبا قافلهٔ بوى تو ديديم
روى همه خوبان جهان بهر تماشا
ديديم ولى آيينهٔ روى تو ديديم
در ديدهٔ شهلاى بتانِ همه عالم
كرديم نظر نرگس جادوى تو ديديم[1]

---

١ ـ «ديوان مغربى» ، ص ٨٥ .

يقول : «إلى أيّ جانب هرعنا وجدناه سبيلاً إليك ، وأينما وصلنا وجدناه بداية الطريق إليك .

ومهما اختار القلب من قِبلة للعبادة ، رأيناها قوس حاجبَيْك .

وأيّ شجرة سرو شهدنا في روضة الدهر ، رأيناها نابتة في روضتك ، وعاكفة على حافّة ساقيتك .

تنسّمنا من ريح الصبا عطرَك البارحة ، وشهدنا قافلة نفحاتك هابّة مع ريح الصبا .

وتطلّعنا إلى وجوه حِسان العالم ، فرأيناها مرآةً لطلعتك .

وتأمّلنا في العيون الشُّهْل لآلهة العالم كلّه ، فرأينا أزهار نرجسك الساحرة» .

تــا مِــهرِ رخت بــر هــمه ذرّات بــتابيد
ذرّات جهان را بـه تك و پـوى تـو ديـديم
در ظاهر و بـاطن بـه مـجاز و بـه حـقيقت
خلق دو جهان را همه رو سوى تو ديـديم
هر عـاشق ديـوانـه كـه در جـملگى تست
بـر پـاى دلش سـلسلهٔ مـوى تـو ديـديم
سـر حـلقهٔ رنـدان خـرابـات مـغان را
دل در شكـن حـلقهٔ گيسوى تـو ديـديم
از مـــغربى أحـــوال مـپرسيد كـه او را
ســـودا زدهٔ طـرّهٔ هـندوى تـو ديـديم[١]

وقد أجاد ابن الفارض وأبدع حين أنشد يقول :

نَسَخْتُ بِحُبِّي آيَةَ العِشْقِ مِنْ قَبْلِي
فَأَهْلُ الهَوَى جُنْدِي وَحُكْمِي عَلَى الكُلِّ
وَكُلُّ فَتىً يَهْوَى فَإنِّي إمَامُهُ
وَإنِّي بَرِيءٌ مِنْ فَتىً سَامِعِ العَذْلِ
وَلِي فِي الهَوَى عِلْمٌ تَجِلُّ صِفَاتُهُ
وَمَنْ لَمْ يُفَقِّهْهُ الهَوَى فَهْوَ فِي جَهْلِ

١ـ يقول : «وحين أشرقت شمس طلعتك على جميع ذرّات الوجود ، رأيناها تبحث عنك وحدك .

ورأينا خلق العالمين وهم يتّجهون نحوك في الظاهر والباطن ، وفي المجاز والحقيقة .

وكلّ عاشقٍ مجنون مملوك له بأسره ، رأينا قلبه موثقاً بسلسلة خصلات شعرك .

ورأينا رئيس حلقة العارفين المتمرّسين وقلبه أسير حلقات ذؤابتك .

فلا تنشد «المغربيّ» بعدُ عن الحال ، فقد رأيناه مصاباً بالجنون من خصلاتك الهنديّة !» .

وَمَـنْ لَـمْ يَكُـنْ فِـي عِـزَّةِ الحُبِّ تَائِهـاً
بِـحُـبِّ الَّـذِي يَـهْـوَى فَـبَشِّــرْهُ بِالـذُّلِّ
إذَا جَــادَ أَقْــوَامٌ بِــمَــالٍ رَأَيْـتَـهُـمْ
يَـجُـودُونَ بِالأَرْوَاحِ مِـنْـهُـمْ بِـلَا بُخْـلِ
وَإنْ أُودِعُـوا سِـرّاً رَأَيْـتَ صُــدُورَهُـمْ
قُـبُــوراً لِأَسْـــرَارٍ تَـنَــزَّهُ عَـنْ نَـقْـلِ
وَإنْ هُـدِّدُوا بِالـهَـجْـرِ مَـاتُـوا مَـخَـافَـةً
وَإنْ أُوعِـدُوا بِالقَتْـلِ حَنُّـوا إلَـى القَتْـلِ
لَعَـمْـرِي هُـمُ العُشَّـاقُ عِنْـدِي حَقِـيقَـةً
عَلَى الجِـدِّ وَالبَاقُـونَ مِنْهُمْ عَلَى الهَزْلِ[1]

وأمثال هؤلاء الأفراد قد فنوا في الله تعالى ، ثمّ بقوا ببقائه عزّ وجلّ ؛ لذا فإنّهم لمّا بلغوا الكمال صاروا ميزاناً للإنسانيّة . فأيّ ميزان وُجد للرجال والنساء في جميع عالم البشريّة وتحت قبّة السماء الزرقاء أفضل وأشرف من عليّ بن أبي طالب وأولاده الطاهرين وفاطمة الزهراء بنت رسول الله وابنتها الجليلة موضع سرّ أمير المؤمنين ـ زينب الكبرى ـ في تلك الدرجة من طهارة السرّ ونزاهة الفطرة والقلب والنفس والخيال والحِسّ ، وبتلك الفتوّة ، وبذلك الإيثار والعفو ، وبذلك الحبّ في جلال الله تعالى ، وبتلك العبوديّة والمعرفة والعلم الغزير الفيّاض .

فينبغي على المرء أن يقف أمام قبره الشريف بأدب وخضوع ويقول :

السَّلَامُ عَلَى مِيزَانِ الأَعْمَالِ وَمُقَلِّبِ الأَحْوَالِ . السَّلَامُ عَلَى الصِّرَاطِ

---

١ ـ «ديوان ابن الفارض» ص ١٧٤ ، القصيدة اللاميّة .

الوَاضِحِ وَالنَّجْمِ اللاَئِحِ وَالإمَامِ النَّاصِحِ وَالزِّنَادِ القَادِحِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

ومن الجليّ أنّهم ليسوا شهداء على هذه الأُمّة فحسب، بل إنّهم كذلك شهداء على جميع الأنبياء.

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا.[1]

وفي هذا المجال ينساب القلم المقتدر لابن أبي الحديد الشافعيّ شارح «نهج البلاغة» ذي المذهب المعتزليّ فيقول:

يَا بَرْقُ إنْ جِئْتَ الغَرِيَّ فَقُلْ لَهُ ... أَتَرَاكَ تَعْلَمُ مَنْ بَأَرْضِكَ مُودَعُ

فِيكَ ابْنُ عِمْرَانِ الكَلِيمَ وَبَعْدَهُ ... عِيسَى يُقَفِّيهِ وَأَحْمَدُ يَتْبَعُ

بَلْ فِيكَ جِبْرِيلٌ وَمِيكَالٌ وَإِسْرَا ... فِيلُ وَالمَلأُ المُقَدَّسُ أَجْمَعُ

بَلْ فِيكَ نُورُ اللهِ جَلَّ جَلاَلُهُ ... لِذَوِي البَصَائِرِ يَسْتَشِفُّ وَيَلْمَعُ

فِيكَ الإمَامُ المُرْتَضَى فِيكَ الوَصِيُّ ... المُجْتَبَى فِيكَ البَطِينُ الأَنْزَعُ

هَذِي الأَمَانَةُ لاَ يَقُومُ بِحَمْلِهَا ... خَلْقَاءُ هَابِطَةٌ وَأَطْلَسُ أَرْفَعُ

هَذَا هُوَ النُّورُ الَّذِي عَذَبَاتُهُ ... كَانَتْ بِجَبْهَةِ آدَمَ تَتَطَلَّعُ

وَشِهَابُ مُوسَى حَيْثُ أَظْلَمَ لَيْلُهُ ... رُفِعَتْ لَهُ لألاؤُهُ تَتَشَعْشَعُ

لَوْلَا حُدُوثُكَ قُلْتُ إنَّكَ جَاعِلُ ... الأَرْوَاحِ فِي الأَشْبَاحِ وَالمُتَنَزِّعُ

لَوْلَا مَمَاتُكَ قُلْتُ إنَّكَ بَاسِطُ ... الأَرْزَاقِ تَقْدِرُ فِي العَطَاءِ وَتُوسِعُ

مَا العَالَمُ العُلْوِيُّ إلَّا تُرْبَةٌ ... فِيهَا لِجُثَّتِكَ الشَّرِيفَةِ مَضْجَعُ

مَا الدَّهْرُ إلَّا عَبْدُكَ القِنُّ الَّذِي ... بِنُفُوذِ أَمْرِكَ فِي البَرِيَّةِ مُولَعُ

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّهُ لاَبُدَّ مِنْ ... مَهْدِيِّكُمْ وَلِيَوْمِهِ أَتَوَقَّعُ

وَلَقَدْ بَكَيْتُ لِقَتْلِ آلِ مُحَمَّدٍ ... بِالطَّفِّ حَتَّى كُلُّ عُضْوٍ مَدْمَعُ[2]

١ـ الآية ٤١، من السورة ٤: النساء.

٢ـ بعض أبيات القصيدة العينيّة لابن أبي الحديد التي طبعت ضمن مجموعة ⇦

وكان ابن سينا فخر فلاسفة الشرق يقول فيه: **وَكَانَ عَلِيٌّ فِي أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ كَالمَعْقُولِ بَيْنَ المَحْسُوسِ.**[1]

صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، وَعَلَى حَلِيلَتِهِ وَزَوْجَتِهِ وَأَبْنَائِهِ المَعْصُومِينَ وَأَوْلَادِهِ الطَّاهِرِينَ لَا سِيَّمَا مَهْدِيِّهِمْ عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ وَسَهَّلَ مَنْهَجَهُ.

⇐ «المعلّقات السبع»، الطبعة الحجريّة.

١ـ يقول ابن سينا في «رسالة المعراج»: كَانَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِحْوَرَ دَائِرَةِ الحِكْمَةِ، وَفَلَكَ الحَقِيقَةِ وَخِزَانَةَ العَقْلِ ... وَكَانَ بَيْنَ الخَلْقِ كَالمَعْقُولِ بَيْنَ المَحْسُوسِ.



المجلس السادس والخمسون

في كيفية الحساب يوم القيامة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.[1]

مرحلة الحساب هي إحدى المراحل التي نواجهها يوم القيامة ، وهي أحد مواقف القيامة ومنازلها التي يُحاسب فيها الإنسان على ما بدر منه في حياته الدنيا من أعمال وسلوك .

وَإِن تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّـهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.[2]

وقد ورد في القرآن الكريم في شأن الحساب آيات كثيرة مختلفة في اللحن والمضمون ، منها :

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّـهَ عِندَهُۥ فَوَفَّـٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّـهُ سَرِيعُ

١ـ الآية ٢٨١ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ٢٨٤ ، من السورة ٢ : البقرة .

ٱلْحِسَابِ.[١]

إشارةً إلى أنّ سلوك الكافرين بلا أصالة ولا حقيقة، فهو لا يروي الظمآن كما يفعل الماء، ولا يثمر نتيجة ولا ثمراً، بل شأنه كالسراب الذي يخاله الناظرون ماءً، ثمّ يبحثون في تلك الأرض القاحلة فلا يجدون شيئاً. ثمّ تتصرّم أعمارهم دونما هدى يأخذ بأيديهم إلى السبيل، ويرحلون عن هذا العالم بأكباد حرّى غرثى قد أحرقها الظمأ، وقد خسروا أعمارهم وثروات حياتهم، فيجدون الله حاضراً يوفّيهم حسابهم ويُسائلهم عمّا عملوا ويسألهم عن علّة انسياقهم وراء الباطل وعدم ارتوائهم من معين الحقيقة الغزير!

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ.[٢]

الحساب قريب جدّاً؛ فليس من حدّ يفصل بين الناس وبين حسابهم، ولا من فاصل يحجز الإنسان عن الموت. ولو فرضتم أنّ هناك فاصلاً ما، فإنّ ذلك الفاصل ـ مهما كان ـ سيكون قريباً، لأنّنا نتحرّك باتّجاه الحساب. ومهما كان ذلك الحساب نائياً، فإنّنا نقترب منه في كلّ لحظة تمرّ. فهو ـ إذاً ـ قريب.

أمّا الشيء البعيد فهو الذي انقضى ومضى وليس للإنسان من سبيل للوصول إليه.

وبهذا اللحاظ تعدّ سنوات عمرنا المنقرضة في منتهى البعد، لأنّها قد انطوت ومضت وليست قابلة للعودة. فهي قضيّة نائية بعيدة، بل إنّ هذه الساعة التي انقضت علينا الآن صارت بعيدة عنّا، مع أنّها لم تبعد عنّا إلّا

١ـ الآية ٣٩، من السورة ٢٤: النور.

٢ـ الآية ١، من السورة ٢١: الأنبياء.

بقدر ساعة واحدة . وذلك لأنّها مرّت وانقضت ولن ترجع من جديد .

أيمكن لأحدٍ ما أن يعثر على تلك الساعة الماضية ؟ أيمكنه إعادة عجلة الزمن إلى الوراء لمشاهدة تلك الساعة ؟!

ذلك أمر محال ، لماذا ؟ لأنّ تلك الساعة إن عادت ، فإنّ على العالم أن يعود إلى الوراء ، فلقد انقضت تلك الساعة على جميع الموجودات الطبيعيّة المادّيّة . ولو شاءت العودة لتوجّب أن تعود إلى الوراء جميع سلسلة العلل والمعلولات التي تضافرت وتعاضدت من أجل أن تمرّ هذه الساعة في وقتها المعيّن ؛ ولتوجّب أن تتغيّر المشيئة الإلهيّة بشأنها ، وهو محال .

فمن المحال إذاً أن يعيد أحد الأفراد دقيقة واحدة إلى الخلف ، على الرغم من عدم تجاوز الفاصلة الزمنيّة دقيقة واحدة فقط ، وذلك لانتفاء سبيل وصولنا إليها .

أمّا الحساب فهو في منتهى القُرب ، لأنّنا نتحرّك باتّجاهه باستمرار ، حتّى لو ماثل عمرنا عمر نوح النبيّ الذي عاش بين قومه تسعمائة وخمسين عاماً ، لأنّ الموت ـ في نهاية المطاف ـ أمر لابدّ من تحقّقه . لقد عاش النبيّ نوح هذا المقدار بين قومه ، وكان يدنو من نقطة أجله كلّ لحظة ، حتّى وافاه الأجل في النهاية . ولن يضيرنا شيئاً لو زاد عمرنا على هذا المقدار ـ فرضاً ـ لأنّ جباهنا قد خُتم عليها بطابع الموت والحساب .

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ .[1]

الفناء ـ إذاً ـ مقدّر علينا بدورنا ، وعلينا أن نسير باتّجاه الله تعالى وباتّجاه الحساب . وهو مقصد قريب ولو بدا بعيداً . ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ،

١ـ الآيتان ٢٦ و ٢٧ ، من السورة ٥٥ : الرحمٰن .

إلّا أنّهم غافلون ومُعرضون باستمرار. ومع أنّهم لا ينفكّون يقولون: «ماتَ فلان»؛ ولا يبرحون يتساءلون: «ماذا دهى فلاناً؟» لكنّهم ـ مع ذلك كلّه ـ لا يتأمّلون أبداً في حقيقة أنّ الحساب سيأتيهم بدورهم، وأنّ الموت قد يأتيهم فجأة، وأنّ حسابهم ـ لو دهمهم الموت ـ سيكون كحساب الماضين الذين سبقوهم.

ما هي حقيقة الحساب؟

تمثّل حقيقة الحساب كشف المجهول العدديّ. ولو فرضتم أنّ هناك بائعاً يريد معرفة مقدار النفع الذي اكتسبه أو الضرر الذي تحمّله خلال يومٍ معيّن، باعتبار أنّ هذا الأمر مجهول لديه، فإنّه يقارن مجموعة من المعلومات مع بعضها، فيصل إلى كشف ذلك المجهول من خلال ضمّ تلك المعلومات إلى بعضها، ومن خلال تطبيق قواعد خاصّة عليها. ويدعى عمل هذا البائع حساباً.

ولو أردنا ـ على سبيل المثال ـ أن نعطي لكلّ واحد من الأفراد الثلاثة الجالسين هنا أربع تفّاحات، فإنّنا نحسب كم سيلزمنا من التفّاح، فنصل إلى عدد اثنتي عشرة تفّاحة. بَيدَ أنّ الحساب ليس دائماً بمثل هذه السهولة، فقد يكون عدد الذين نريد إعطاءهم تفّاحاً ثلاثمائة ألف وخمسمائة وسبعة وستّين شخصاً، نريد أن نعطي كلّاً منهم اثنتي عشر ألفاً وخمسمائة وإحدى عشرة تفّاحة. وهو رقم لن نستطيع حسابه على أصابع اليد، ولن تتضّح لنا نتيجته على الفور، وسينبغي علينا أن نمسك بالقلم والورقة ونستعين بجدول ضرب فيثاغورس.

وقد يكون الحساب أدقّ من هذا وأكثر تعقيداً، فقد تريدون أن تعطوا تفّاحاً لجميع سكّان العالم. وهو ما يتطلب حساباً أعسر وأشقّ.

وسيتحتّم عليكم أن تحسبوا الأطفال الصغار أيضاً ، وأن تعلموا كم تبلغ حصّة الأفراد الذين رحلوا عن الدنيا ، ليس خلال لحظة واحدة فحسب ، بل على امتداد العمر واللحظات . فأيّ جهاز للحساب سيكون هذا الجهاز ؟ وأيّ مسطرة حسابيّة هي التي يمكنها أن تعطي الجواب للإنسان بسرعة ، وأن تبيّن له ما الذي عمله في اليوم الفلانيّ والساعة الفلانيّة ، وما الذي عمله في اللحظة التي تلتها ؟

سيُحاسب الناس على الأعمال والخواطر والأخلاق والعقائد والملكات ، ويقدّمون الإجابة عن ذلك . وهو حقّاً جهاز حساب في منتهى الإثارة للعجب ، لأنّه لا يحاسب الإنسان على أعماله فقط ، بل يؤاخذه ـ كذلك ـ على أخلاقه وسيرته . فمن سيستطيع إنجاز مثل هذا الحساب ؟!

إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ.[1]

فكم سيحاسب الله تعالى ، وبأيّ سرعة سيُحاسب ؟ إنّ الحساب ليس عملاً سهلاً ، بل هو عمل عسير . وذلك الجهاز من الغرابة بمكان حين يضع أمام أنظار الإنسان وفي لحظة واحدة الإجابة على جميع هذه المجهولات ، ليس لفردٍ واحد فحسب ، بل لجميع أفراد البشر من الأوّلين والآخرين ، الموتى والأحياء ، منذ زمن آدم إلى زمننا هذا ، ومن زمننا هذا إلى يوم القيامة .

وينبغي أن يكون ذلك الحاسوب الإلكترونيّ (الكومبيوتر) في منتهى الاقتدار ، وأن يكون المكلّفون بالعمل عليه مَهَرة وخبراء وممّن اجتازوا مراحل دراسيّة متقدّمة تؤهّلهم للعمل على ذلك الجهاز .

هذا هو تقريب المطلب وقد أضحى سهلاً ويسيراً لفهم العامّة . أمّا

---

١ ـ الآية ١٩٩ ، من السورة ٣ : آل عمران .

بالنسبة إلى الخواصّ فإنّنا نقول إيضاحاً للمطلب :

إنّ الحساب ـ باعتباره كشفاً للمجهول العدديّ ـ يقع في ظرف الجهل ، أمّا لو تخطّينا ظرف الجهل فإنّ الحساب سيفقد معناه . إذ إنّنا نعمل قانون الحساب حين يكون ناتج الحساب مجهولاً لدينا ، فنقول ـ مثلاً ـ إنّ حاصل ضرب ثمانية في أربعة ، مطروحاً منه خمسة ، مضروباً في ثلاثة سيكون واحداً وثمانين .

[(٨ × ٤) - ٥] × ٣ = ٨١.

حيث يرتفع جهلنا بذلك ونصبح عالمين بهذا الأمر .

أمّا حين ينتفي ظرف العلم والجهل ، ويكون الحساب في حقيقة الأمر وواقعه ، فإنّ الحساب سيفقد معنى كشف المجهول العدديّ .

إنّ كلّ شيء مترتّب في عالم الخارج على شيء آخر هو عين الواقع . ولكلّ عمل أثر ونتيجة تترتّب عليه في الخارج . فالغذاء الذي يتناوله الإنسان يتبدّل في المعدة إلى موادّ معيّنة ، ثمّ يستحيل في الكبد إلى دم ، يمثّل سلسلة أُمور مترتّبة ولا يمثّل حساباً .

ثمّ إنّ كلّ عمل يلد شيئاً وأثراً معيّناً ، وكلّ شجرة تمنح ثمرة معيّنة ، وكلّ ثمرة ذات أثر معيّن ، والأمر سائر على هذه الشاكلة . فقد جعل الله سبحانه لكلّ شيء في عالم التكوين أثراً معيّناً ، ولكلّ علّة معلولاً معيّناً . فالصلاة التي يصلّيها المرء لها أثر معيّن ، والصوم الذي يصومه له أثر معيّن آخر ، والكذب والزنا والغيبة لها آثار أُخرى . وكلّ عمل قبيح أو حسن له أثر معيّن خاصّ ، وهي آثار رتّبها الله عزّ وجلّ على تلك الأعمال في عالم التكوين ، فصار الأثر الناجم عن صلة الرحم هو طول العمر ، وصار الإنفاق في سبيل الله باعثاً على زيادة الخير والبركة ، وصار تركه سبباً لضيق المعيشة وعسرها . وهي آثار رتّبها تعالى على نفس الأعمال .

وكما أنّنا حين نغرس شجرة ما في الأرض ونتعاهدها بالسقي، فإنّ الله سبحانه يرتّب على تلك الشجرة آثاراً ونتائج معيّنة، بحيث إذا وصلتها أشعة الشمس والماء والمواد الغذائيّة المساعدة، فسوف تكبر هذه الشجرة وتورق وتثمر.

ثمّ إنّنا سنجهل مقدار ثمار هذه الشجرة ولا نعلم ـ مثلاً ـ كم تفّاحة تحمل. وعلينا ـ إذا ما شئنا أن نعلم ذلك ـ أن نرسل من يعدّ ثمار التفّاح على الشجرة واحدةً فواحدة.

ولكن هل يجهل الله عزّ وجلّ عدد تفّاح هذه الشجرة؟ كلّا بطبيعة الحال، لأنّ علم البارئ بالموجودات ليس علماً حصوليّاً، بل هو علم حضوريّ.

ولدينا نوعان من العلم: العلم الحصوليّ الذي نفتقر معه إلى المعلوم الذي يوجد خارج وجودنا، ثمّ تتّضح صورة ذلك المعلوم في ذهننا فيحصل لنا العلم به. وعلى سبيل المثال فإنّنا لا نعلم بهويّة الجالسين في هذا المجلس ولا بعددهم. وذاتنا ومخّنا يفتقران إلى هذا العلم، كما أنّنا لا نعلم به علماً حضوريّاً، فلو أغلقنا أعيننا فإنّنا لن نعلم به أصلاً، أمّا لو فتحنا أعيننا وأمعنّا النظر فإنّ صورة ذلك المعلوم ستحصل في أذهاننا. لذا يُدعى هذا العلم بالعلم الحصوليّ.

أمّا النوع الآخر من العلم فيدعى بالعلم الحضوريّ. ومثاله علمنا بذاتنا، وعلمنا بمشاعرنا وقوانا، لأنّ علمنا بقوانا الحافظة وقوانا المفكّرة هو علم حضوريّ لا ينفك عنّا، ولأنّنا ـ حيثما كنّا ـ واجدون لذواتنا. ومن ثمّ فإنّ علم النفس بالنفس هو علم الحضوريّ. فهل يكون علم الله بموجوداته ومخلوقاته علم حصوليّ؟ وهل كان يفتقد العلم بها ثمّ حصل له العلم بها، وحصلت لديه صورة عن تلك الموجودات؟

لا ريب أنّ ذلك ممّا يستلزم الجهل والإمكان وألف عيب آخر ، ولا شكّ في أنّ علمه تعالى بالموجودات علم حضوريّ . أي أنّ الموجودات الخارجيّة تمثّل بذاتها علم الله تعالى .

وبعبارة أُخرى ، فإنّني ـ أنا الجالس في هذا المكان ـ لو شئت مشاهدة هذا المسجد ، فإنّ عَلَيَّ أن أفتح عيني لأُشاهده ، حيث ستقع صورة منه في ذهني ، أو أن يقوم أحد ببيان خصوصيّات المسجد لي ، أو أنّ عَلَيَّ أن أنظر إلى صورة المسجد وهيئته في كتابٍ ما فيحصل لي العلم به من خلال ذلك .

أمّا علم الله تعالى بهذا المسجد فليس إلّا حقيقة المسجد وواقعيّته ، بل هو نفس المسجد . أي أنّ المسجد بذاته ووجوده الخارجيّ يمثّل علم الله عزّ وجلّ ، وليس هناك ـ والحال هذه ـ ثمّة انفصال بين هذا المسجد وبين علم الله تعالى به . وعلم الله سبحانه بكلّ موجود من الموجودات من نوع العلم الحضوريّ ، أي أنّ نفس وجود ذلك الموجود وتحقّقه هو علم الله تعالى . عالم التكوين هو علم الله سبحانه . ومهما فعل الإنسان من عمل ، فإنّ ذلك الشخص وعمله هما عين علم الخالق الحضوريّ .

وإذ اتّضح هذا المطلب ، فقد علمنا أنّ أي موجود ليس خافياً عن الله عزّ وجلّ . وكما أنّ أنفسنا ليست بغائبة عنّا ؛ وكما أنّ قوانا النفسيّة ليست غائبة عنّا ، وكما أنّنا نعلم بها علماً حضوريّاً ، فإنّ علم الله بالله وبصفاته وأسمائه وعلمه تعالى بأفعاله (وهي جميع الموجودات وشؤونها) هو علم حضوريّ بدوره .

وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ.[١]

١ـ الآية ٦١ ، من السورة ١٠ : يونس .

كما أنّ علم الخالق بالكتاب المبين علم حضوريّ . ومن هنا فإنّ جميع الموجودات حاضرة أمام الله سبحانه بالعلم الحضوريّ . فلماذا يحاسب اللهُ تعالى الخلائق ؟ وعلى أيّ شيء سيحاسبهم ؟ أيّ شيء لا يعلمه الله حتّى يشاء بحسابه له كشف ذلك المجهول ؟! إنّ إعمال القوانين والقواعد الحسابيّة من قِبل الله تعالى أمر لا معنى له أساساً ، إذ ليس من معنى لكشف المجهول من قبل ذاته القدّسيّة .كما أنّ أعمال الإنسان ـ شأنه في ذلك شأن سائر الموجودات ـ هي موجودات معيّنة وواضحة في مواضعها ، وقد رتّب الله تعالى على كلّ موجود أثراً ، بحيث إنّ نفس ذلك الموجود والأثر المترتّب عليه حاضران في علم الله سبحانه .

فلمن سيحاسب الله تعالى ؟ الحساب للناس الجاهلين من أجل أن يعلموا ما هي النتيجة ، ومن أجل أن يعلموا أنّ الثواب والعقاب قائمان على أساس من العدل والرحمة وليسا قائمين جزافاً على أساس من اللهو واللعب والعبث .

مثال : يحاول المعلّم في المدرسة في بادئ الأمر أن يعلّم الأطفال الجدد مبادئ الحساب ، فتراه يبذل جهداً في إيصال معلومة بسيطة لأذهانهم بأُسلوب جذّاب ، فمثلاً يقول لهم : لو فُرض أنّ هناك ثلاثة طيور واقفة على الأرض ، وأنّ كلّ واحد منها سيحمل في منقاره أربع ورود ثمّ يطير . فما هو عدد الورود التي حملتها الطيور الثلاثة ؟

ويتحمّل المعلّم المشاقّ في إيصال إدراك هذا المجهول لهذه البراعم المتفتّحة حديثاً ، والتي قدمت إلى المدرسة توّاً . والحقّ أنّ إفهامهم هذا الأمر صعب ، لأنّ أذهانهم لا تمتلك من السعة ذلك القدر الذي يمكّنهم من خلاله تصوّر تكرار أربعة ثلاثَ مرّات .

ولكنّ الأمر بالنسبة إلى المعلّم لا ينطوي على صعوبة تذكر ،كما أنّه

لا يحتاج في إدراكه لهذا المجهول إلى استعمال قواعد رياضيّة ، إذ ليس الأمر جذراً ولا تكعيباً ، ولا رسماً لمنحنيات معادلات الدرجة الثانية ، ولا معادلة من الدرجة الثالثة ، بل إنّ (ثلاثة في أربعة يساوي اثنتاعشرة)ما برح موجوداً ومشهوداً وحاضراً في ذهنه . وباعتبار الشهود والحضور في هذا الأمر ، فإنّ الحساب سيكون سريعاً .

ولأن جميع الموجودات حاضرة عند الله تعالى ومشهودة ومعلومة عنده عزّ وجلّ ، فإنّه سبحانه سريع الحساب : **وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ**.[1]

ومن هنا فإنّ أساس الحساب إنّما يرجع إلينا نحن الرازحين في ظرف العلم والجهل . وذلك أشبه بالآية القرآنيّة الشريفة : **مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ**؛[2] التي لا تعني أنّ الله تعالى لا يملك غير يوم الدين . فهو عزّ وجلّ مالك جميع الأيّام ، ومالك جميع العوالم ، وهو ما برح مالكاً ليوم الجزاء وغير يوم الجزاء . إلّا أنّ هذا الأمر سيصبح مشهوداً للإنسان في يوم الجزاء فيقرّ ويعترف بالملكيّة المطلقة الحقّة الحقيقيّة للّه تعالى .

إنّنا لا نعترف في هذا العالم حقّ الاعتراف والإقرار **بأنّ الله هو المالك** ؛ أمّا هناك فسنعترف بذلك ونقرّ به . ولهذا فقد ذكر القرآن الكريم بلسان اعترافنا ، ونطق بياناً لحالنا بأنّه تعالى **مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ** ، يوم سيمثّل الحساب كشفاً للمجهول بالنسبة إلى الإنسان .

وخلاصة المطلب أنّ كلّ عمل له نتيجة معيّنة ، سواءً كان ذلك العمل في جانب السعادة أم في جانب الشقاء . فكلّ فعل يصدر من الإنسان ، حسناً كان أم سيّئاً ، له أثر يترتّب عليه ويلازمه . وقد وردت بهذا الشأن آيات

١ـ الآية ٢٠٢ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ٤ ، من السورة ١ : فاتحة الكتاب .

قرآنيّة كثيرة ذكرت إحداها أنّ النبيّ يوسف على نبيّنا وآله وعليه السلام لمّا جاءه إخوته نادمين على ما فرط منهم عرّفهم بنفسه :

قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ.[1]

أي أنّ أجر المحسنين مترتّب ومتوقف على أعمالهم .

وقال تعالى : **نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ.**[2]

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ.[3]

ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ.[4]

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا.[5]

وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ.[6]

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ.[7]

والخلاصة فإنّ هذه الآيات تفيد بجلاء أنّ كلّ فعل للإنسان له جزاء

١ـ الآية ٩٠ ، من السورة ١٢ : يوسف . ويقصد بقوله (أخي) : بنيامين .

٢ـ الآية ٥٦ ، من السورة ١٢ : يوسف .

٣ـ الآية ٩٦ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٤ـ الآية ١٠ ، من السورة ٣٠ : الروم .

٥ـ الآيات ٨ إلى ١٠ ، من السورة ٦٥ : الطلاق .

٦ـ الآية ٣٠ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

٧ـ الآيتان ٧ و ٨ ، من السورة ٩٩ : الزلزلة .

يتبعه ، وأنّ على الإنسان ألّا يغفل عن عواقب تصرّفاته .

وقد كان للكثير من علماء الأخلاق والعرفان الأعلام مراقبات شديدة في هذا الشأن ، وكانوا يقولون : إذا ما زلّت بنا القدم يوماً فسقطنا على الأرض ، فإنّ علينا التأمّل في أحوالنا وأعمالنا لنرى أيّ خطأ وغفلة صدرا منّا فتبعهما ذلك الزلل والسقوط !

وهذه هي النتيجة الدنيويّة للعمل ، والوليد الصادر منه ؛ أمّا النتيجة الأُخرويّة فمحفوظة في موضعها .

ولقد كان الفقيه النبيه وعالم الأخلاق والمربّي الروحانيّ السيّد ابن طاووس : **عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن طاووس** ، ولقبه الشريف : رضيّ الدين ، أحد مفاخر عالم الإسلام والتشيّع ؛ ويقال : إنّ هذا السيّد الجليل كان سيّد أهل المراقبة ، فقد كان دقيقاً في مراقبة الأعمال والسلوك والجزاء والآثار المترتّبة على تلك الأعمال وذلك السلوك ، بحيث لم يُعرف له مثيل في هذا الشأن والمضمار .

وحين يطالع المرء كتابه الشريف النفيس «الإقبال» في الأدعية والأعمال العباديّة ، فإنّه سيدرك المدى الذي كان عليه هذا العالم العامل في دقّة تفحّصه عن الآثار المترتّبة على الأعمال ، ويشاهد النكات الدقيقة واللطيفة التي أودعها في ذلك الكتاب .

ونذكر في هذا المجال قصّتين لنتائج ترتّب الآثار على الأعمال ، حصلتا في أزمنة قريبة ولا شكّ ولا شبهة في أمر وقوعهما وتحقّقهما ، لأنّ عدد هذه القضايا التي عهدها عامّة الناس وشاهد كلّ منهم عدداً منها في حياته اليوميّة من الكثرة بحيث إنّها تفوق الحصر .

القصّة الأُولى : يحكي رجل عجوز صادق اللهجة : "شاهدتُ يوماً بأُمّ عينيّ - بعد أن دخل طهران جنودُ «محمّد ولي خان سبهسالار» بعد النهضة

الدستوريّة ـ جنديين من أُولئك الجنود يسيران على فرسيهما في نواحي «قنات آباد» وهما شاكيا السلاح وقد صفّا على صدريهما أحزمة الطلقات الناريّة . وكان الجنديان يسيران في وسط الطريق متّجهين إلى الغرب باتّجاه «إمام زاده حسن» وفي يد أحدهما غليون طويل قد حشّاه بالتبغ وهو منهمك في تدخينه .

وكان يجلس على حافّة الطريق درويش فقير قد حلق رأسه بالموسى حديثاً ، وكان يجلس متّكئاً على الجدار واضعاً رأسه على ركبتيه وقد غرق في التفكير .

ولمّا مرّ ذانك الجنديان المسلّحان بالبنادق ولمحا الرجل ذا الرأس الحليق ، اقترب منه الجندي صاحب الغليون وانحنى من فوق فرسه وأفرغ جمر غليونه على رأس الدرويش ومرّ منصرفاً . فرفع الرجل رأسه من على ركبتيه ونظر ثمّ قال : «إنّ لهذه اليقطينة [1] صاحباً» !

وكنت آنذاك أسير باتّجاه «إمام زاده حسن» ، فلمّا بلغتُ ذلك الموضع شاهدتُ من بعيد جماعة محتشدة تتفرّج على الجنديين المسلّحين ، وكانا لم يبلغا بعدُ ساحة الطريق التالية ، وكان فرس الجنديّ صاحب الغليون قد جمح به فجأة فألقاه على الأرض ، ثمّ وضع إحدى أقدامه على صدر الجندي وأخذ يرفسه على رأسه وصدره وبدنه حتّى هشّمه تهشيماً» .

وقد ذكرنا هذه القصّة بشأن سرعة الحساب في الدنيا جزاءً على العمل السيّئ ، أمّا القصّة الثانية فتتعلّق بسرعة الحساب في الدنيا جزاءً على العمل الحسن .

القصّة الثانية : يقول سماحة الأُستاذ الثقة المعتمد ، المجاهد للنفس

---

١ ـ يقصد باليقطينة رأسه الحليق توّاً . وقد مثّل بها تواضعاً . (م)

والمراقب لدرجة التزكية والطهارة : آية الله الحاجّ الشيخ مرتضى الحائريّ دام ظلّه العالي ، النجل الأكبر للمرحوم شيخ الفقهاء والمجتهدين الحاجّ الشيخ عبد الكريم الحائريّ اليزديّ رضوان الله عليه :

«لقد كان والدي المرحوم الحاجّ الشيخ عبد الكريم هو الابن الوحيد لوالديه ، إذ لم يرزق جدّي وجدّتي ولداً سواه . ولم يكن لي ـ والحال هذه ـ ثمّة عمّ أو عمّة .

وبيان ذلك أنّ جدّي المرحوم «محمّد جعفر» لم يكن من أهل العلم ، بل إنّ أحداً في طائفتنا ـ باستثناء أبي ـ لم يكن من أهل العلم ، ولم يكن جدّي قد رُزق أولاداً من جدّتي على الرغم من مرور أعوام طويلة على زواجهما . وكان جدّي يتزوّج بزواج المتعة باستمرار عسى أن يرزقه الله من إحداهنّ ولداً . فلم يقدّر الله تعالى ذلك . ومرّت مدّة دون أن يحصل على شيء من أُولئكم الزوجات . حتّى جاء يوم من أيّام الشتاء القارس ، وكان جدّي قد ذهب إلى بيت إحدى زوجاته بالمتعة لأداء الصلاة ، فحاولت المرأة ـ وقد تصوّرت أنّه جاء للاستمتاع ـ أن ترسل ابنتها الصغيرة من زوجها الأسبق إلى خارج البيت بذريعةٍ ما ، إلّا أنّ الفتاة الصغيرة كانت تمتنع عن الخروج لبرودة الجوّ . حتّى أنهى جدّي صلاته وكان في حال عصبيّة وانزعاج شديد ، فزجر المرأة على محاولتها إرسال الفتاة خارج البيت ، ثمّ دفع إليها حقّها وأعفاها من باقي مدّة المتعة وغادر البيت ودفع حقوق سائر أزواجه الأُخريات ووهبهنّ باقي مددهنّ ، وقد صمّم في نفسه على الامتناع عن التمتّع وعن الاقتراب من تلك الأُمور . ثمّ يتساءل : يا إلهي ! إلى متى أمدّ إلى سواك يدي من أجل أن أُرزق ولداً ، فيكون ذلك مدعاة لأذى طفلة يتيمة في مثل هذا الشتاء البارد ؟!

ثمّ إنّ الله سبحانه منّ عليه بعد هذه الواقعة بولد واحد من زوجته

الدائميّة العاقر بعد سنوات طوال من الحرمان ، فسمّاه عبد الكريم .

وكان المرحوم أبي ذا ذكاء وقابليّة ثرّة ، وكان بإمكانه قراءة الرسائل وفهمها وهو لا يزال طفلاً يافعاً . ثمّ إنّهم أرسلوه من القرية إلى المدينة للدراسة ، ثمّ شدّ الرحال إلى كربلاء فدرس في ذلك المكان المقدّس على المرحوم الفاضل الأردكانيّ المعاصر للمرحوم الميرزا الشيرازيّ الكبير : الحاجّ الميرزا محمّد حسن ـ وكان البعض يقدّمه على المرحوم الشيخ الأنصاريّ في العلم والفضل ـ ولمّا شاهد المرحوم الأردكانيّ قابليّة أبي الكبيرة ، أرسله إلى سامرّاء وكتب إلى المرحوم الميرزا الكبير يوصيه به . وهكذا قدم أبي إلى سامرّاء ولم يكن له من العمر آنذاك إلّا عشرون عاماً ، فمثل في محضر الميرزا الكبير وسلّمه رسالة الفاضل الأردكانيّ ، وتتلمذ على الأُستاذ الميرزا ، إلّا أنّه كان قد حضر أغلب دروسه عند المرحوم السيّد محمّد الفشاركيّ الأصبهانيّ"ـ انتهى كلام الشيخ الحائريّ .

وكان المرحوم آية الله الحاجّ الشيخ عبد الكريم رضوان الله عليه من رجال العلم والتقوى حقّاً ، ولم يتجاوز في مقام العلماء عبوديّة الربّ الكريم ، وكان هبة الله وعطاء الله . وقد تحمّل بثبات وصبر مشكلات زمان اقتدار الطاغوت ، حتّى أُصيب بمرض الدقّ وارتحل عن الدار الفانية ملتحقاً بفناء الدار الأبديّة الباقية ، وكان يُعدّ من مفاخر الشيعة خلال العصر الأخير في الأمانة والاستقامة والإعراض عن الدنيا والاهتمام بتربية الطلّاب . وكان من إنجازاته تأسيس الحوزة العلميّة ودار العلم الجعفريّ في بلدة قم الطيّبة .

والشاهد في هذه القصّة هو سرعة الأجر والجزاء لنيّة أبيه الصالح ، بحيث إنّه بمجرّد أن مدّ يده إلى الله وحده ، وقطع أمله عن الوسائل والأسباب ، وصرّف ـ رحمةً بطفلةٍ يتيمة ـ نظره عن إنجا[illegible] ولد يكون

ثمرة لفؤاده ، فإنّ الله سبحانه مَنّ عليه من زوجته اليائسة من الإنجاب بولد مثل عبد الكريم شاخص بين الأقران . ثمّ يأتي ذلك الولد من القرية إلى المدينة ، ويبرز في دار العلم (كربلاء) ، ثمّ في سامرّاء ، ثمّ يحصل على جميع المواهب الظاهريّة والباطنيّة ويتصدّر زعامة المسلمين .

والآيات والروايات الواردة في آثار أعمال الإنسان وانعكاسها كثيرة ، ونورد في هذا المجال آية ورواية على سبيل المثال ؛ أمّا الآية فقوله تعالى :

وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ.[1]

وأمّا الرواية فقد ورد في «الكافي» عن العبّاس بن هلال الشاميّ مولى (خادم) الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام ، قال :

كُلَّمَا أَحْدَثَ العِبَادُ مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْمَلُونَ ، أَحْدَثَ اللهُ لَهُمْ مِنَ البَلَاءِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ.[2]

وعلى أيّة حال ، فليس القصد من هذا البيان أنّ جزاء العمل ينبغي حتماً أن يكون في دار الدنيا ، ليلزم منه إشكال أنّ كثيراً من الناس يموتون على خيانتهم وجنايتهم ، وأنّ مجال الجزاء سينتفي لأمثال أُولئكم ؛ لأنّ جزاء العمل من لوازم العمل ، وسيوفّى ذلك الجزاء على أكمل وجه يوم القيامة الذي هو محلّ ظهور بواطن النفس، وستظهر آثار الأعمال الحسنة أو السيّئة للبعض ، ممّن يقدّر لهم العيش في الدنيا مدّة بعد قيامهم بتلك الأعمال ، كما سيظهر للبعض الآخر عند سكرات الموت ، ثمّ سيعقب الدنيا

١ـ الآية ٣١ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٢ـ «أُصول الكافي» ج ٢ ، ص ٢٧٥ .

عالم المثال ، ثمّ تعقب القيامة عالم المثال . وهذه العوالم الثلاثة تمثّل عالماً واحداً ممتدّاً يتجسّد فيه السير التكامليّ للبشر ؛ فإن جُوزِيَ الإنسان في الدنيا ، خفّف ذلك عنه حسابَه في الآخرة ، وإن لم يُجزَ في الدنيا ، عسر حسابه في الآخرة .

ولدينا ـ تبعاً لهذا الأساس ـ روايات تتضمّن أنّ الله تعالى يجزي المؤمنين في الدنيا على ما يبدر منهم من أخطاء بالمرض والفقر والحمّى وغيرها ، وصولاً إلى تطهيرهم من خلال ذلك ، ثمّ إنّهم يدخلون الجنّة بعد موتهم . أمّا الكافرون فلا يُجازيهم في الدنيا ، بل يبتليهم باذّخار الأموال والعيش الرغيد المرفّه ليوفّيهم جزاءهم وعقابهم في الآخرة غير منقوص .

وقد ورد في الحديث :

لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَهِ قَدْرَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ لَمَا سَقَى الكَافِرَ مِنْهَا شَرْبَةً .[1]

كما جاء في القرآن الكريم : **وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .**[2]

وفي قوله تعالى : **وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا .**[3]

١ـ وردت روايات عديدة بهذا المضمون باختلاف يسير في اللفظ ، منها في «الكافي» ج ٢ ، ص ٢٤٦ ؛ و «من لا يحضره الفقيه» ج ٤ ، ص ٣٦٣ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٧٧ ، ص ١٤٢ نقلاً عن «تحف العقول» .

٢ـ الآية ٦١ ، من السورة ١٦ : النحل .

٣ـ الآية ٤٥ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

وينبغي العلم بأن الأُمور والأعمال ليست مؤثّرة بذاتها في حصول النتيجة تأثيراً مستقلاً، ولا يمكن حصول تلك النتائج تلقائيّاً، بل إنّ الله عزّ وجلّ لمّا يوجد الموجودات على نحو الإفاضة، ويقدّر في تلك الموجودات على نحو الاستلزام آثاراً وخصائص وثمرات، فيكون ترتّب نتائج الموجودات وثمرات الأعمال على تلك الموجودات والأعمال هو عبارة عن استفاضة تلك الموجودات من الله تعالى الآثار التي قدّرها لها.

ومن هنا فإنّ كلّ موجود يطلبُ بوجوده الأثرَ من الله تعالى. كما أنّ ارتزاق المخلوقات ـ بدوره ـ هو من هذا القبيل، فكلّ موجود خلقه الله سبحانه يطلب بوجوده وهويّته الرزقَ من الله تعالى ويستجلب ذلك الرزق ويستفيضه منه، بحيث إنّه يُديم وجوده بذلك الرزق.

أمّا الحساب والجزاء فيماثلان الرزق تمام المماثلة، بل هما والرزق ـ بالنظر الدقيق والعقليّ ـ شيء واحد، حيث تستمدّ سحائب فيض ورحمة وجود الحضرة الأحديّة مياهها وعطاءها من البحر الخضمّ لرحمة الحقّ الواسعة، ثمّ تهطل بالفيض على عالم الإمكان فترويه.

وتبعاً لذلك فكلّ قطرةٍ نازلة تكون امتداداً للقطرة السابقة واستمراراً لها، هي رزق القطرة السابقة. وكذلك فإنّها لمّا تسبّبت في إيفاء الحاجة التي تقتضيها القطرة السابقة عليها، فإنّها ستكون في حكم جزاء تلك القطرة.

وفي المقابل، فكما أنّ إفاضة الرزق من قبل ذات الحقّ القيّوم على جميع الممكنات ضروريّة ومستمرّة ودائمة، حيث يقول:

وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَ رَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ.[١]

١ـ الآيتان ٢٢ و ٢٣، من السورة ٥١: الذاريات.

فكـذلك أنّ الحسـاب والجـزاء مسـتمرّان للـموجودات ودائـمان وضروريّان .

ورد في «نهج البلاغة» :

سُئِلَ عَلَيهِ السَّلَامُ : كَيْفَ يُحاسِبُ اللّهُ الخَلْقَ عَلَى كَثْرَتِهِمْ ؟

فَقَالَ : كَمَا يَرْزُقُهُمْ عَلَى كَثْرَتِهِمْ .

فَقِيلَ : كَيْفَ يُحَاسِبُهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُ ؟ فَقَالَ : كَمَا يَرْزُقُهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُ.[1]

وهذا المطلب جدير بالتأمّل ، حيث اعتبر الإمام عليه السلام الحساب والرزق أمرين متماثلين في جميع الآثار والشؤون . وتنطوي هذه العبارة ـ على إيجازها واختصارها ـ على كثير من المطالب النفيسة العرفانيّة .

فالرزق والجزاء ـ إذاً ـ شيء واحد في حقيقة الأمر ؛ لكنّه يُدعى رزقاً بلحاظ معيّن ، ويدعى حساباً وجزاءً بلحاظ آخر . ومهما سمّيتم أثر العمل الذي تفعلونه ، وسواءً دعوتموه رزقاً أم جزاءً ، فإنّكم لو صلّيتم صلاةً معيّنة عن حضور قلبيّ وحصلت لكم حال حسنة وانقطاع ، فإنّ تلك الحال الحسنة هي نتيجة هذه الصلاة التي ينفتح فيها القلب فيرده من النفحات الإلهيّة ، ويزداد خلالها ارتباط العبد مع خالقه عزّ وجلّ . وهذا هو الرزق الذي منّ الله عليه به .

ولقد قال عزّ وجلّ بأنّه سيرزق الناس حسب أعمالهم وحسبما يشاؤون ، فلو باع امرؤ خمراً وحصل على مالٍ صرفه في معيشته ، فإنّه سيكون قد حصل على رزقه من ذلك السبيل ، ولو باع بدلاً من الخمر شراباً حلواً ومرطّبات ، فإنّه سيكون قد حصل على رزقه عن طريق الحلال .

١ـ «نهج البلاغة» الحكمة ٣٠٠ ؛ وفي طبعة مصر ، مطبعة عيسى البابي الحلبيّ ، تعليق الشيخ محمّد عبده : ج ٢ ، ص ٢٠٨.

وسيكون الرزق الحرام هو ثمرة العمل الحرام ، والرزق الحلال ثمرة العمل الحلال .

إنّنا نجلس الآن في هذا المسجد ونـنعم بـرزق الله الذي يـصلنا مـن خلال المذاكرة المستمرّة بهذه المعارف الإلهيّة وبيان آيات القرآن الكريم والروايات الواردة عن الأئمّة الطاهرين . وهو رزق معنويّ روحانيّ حيث إنّ ورود هذه المطالب على ذهني يمثّل رزقـي ، وورودها عـلى أسـماعكم وقواكم المفكّرة يمثّل رزقكم . ولا اخـتصاص للـرزق بـالرزق المـادّيّ ، ولا انحصار له بالخبز والماء . بل إنّ جميع أنواع المعاني التي ترد على ذهن الإنسان تدعى برزقه الذهنيّ وغذائه النفسيّ .

ولو خضنا في هذا المـجلس فـي الغـيبة والكـذب والحـيلة والمكـر لإهدار حقّ إنسان مـا ؛ ولو انشـغلنا بـالإفساد فـي الأرض ، لكـان ذلك هـو رزقنا ، ولتمثّل رزقنا بالأغذية النفسيّة العفنة الفاسدة والخواطر الشيطانيّة .

ولو زرعنا بذر البطّيخ الحلو ، لأثمر بطّيخاً حلواً ، أمّا لو زرعـنا بـذر الحنظل فسوف لن يثمر إلّا الحنظل .

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَـٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا.[1]

أي أنّنا نعطي مَن يشاء ما يشاء بقدر معيّن ، ولا نبخل فـي عـطائنا ، ودأبُنا هو أن نفيض الرحمة والوجود على أساس نـوايـا النـاس وطـلباتهم وظرفيّاتهم ، فمن شاء الآخرة أعطيناها له ، ومن شاء الدنيا منحناها له ، إلّا

١ ـ الآيات ١٨ إلى ٢٠ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

أنّ لكلٍّ من هذه الرغبات وهذه النعم العاجلة والآجلة جزاءً سيلحق الناس تبعاً لتلك الرغبات والطلبات .

ولو بذرتم في الأرض بذرة تفّاح ، لأنتجت شجرة تفّاح ، ولأثمرت تلك الشجرة تفّاحاً ، على أنّ لكلّ نوع من التفّاح بذر خاصّ ، فهناك التفّاح الأحمر ، والتفّاح الأصفر ، واللبنانيّ ، والخراسانيّ ، وغير ذلك من أنواع التفّاح . ومن المحال أن نبذر بذر التفّاح الأصفر ، فيعطي تفّاحاً أحمراً ؛ أو أن نبذر بذر التفّاح المدعو بتفّاح «گلاب» فيثمر تفّاحاً خراسانيّاً .

كما أنّ من المحال أن يبذر المرء بذر تفّاح ، فيعطي شجرة كمّثرى أو شجرة قرّاصيا أو شجرة مشمش . ومن المحال كذلك أن يبذر المرء بذر اليقطين ، فيعطي باذنجاناً . أو أن يبذر بذر البطّيخ الأحمر فيثمر بطّيخاً أصفراً . وهي سُنّة من سنن الله الثابتة التي لا تتغيّر .

نعم ، يمكن أن ينمو برعم ما على إثر التطعيم بالبراعم ، فينتج من تطعيم برعم شجرة لوز حلو على شجرة لوز مرّ ، لوزٌ حلو ذو مذاق جيّد مقبول . كما يمكن تطعيم برعم شجرة التوت المعروف في «كَن» أو «وَنك»[2] على شجرة التوت «نَرَك» فتثمر توتاً كبيراً حلواً ذا عصارة .

يقول الشاعر المولويّ :

گر تو این انبان ز نان خالی کنی پـر ز گـوهرهای اجـلالی کـنی
طفل جان از شیر شیطان باز کـن بـعد از آنش بـا مَـلك انـباز کـن
تا تو تـاریک و مـلول و تـیره‌ای دانکه با دیـوِ لعـین هـمشیره‌ای[1]

---

١ ـ «ديوان مثنوي» طبعة ميرخاني ، ص ٤٤.

يقول : «إن أنت أخليتَ هذا الجراب من الخبز ، لملأْتَهُ جواهراً كريمة .

افطم طفل الروح عن حليب الشيطان ، ثمّ آنسه بعد ذلك بالمَلَك .

إن كنتَ مظلماً ملولاً مكدّراً ، فاعلم أنّك أخ للشيطان اللعين» .

٢ ـ كَن ـ وَنك ـ مناطق في طهران .

لقمه‌ای کان نـور افـزود و کـمال آن بـود آورده از کسب حـلال
روغـنی کـاید چـراغ مـا کُشـد آب خوانش چون چراغی را کشد
علم و حکمت زاید از لقمهٔ حلال عشق و رقّت زاید از لقمهٔ حلال
تو ز لقمه چون حسد بینی و دام جهل و غفلت زاید آن را دان حرام
هیچ گندم کاری و جـو بَـر دهـد دیده‌ای اسبی که کـرّهٔ خـر دهـد
لقمه تخم است و بَرش اندیشه‌ها لقمه بحر و گـوهرش انـدیشه‌ها
زاید از لقـمهٔ حـلال انـدر دهـان میل خدمت عزم رفتن آن جـهان
زاید از لقمهٔ حلال ای مه حضور در دل پـاک تـو در دیـده نـور[1]

وبطبيعة الحال فإنّ الماهيّات قابلة للترقّي والتكامل ، ويمكن للإنسان أن يوصل بالتعليم والتربية جواهر قـابليّاته المكـنونة إلى مـنصّة الظـهور ، وإيصالها إلى مقام الفعليّة ، إلى أن تصبح بأجمعها فعليّة محضة .

هیچکس از پیش خود چیزی نشد هـیچ آهـن خـنجر تـیزی نشـد
هـیچ حـلوائـیّ نشـد استاد کـار تا که شاگرد شکر ریـزی نشـد[2]

١ـ يقول : «إنّ اللقمة التي تزيد في النور والكمال هي اللقمة التي تأتي مـن الكسب الحلال .

والزيت الذي يطفئ مصباحنا ، عليك أن تدعوه ماءً لا زيتاً .

العلم والحكمة وليدا لقمة الحلال ؛ والحبّ والرقّة وليدا لقمة الحلال .

فإن رأيتَ إثر لقمةٍ ما حسداً ومصيدة للجهل والغفلة ، فاعلم أنّها لقمة حرام .

إذ من المحال أن تزرع حنطةً فتثمر شعيراً ، أفرأيت حصاناً يلد جحشاً ؟!

اللقمة بذرة ، والأفكار ثمارها . واللقمة بحر والأفكار جواهره ولآلئه .

فما تلده لقمة الحلال في الفم ، الرغبة في الخدمة والعزم على الذهاب إلى ذلك العالم .

وما يولد من لقمة الحلال ـ أيّها القـمر ـ الحـضور فـي قـلبك الطـاهر ، والنـور فـي بصيرتك» .

٢ـ يقول : «ليس هناك شيء حصل من تلقاء نفسه . و ليس من حديد صار بنفسه ⇦

إنّ الله سبحانه يمنح القوابل الإمكانيّة قوّة وقدرة ، ويهب الوجود والرحمة ، ويمنّ بالفيض والعطاء . فالله عزّ وجلّ يقوّي نيّة كلّ شخص وينمّيها ، وهو الممدّ والمقوّي . فإن أنت توجّهت إلى المعصية وجعلتَ قلبك مظلماً مدلهمّاً ، أمدّ الله ذلك وقوّاه . وإن سعيتَ إلى الطاعة وأنرت قلبك ، أمدّ الله ذلك وقوّاه . فهو سبحانه يعطي الشخص كلّ ما يسعى إليه ويطلبه .

كُلًّا نُمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ .

نحن نمدّ الجميع بالقوّة والقدرة والعلم والحياة من جانبنا فحسب ، ونفيض بعطائنا بلا بُخل على عالم الوجود والماهيّات بالإمكانيّة ، ونرسل أمطار الرحمة التي لا حدّ لها ، فتستمدّ كلّ أرض من ذلك المطر بقدر سعتها وظرفيّتها ، وتسيل الوديان بالماء كلّاً بحسب سعته . ولو أمسكنا إناءً بلّوريّاً نظيفاً تحت ذلك الماء ، لانصبّ فيه الماء الطاهر الزلال . أمّا لو أمسكنا إناءً ملوّثاً متّسخاً متعفّناً تحت ذلك الماء ، لاتّسخ ذلك الماء الطاهر وتعفّن في ذلك الإناء . وليس الذنب ذنب الماء ، بل ذنب الإناء . الذنب ذنب النيّة ، وذنب النفس الأمّارة الطاغية .

باران كه در لطافت طبعش خلاف نيست

در باغ لاله رويد و در شوره‌زار خس[1]

وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا.

⇐ خنجراً حادّاً.

وليس من حلوانيّ صار ماهراً في فنّه ، ما لم يصبح أوّلاً مستخدماً في صناعة الحلوى».

١ـ يقول : «إنّ المطر الذي لا خلافَ في لطافة طبعه ، يُنمي في البستان شقائق النعمان ، و في الأرض السبخة الأشواك الهزيلة».

إنّ نور الشمس الوضّاء يصل إلى البلّور الشفّاف المتلألئ وإلى المصابيح البلّوريّة الوضّاءة ، فيكون مضيئاً نورانيّاً . أمّا حين يعبر خلال الأواني السوداء المظلمة فإنّه يبدو أسوداً داكناً مظلماً . وإذا سقط على الزجاج الأسود المعتم بدا أسوداً معتماً . فلجج النور تأتي من السماء طاهرة ، لكنّها تبدو في الأوعية المختلفة بجلوات مختلفة . والاختيار لدى البشر أشبه بالأواني النظيفة والملوّثة ، يحتوي على أمظار فيض رحمة الحقّ فيحتفظ بها طاهرة أو يجعلها ملوّثة . ولهذه الجهة تلتقي الطاعات والمعاصي في عالم البشريّة مع بعضها في الظهور ، وينشأ الإحسان والإساءة والحُسن والقبح ، إذ يعيش الإنسان في الدنيا مختاراً إلى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة .

وهذا الاختيار الذي لا شكّ فيه هو الذي يجعل الإنسان من أصحاب الجنّة أو من أصحاب النار . ولولا الاختيار لماكان من حسن وقبح ، ولا من جنّة ونار ، ولا من ثواب وعقاب .

لقد كان سيّد الشهداء مختاراً ، وكان الشمر مختاراً بدوره ، والفعل في كلا الصورتين فعلٌ من جانب الحقّ تعالى ، إلّا أنّ له في ظرفي النيّتينِ والاختيارينِ والإرادتين المختلفتين جلوتين متباينتينِ .

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ.[1]

أي أنّ إضلال الله تعالى يكون بعد إتمام الحجّة ، اذ ستكون البيّنة والبرهان قد أُقيما على الناس في تلك الحال ، وسيكون سبيل السعادة قد اتّضح لهم ، إلّا أنّهم نكصوا عن السبيل بسوء اختيارهم وبنواياهم الملوّثة ، فاختاروا سبيل الانحراف . وفي الحقيقة فإنّ رغباتهم النفسيّة هي التي

١ـ الآية ١١٥ ، من السورة ٩ : التوبة .

تحقّقت وتجسّدت وارتدت رداء العمل .

يُضِلُّ بِهِۦ(أي بالأمثلة التي يضربها في القرآن) كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ .[١]

قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ .[٢]

كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ .[٣]

فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ .[٤]

ويتّضح ـ بناءً على ما ذكرنا ـ أنّ كلّاً من الهداية والإضلال بِيَدِ الله تعالى ، إلّا أنّه لا يضلّ أحداً جبراً بلا سبب ، ولا يُضلّ أحداً دون لحاظ لاختياره ونيّته السيّئين . بل إنّ إضلال الله هو عبارة عن النمو والرشد الذي يمنحه لنواياهم وإراداتهم ، فيُلبِس تلك الإرادات والاختيارات أردية الوجود والتحقّق .

كما يتضّح من خلال تقييد هذه الآيات المذكورة ، أنّ الآية الواردة في سورة إبراهيم آية مقيّدة بإرادة الذنب والخيانة ، وأنّه ينبغي تقييد إطلاق هذه الآية والآيات المطلقة المشابهة .

فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .[٥]

إنّ الله تعالى ينمّي العمل الذي يقوم به الإنسان أو النيّة على القيام بذلك العمل :

كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ

١ـ الآية ٢٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ٢٧ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٣ـ الآية ٣٤ ، من السورة ٤٠ : غافر .

٤ـ الآية ٥ ، من السورة ٦١ : الصف .

٥ـ الآية ٤ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

لِمَن يَشَآءُ.[١]

وعلى أثر إنماء الحنطة ، فإنّ سنابلها ستعطي حبوباً وافرة وكبيرة من الحنطة ، إلّا أنّها لا تعطي عدساًولا أرزّاً أبداً .

وكذلك ـإذاً ـ تترتّب هذه النتائج والآثار على الأعمال ، ويمكننا أن نعبّر عنها بالرزق ،كما يمكننا أن نعبّر عنها بالحساب والجزاء . وهذه الآثار هي رزق وهي حساب ، وكلاهما شيء واحد . فالعمل الأوّل يدعى حساباً بلحاظ استحقاقه ذلك وبلحاظ اقتضائه ذلك ،كما أنّه يدعى رزقاً بلحاظ استعانته به في إدامة وجوده .

إنّ غيوم فيض رحمة الله تعالى تستمدّ الماء من البحار الواسعة ومن محيط الوجود المنبسط على الكائنات ، فتهطل على عالم الإمكان بقطرات المطر المتلاحقة التي لا تتوقف لحظة . وكلّ قطرة تهطل تتبعها أُخرى تمدّها وتحفظ حياتها وتديم وجودها . فالقطرة الثانية ـ إذاً ـ هي كالرزق بالنسبة إلى القطرة الأُولى .كما أنّها كالحساب بلحاظ استحقاقها واقتضائها .

إنّ النتائج المترتّبة على جميع ما نفعله ـ نحن الجالسون في هذا المكان ـ تمثّل رزقنا باعتبار أنّها تسبب بقاء وجودنا وثباته ،كما أنّها تمثّل حسابنا بلحاظ كونها نتائج أعمالنا . فتأملوا مدى الارتباط الدقيق بين الرزق والحساب ، إلى الحدّ الذي يمكن القول معه بأنّ حقيقتيّ الرزق والحساب ليستا إلّا شيئاً واحداً يدعى رزقاً وحساباً باعتبارين مختلفين .

وبذكر هذه المطالب يتّضح جيّداً معنى مقولة «إنّ الله سريع الحساب» ، لأنّ جميع الأُمور ـ ومن بينها أعمال الإنسان ـ ليست منفكّة ولا منفصلة عن الحساب ، بحيث إنّ آثار الأعمال تترتّب عليها بمجرّد

١ـ الآية ٢٦١ ، من السورة ٢ : البقرة .

تحقّق تلك الأعمال في الخارج دون أدنى انفكاك . فالحساب ـ إذاً ـ ملازم للعمل وتابع له دون أدنى انفكاك أو انفصال . وقد جاء في القرآن الكريم :

وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ.[1]

كما جاء : أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ.[2]

وعلى الرغم من أنّ الحكم مختصّ بذات الحقّ تعالى ، وأن ليس مِن حكم في العالم مضادّ لحكمه عزّ وجلّ بحيث يُبطل حكم الله أو يُعيقه أو يُوهنه على نحوٍ من الأنحاء ، فإنّه ليس من معنى للتعويق والتأخير في حكم الله سبحانه ،كما ليس في حكمه صعوبة ولا سهولة .

فإن لوحظ في موضع من المواضع استخدام هذه المعاني ، واستعمال هذه الألفاظ لأداء هذه المعاني ، فإنّ المراد بذلك حصول هذه المعاني في ظرف إدراك وفهم المحاسَبين من المخلوقات وليس في دائرة علم الله .

فقد ورد في القرآن الكريم على سبيل المثال : وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ.[3]

وجاء : فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا.[4]

والسرّ والعلّة في جميع هذه المطالب أنّ علم الحقّ تعالى بجميع الموجودات هو علم حضوريّ يستتبع أن تكون جميع سلسلة الموجودات من العلل والمعلولات حاضرة عند الله عزّ وجلّ :

وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ.[5]

١ـ الآية ٤١ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٢ـ الآية ٦٢ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٣ـ الآية ٢١ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٤ـ الآية ٨ ، من السورة ٦٥ : الطلاق .

٥ـ الآية ٦٧ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

وجميع سلسلة الأسباب والمسبّبات مرتبطة بمسبب الأسباب ، والأسباب بأجمعها كائنة بتسبيب الذات القدسيّة للحقّ تعالى ، وجميع الموجودات مع آثارها من الرزق والحساب ماثلة في مُلكه وحاضرة عنده ، سواءً في ذلك الكبير والصغير ، لأنّ الكبير والصغير والقويّ والضعيف إنّما هي اعتبارات تخصّنا نحن ذوي القدرة المحدودة . القدرة التي تجعل نهوضنا بحمل من عدّة كيلو غرامات أمراً يسيراً ، وتجعل نهوضنا بحمل ثقيل أمراً عسيراً . وتجعل حلّ مسألة حسابيّة للعمليّات الحسابيّة الأربع أمراً يسيراً ، في الوقت الذي تجعل حلّ مسائل الرياضيّات العميقة والمعادلات الجبريّة المعقّدة أمراً عسيراً ؛ وتجعل أمر عدّ الأفراد الموجودين في المسجد أمراً ميسوراً ، وعدّ سكّان الكرة الأرضيّة أمراً شاقّاً متعسّراً . فهذه الصعوبة وهذا اليسر من مختصّاتنا نحن ذوي العلم المحدود . وأنّى لنا العلم ؟ وكم لنا من العلم ؟ إنّنا غارقون في الجهل ومغمورون فيه ، ومن المخجل حقّاً أن ننسب إلى أنفسنا علماً ، أو أن ندعو أنفسنا بالعلماء بعدما بيّن الله تعالى أمرنا ، حيث قال :

وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.[1]

ولقد أورد لفظ «القليل» لإسعادنا بأن نقول : إنّ لدينا علماً قليلاً . وأيّ قليل يا ترى ؟ إنّنا لو جمعنا كلّ علومنا وكدّسناها على بعضها لكانت مقابل علم الحقّ تعالى أقلّ من القطرة إلى المحيط ، وأقلّ من الذرّة إلى الشمس المتحرّكة في عنان السماء ؛ أقلّ بما لا يتناهى . فكيف يصدق علينا عنوان العلم القليل ؟

ومن هنا فإنّ القلّة والكثرة ، والشدّة والضعف ، والكبر والصغر

١ـ الآية ٨٥، من السورة ١٧ : الإسراء .

بشكل عامّ هي عناوين نسبيّة واعتباريّة لنا نحن الموجودات المحدودة المقيّدة والمتعيّنة بالماهيّات الإمكانيّة ، وليس لله تعالى الذي ماهيّته عين وجوده وإنّيّته ؛ **سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**.

إنّنا موجودات مادّيّة وطبعيّة ننام ونصحو ، أمّا الله سبحانه فليس له نوم ،كما لا يصدق عليه لفظ اليقظة . لأنّه عزّ وجلّ ليس له يقظة مقابل النوم والسِّنة ، بل هو يقظ بمعنى عالم ، لا اليقظ مقابل النائم .

وبناء على هذا الأساس فليس من أسماء الحقّ تعالى اسم اليقظ ، ولم يرد أنّ أحد أسمائه عزّ وجلّ اسم **اليقظان** أو **المستيقظ** .

إنّ الله تعالى لا تأخذه سِنة ليكون من ثَمّ مستيقظاً ، لأنّ اليَقِظ والمستيقظ هو الصاحي مقابل النائم . والله تعالى له يقظة تلازم وجوده ، لا كمثل يقظتنا .

وإذا كان الأمر على هذه الشاكلة ، فكيف سيحاسب عباده إذاً ؟
سيُحاسبهم حساباً سريعاً .

إنّ من أسماء الله عزّ وجلّ **أسرع الحاسبين** ، فهو يحاسب الإنسان ويضع حسابه نصب عينيه على الفور . وأحد أسمائه تعالى **سريع الحساب**. كما ورد في عدّة مواضع من القرآن الكريم تعبير : **وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ** ، تماماً كسرعته في الرزق ، وكالكيفيّة التي يوصل بها الحقّ رزق كلّ موجود إليه .

الرزق هو إفاضة الحياة الضروريّة لدوام وجود كلّ موجود . ولا اختصاص له بالرزق المادّيّ ، فكلّ ما يصل الإنسان لإدامة وجوده هو رزق لذلك الإنسان . فالحياة والعقل والإدراك والمعاني الكلّيّة النفسانيّة والإعانات الصوريّة للقوى الذهنيّة ، والإعانات للقوى الحسيّة الخارجيّة هي بأجمعها الرزق الذي يأتي من قبل الحقّ تعالى .

ولو انقطع عنّا لحظة واحدة الرزق المادّيّ من التنفس والنور والحرارة لانعدم وجودنا ، كحال ظلمة المصباح الكهربائيّ فيما لو انقطع عنه التيّار الكهربائيّ لحظة واحدة ، الذي تستمرّ إضاءته باستمرار جريان الكهرباء التي تمثّل رزقه ومادّة حياته .

والأمر على هذا النحو بالنسبة إلينا ، إذ لو انقطع الفيض في لحظةٍ ما من جانب الله تعالى إلينا أو إلى أيّ موجود في العالم ، لفني ذلك الموجود وانعدم .

إنّ المصباح الكهربائيّ المضيء لا يمتلك مادّة نورانيّة ثابتة في داخله ، بل إنّ الإلكترونات تعبر باستمرار من السلك الكهربائيّ فتجعل الشعيرات الموجودة في المصباح متوهّجة . وهذا هو رزق المصباح . والطفل الرضيع الذي يطبق فمه على ثدي أُمّه فيرضعه ، تتدفّق في فمه قطرات الحليب باستمرار من فتحات الثدي الصغيرة فيصله رزقه عن هذا الطريق .

وهذا غير جهات الرزق الأُخرى من تنفّس للأُوكسجين ووصول الحرارة ونور الشمس . وبهذا الرزق ينمو الطفل ويكبر ، ويصل الرزق إلى فكره وعقله وحياته وعظامه ومخّه وشرايينه وأوردته وأعصابه ولحمه وشحمه وجلده ، فتقوى وتشتدّ وتستمرّ في الحياة . كما أنّ هذا النفس الذي نتنفّسه هو رزقنا الذي يصلنا باستمرار ؛ وحسب قول الشيخ سعدي الشيرازيّ : «فإنّ كلّ شهيق للمرء يمثّل إدامةً لحياته ، وكلّ زفيرٍ له يمثّل بهجةً لذاته . فهناك ـ إذاً ـ نعمتان في كلّ نَفَس ، ولكلّ نعمة منهما شكر واجب» .

أمّا الإمام الصادق عليه السلام فيقول إنّ في كلّ نفس يتنفّس آلاف النعم . ولو انقطع تنفّس الإنسان لمات . فَنَفَسُهُ هو رزقه . ولولا ضوء

الشمس لمات الإنسان . والأمر كذلك بالنسبة إلى حرارة الجوّ التي تمثّل في اعتدالها رزقاً لنا ، ولو زادت قليلاً أو قلّت قليلاً لانعدم وجود الإنسان . وكذلك بالنسبة إلى عقلنا الذي هو بمثابة رزقنا ، ولو زال عنّا دقيقة واحدة لاعترانا الجنون وصرنا لا نميّز رؤوسنا عن أقدامنا ، ولا أقدامنا عن رؤوسنا . ومع استمرار العقل صرنا نُدعى عقلاءً ، أمّا مع انقطاعه فسندعى مجانين وسيسقط عنّا ـ كالحيوانات ـ شرف التكليف .

إنّ الحياة والقدرة رزق ؛ وإدراك المعارف الإلهيّة رزق ؛ وهي بأجمعها من الرزق المعنويّ . فنفس العالم الذهنيّ الذي منحنا الله تعالى إيّاه هو رزق ، ولو سلب منّا لحظة واحدة لفقدنا جميع المعلومات الحصوليّة التي نشأت لدينا بواسطة المشاهدات الخارجيّة أو بالكلام أو بالكتابة والقراءة منذ طفولتنا إلى سنّنا الحاليّ ، ولضاعت منّا قوانا الحافظة والمفكّرة والواهمة . ولو قُدِّر لي ذلك ـ أنا المنهمك في الحديث الآن ـ لفقدت القدرة على معرفة الأصدقاء ، ولانعدم الكلام من الجانب الآخر ، إذ لن يكون ثمّة شيء ليقال ، ولن نميّز آنذاك مسجداً ولا جداراً ، ولن نميّز اليد اليمنى عن اليسرى ، ولن نفرّق بين الصديق والعدوّ ، ولا بين الطعام والدواء . وسنبقى وحيدين غُرباء في هذا العالم لا ارتباط لنا بأحد ، أي أنّنا لن نمتلك القدرة على الارتباط بأحد .

فَلَكَ الحَمْدُ أَبَداً دَائِماً سَرْمَداً عَلَى نِعَمِكَ وَآلَائِكَ مَا بَقِيَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، حَمْداً لَا يَبِيدُ وَلَا يَفْنَى ، وَصَلِّ عَلَى رَسُولِكَ الأَمِينِ عَلَى وَحْيِكَ وَعَلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَالأَئِمَّةِ مِنْ وُلْدِهِ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرَضِينَ .



المجلس السابع والخمسون



اختلاف طبقات الناس في يسر الحساب



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * (كنايةً عن جانب السعادة والرحمة) **فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ *** (كنايةً عن جانب الشقاء) **فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ * بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا .**[1]

وردت في القرآن الكريم آيات لها دلالة على أنّ الناس ليسوا على حدٍّ سواء في يُسر الحساب أو عُسره ، وأنّ حساب البعض سهل يسير ، بينما حساب البعض الآخر صعب عسير .

فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ .[2]

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ

١ـ الآيات ٧ إلى ١٥ ، من السورة ٨٤ : الانشقاق .

٢ـ الآيات ٨ إلى ١٠ ، من السورة ٧٤ : المدّثّر .

عَسِيرًا.[١]

وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًا.[٢]

فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ (مخاطباً أهل المحشر بسعادة وسرور) هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَـٰبِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * (ثمّ تخاطبهم الملائكة) كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ.[٣]

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا.[٤]

قال الطبرسيّ في «مجمع البيان» ذيل الآية: أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ.[٥]

ذُكر فيه وجوه، أحدها: أنّ معناه سريع المجازاة للعباد على أعمالهم، وأنّ وقت الجزاء قريب، ويجري مجراه قوله: وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ؛[٦] وعبّر عن الجزاء بالحساب، لأنّ الجزاء كفاء للعمل وبمقداره، فهو حساب له، يقال: أَحْسَبَنِي الشَّيءُ: كَفَانِي.

١ـ الآية ٢٦، من السورة ٢٥: الفرقان.
٢ـ الآية ٤٠، من السورة ٧٨: النبأ.
٣ـ الآيات ١٩ إلى ٣٠، من السورة ٦٩: الحاقّة.
٤ـ الآيات ٨ إلى ١٠، من السورة ٦٥: الطلاق.
٥ـ الآية ٢٠٢، من السورة ٢: البقرة.
٦ـ الآية ٧٧، من السورة ١٦: النحل.

وثانيها : أن يكون المراد به أنّه يحاسب أهل الموقف في أوقات يسيرة ، لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره ،كما لا يشغله شأن عن شأن ، وورد في الخبر أنّه تعالى يحاسب جميع الخلائق في مقدار لمح البصر ، وروي بقدر حلب شاة ، وهذا ممّا يدلّ على أنّه ليس بجسم وأنّه لا يحتاج في فعل الكلام إلى آلة ، لأنّه لو كان كذلك لما جاز أن يخاطب اثنين في وقت واحد بمخاطبتين مختلفتين ، ولكان يشغله خطاب بعض الخلق عن خطاب غيره ، ولكانت مدّة محاسبته للخلق على أعمالهم طويلة . وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : معناه أنّه يحاسب الخلق دفعةً كما يرزقهم دفعة .

وثالثها : أنّ معناه أنّه تعالى سريع القبول لدعاء هؤلاء والإجابة لهم من غير احتباس فيه وبحث عن المقدار الذي يستحقّه كلّ داعٍ ،كما يحتبس المخلوقون للإحصاء والاحتساب . ويقرب منه ما روي عن ابن عبّاس أنّه قال : يريد أنّه لا حساب على هؤلاء ، إنّما يعطَون كتبهم بأيمانهم فيقال لهم هذه سيّئاتكم قد تجاوزت بها عنكم ، وهذه حسناتكم قد ضعّفتها لكم .[1]

ويروي المرحوم الصدوق في كتابه «الأمالي» عن سعد ، عن ابن عيسى ، عن الحسين بن سعيد ، عن عليّ بن الحكم ، عن داود بن النعمان ، عن إسحاق ، عن الإمام الصادق عليه السلام قال : إذا كان يوم القيامة وقف عبدان مؤمنان للحساب كلاهما من أهل الجنّة : فقير في الدنيا ، وغنيّ في الدنيا ، فيقول الفقير : يا ربِّ على ما أُوقف ؟ فوعزّتك إنّك لتعلم أنّك لم تولّني ولايةً فأعدل فيها أو أجور ، ولم ترزقني مالاً فأؤدّي منه حقّاً أو أمنع ، ولا كان رزقي يأتيني منها إلّا كفافاً على ما علمتَ وقدّرتَ لي .

١ـ «مجمع البيان» ج ١ ، ص ٢٩٨ ، طبعة صيدا .

فيقول الله جلّ جلاله : صدقَ عبدي خلّوا عنه يدخل الجنّة . ويبقى الآخر حتّى يسيل منه من العرق ما لو شربه أربعون بعيراً لكفاها ، ثمّ يدخل الجنّة . فيقول له الفقير : ما حبسك ؟ فيقول : طول الحساب ؛ ما زال الشيء يجيئني بعد الشيء يغفر لي ، ثمّ أُسأَل عن شيء آخر حتّى تغمّدني الله منه برحمة وألحقني بالتائبين . فمن أنت ؟ فيقول : أنا الفقير الذي كنتُ معك آنفاً ، فيقول : لقد غيّرك النعيم بعدي .[1]

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم القمّيّ في رواية أبي الجارود عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام في تفسير الآية الشريفة : **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ**[2] :

فأمّا الحسنى فالجنّة ، وأمّا الزيادة فالدنيا ، ما أعطاهم الله في الدنيا لم يحاسبهم به في الآخرة ، ويجمع لهم ثواب الدنيا والآخرة ويثيبهم بأحسن أعمالهم في الدنيا والآخرة . يقول الله : **وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**.[3]

قال عليّ بن إبراهيم : القَتَر الجوع والفقر ؛ والذلّة الخوف .[4]

وروى المجلسيّ رضوان الله عليه عن كتابَي الحسين بن سعيد ، عن محمّد بن عيسى ، عن عمر بن إبراهيم بيّاع السابريّ ، عن حجر بن زائدة ، عن رجل ، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال ، قلت له : يابن رسول الله إنّ لي حاجةً . فقال : تلقاني بمكّة . فقلتُ : يا بن رسول الله إنّ لي حاجة .

١ـ «أمالي الصدوق» ص ٢١٦ و ٢١٧ ، الطبعة الحجريّة ؛ كما وردت هذه الرواية في كتاب «عُدّة الداعي» ص ٨٥، الطبعة الحجريّة .

٢ و٣ـ الآية ٢٦ ، من السورة ١٠ : يونس .

٤ـ «تفسير القمّيّ» ص ٢٨٦ و ٢٨٧ الطبعة الحجريّة ؛ وفي الطبعة الحروفيّة : ج ١ ، ص ٣١١.

فقال : تلقاني بمنى . فقلت : يابن رسول الله إنّ لي حاجة . فقال : هاتِ حاجتك ! فقلت : يابن رسول الله إنّي أذنبتُ ذنباً بيني وبين الله لم يطّلع عليه أحد فعظم عَلَيَّ وأجلّك أن استقبلك به . فقال : إنّه إذاكان يوم القيامة وحاسب الله عبده المؤمن أوقفه على ذنوبه ذنباً ذنباً ، ثمّ غفرها له لا يطّلع على ذلك ملكاً مقرّباً ولا نبيّاً مرسلاً .

قال عمر بن إبراهيم (راوي هذه الرواية) : وأخبرني عن غير واحد أنّه قال : ويستر عليه من ذنوبه ما يكره أن يوقفه عليها . قال : ويقول لسيّئاته : كوني حسنات . قال : وذلك قول الله تبارك وتعالى : **أُولَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا.**[1]

ويروي المرحوم الصدوق في كتاب «معاني الأخبار» عن أبيه ، عن سعد بن عبد الله البرقيّ ، عن أبيه ، عن عبد الله بن سنان ، عن أبي الجارود ، عن الإمام أبي جعفر : باقر العلوم عليه السلام ، قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : كُلُّ مُحَاسَبٍ مُعَذَّبٌ ؛ فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ ! فَأَيْنَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ : «فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا».[2]

قَالَ : ذَاكَ العَرْضُ ؛ يَعْنِي التَّصَفُّحَ.[3]

١ـ «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٥٩ و ٢٦٠ ، الطبعة الحروفيّة . والآية هي : الآية ٧٠ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٢ـ الآية ٨ ، من السورة ٨٤ : الانشقاق .

٣ـ «معاني الأخبار» ص ٢٦٢ ، الطبعة الحيدريّة .

وقال سماحة الأُستاذ المعظّم العلّامة الطباطبائيّ في «رسالة المعاد» : هذا حديث يتّفق الفريقان على مضمونه ، ويُجمعان على صحّة صدوره عن رسول الله صلّى الله عليه وآله . («رسالة الإنسان بعد الدنيا» ص ٤٩ ـ مخطوطة) .

ويقول المجلسيّ رضوان الله عليه في بيان هذا الحديث : يعني أنّ الحساب اليسير هو تصفّح أعماله وعرضها على الله أو على صاحبه ، من غير أن يناقش عليها ويؤخذ بكلّ حقير وجليل من غير عفو ، فإنّ مَن فعل الله تعالى ذلك به هلك ، إذ لا يقوم فعل أحد من الخلق بحقٍّ نعم الله عليه ، لا سيّما إذا انضمّ إليها فعل الخطايا والآثام ؛ فالمراد بالحساب في أوّل الخبر المحاسبة على هذا الوجه ،كما هو دأب المحاسبين في الدنيا . ولذا ورد في بعض الأخبار مكانه : نوقش في الحساب . فقد روى الحسين بن مسعود في «شرح السنّة» بإسناده عن البخاريّ ، عن سفيان بن أبي مريم ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن ابن أبي مليكة :

أنّ عائشة زوج النبيّ صلّى الله عليه وآله كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلّا راجعت فيه حتّى تعرفه ، وأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : **مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ** ؛ قالت عائشة ، فقلت : أو ليس يقول الله تعالى : **فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا** ؟ قالت ، فقال : إنّما ذلك العرض : **وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكُ**.[1]

ثمّ يقول الحسين بن مسعود في شرحه : هذا حديث متّفق على صحّته أخرجه مسلم بن أبي بكر بن أبي شيبة وعليّ بن حجر ، عن إسماعيل ابن عليّة ، عن أيّوب ، عن عبد الله بن أبي مليكة .

قوله صلّى الله عليه وآله «من نوقش الحساب يهلك» ؛ المناقشة : الاستقصاء في الحساب حتّى لا يترك منه شيء . يقال : انتقشت منه حقّي أجمع ، ومنه نقش الشوك من الرّجل وهو استخراجه منها ـ انتهى كلام

١ـ وقد نقل البخاريّ هذه الرواية في صحيحه ، ج ١ ، ص ٢٨ طبعة بولاق ، عن سعيد ابن أبي مريم ، عن نافع ، عن عمر ، عن ابن أبي مليكة .

«شرح السنّة» .

ثمّ قال المجلسيّ : وروى مسلم في صحيحه عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال : **مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ عُذِّبَ** . وقال بعض شرّاحه : قال القاضي : قوله : **عُذِّبَ** له معنيان ، أحدهما أنّ نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ . والثاني أنّه يفضي إلى العذاب بالنار . ويؤيّده قوله في الرواية الأُخرى **هَلَكَ** مكان **عُذِّبَ** . هذا كلام القاضي ، وهذا الثاني هو الصحيح ، ومعناه أنّ التقصير غالب في العباد ، فمن استقصي عليه ولم يُسامَح هلك ودخل النار ، ولكنّ الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء ـ انتهى كلام شارح «صحيح مسلم» .

ثمّ يقول المجلسيّ :

يحتمل الخبر الذي رويناه وجهاً آخر وإن كان قريباً ممّا ذُكر ، وهو أنّ هذا النوع من المحاسبة إنّما يكون لمن يستحقّ العذاب الدائم ولا يستوجب الرحمة ، كالمخالفين والنواصب ،[1] فأمّا مَن علم اللهُ أنّه يستحقّ الرحمة فلا يحاسبه على هذا الوجه ، بل على وجه العفو والصفح . ثمّ اعلم أنّ التصفّح هو البحث عن الأمر والنظر فيه ، ولم يأتِ بمعنى الصفح والعفو كما توهّم ها هنا .[2]

وفي تفسير سوء الحساب الذي يخشاه المؤمنون الملتزمون العاملون بالأوامر الإلهيّة ، الذي ورد في الآية الكريمة :

وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ

١ـ النواصب جمع الناصبيّ وهو مُبغض أهل البيت عليهم السلام ومَن ينصب لهم العداوة ويسبّهم .

٢ـ «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٦٣ و ٢٦٤ .

سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ.[1]

وردت في «تفسير العيّاشيّ» وهو من نفائس كتب الشيعة ، روايات خمس لها دلالة على أنّ المراد بسوء الحساب المداقّة والاستقصاء . لذا يخشى المؤمنون أن تُحتسب سيّئاتُهم بأجمعها ولا تُحتسب حسناتهم بسبب عدم قبولها ، فتكون جميع أعمالهم سيّئات .

الرواية الأُولى : عن أبي إسحاق قال : سمعتُ الصادق عليه السلام يَقُولُ فِي سُوءِ الحِسَابِ : لَا يُقْبَلُ حَسَنَاتُهُمْ وَيُؤْخَذُونَ بِسَيِّئَاتِهِم.[2]

الثانية : عن هشام بن سالم ، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام في قوله تعالى : «يَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ» ؛ قَالَ : يُحْسَبُ عَلَيْهِمُ السَّيِّئَاتُ ؛ وَلَا يُحْسَبُ لَهُمُ الحَسَنَاتُ ؛ وَهُوَ الاسْتِقْصَاءُ.[3]

الثالثة : عن هشام بن سالم ، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام في قوله تعالى : «وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ» ؛ قَالَ : الاسْتِقْصَاءُ وَالمُدَاقَّةُ . وَقَالَ : يُحْسَبُ عَلَيْهِمُ السَّيِّئَاتُ وَلَا يُحْسَبُ لَهُمُ الحَسَنَاتُ.[4]

الرابعة : عن حمّاد بن عثمان ، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام ، أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ : يَا فُلَانُ ! مَا لَكَ وَلِأَخِيكَ ؟! قَالَ : جُعِلْتُ فِدَاكَ ، كَانَ لِي عَلَيْهِ حَقٌّ ، فَاسْتَقْصَيْتُ مِنْهُ حَقِّي !

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللهِ : «وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ» ، أَتَرَاهُمْ خَافُوا أَنْ يَجُورَ عَلَيْهِمْ أَوْ يَظْلِمَهُمْ ؟! لَا وَاللهِ ؛ خَافُوا الاسْتِقْصَاءَ وَالمُدَاقَّةَ.[5]

الخامسة : عن محمّد بن عيسى ؛ وبهذا الإسناد أنّ أبا عبد الله

١ـ الآية ٢١ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٢ إلى ٥ـ «تفسير العيّاشيّ» ج ٢ ، ص ٢١٠ .

(الصادق) عليه السلام قَالَ لِرَجُلٍ شَكَاهُ بَعْضُ إِخْوَانِهِ : مَا لِأَخِيكَ فُلَانٍ يَشْكُوكَ ؟

فَقَالَ : أَيَشْكُونِي أَنِ اسْتَقْصَيْتُ حَقِّي ؟!

قَالَ : فَجَلَسَ مُغْضِباً ، ثُمَّ قَالَ : كَأَنَّكَ إِذَا اسْتَقْصَيْتَ لَمْ تُسِيءْ ؟!

أَرَأَيْتَ مَا حَكَى اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : «وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ» ، أَخَافُوا أَنْ يَجُورَ عَلَيْهِمُ اللّهُ ! لَا وَاللّهِ ، مَا خَافُوا إِلَّا الاسْتِقْصَاءَ ، فَسَمَّاهُ اللّهُ سُوءَ الحِسَابِ ؛ فَمَنِ اسْتَقْصَى فَقَدْ أَسَاءَ.[1]

وروى المجلسيّ رضوان الله عليه عن كتابَي الحسين بن سعيد ، عن القاسم ، عن عبد الصمد بن بشير ، عن معاوية : قَالَ :

قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ تُهَوِّنُ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ. ثُمَّ قَرَأَ : «يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ».[2]

ويتّضح ممّا ذكر أن ليس هناك من ظلم ولا حيف في حساب الناس يوم القيامة ، وأن أحداً لن يُحاسَب بعمل غيره .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ.[3]

وأنّ أحداً لا يُحاسَب عبثاً ، ولا يُجازى بأكثر ممّا ارتكب ؛ إلّا أنّ من الممكن أن تكون هناك مداقّة في الحساب فيعامل المرء على أساس العدل . وهذا ـ بطبيعة الحال ـ فيما يتعلّق بالمجرمين والظالمين الذين ينكرون حقوق الفقراء والمستضعفين .كما أنّ من الممكن أن لا يداقّ في الحساب

---

١ و ٢ـ «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٧٣ ، الطبعة الحروفيّة .

٣ـ الآية ١٦٤ ، من السورة ٦ : الأنعام . وقد تكرّرت هذه الآية في خمسة مواضع من القرآن في سور : الأنعام ، الإسراء ، فاطر ، الزمر والنجم.

على أساس من العفو والإغماض ، فيُشمل المؤمن بالرحمة بعد حسابٍ يسير ، ويُصان من طول الوقوف وعواقبه . وهو ما يتعلّق بالمؤمنين الذين بدرت منهم أخطاء عن جهل ، دون أن ينطووا على الاستكبار والعُجب .

إنّ عفو الله لجميع العباد ليس قانوناً حتمياً وعقلياً ، بل إنّ قاعدة العفو بإرادة الله ومشيئته ، فهو يعفو عمّن يشاء ويغفر لمن يستحقّ العفو والمغفرة على أساس الحكمة .كما أنّه يمنع عفوه عمّن يشاء . ويحصل ذلك بالطبع على أساس المصلحة بالنسبة إلى المعتدين والمتجرّئين الذين نفخوا بوق الأنانيّة والاستكبار ، والذين اعترضوا وتمرّدوا على الله سبحانه عن علم وعمد باستكبارهم وأنانيّتهم وتفرعنهم .

وبطبيعة الحال فإنّ العدل يمثّل قانوناً عامّاً قد يعمل الله به ، إلّا أنّه تعالى ليس ملزماً بالعدل في مجازاة عبده وفي عدم شموله برحمته . فالقاعدة والقانون العامّ ـ إذاً ـ هو العدل . أمّا العفو والتسامح فيمثّلان أمراً ثانوياً يخضع لإرادة الحاكم ومشيئته . ومن هنا فإنّ عدم احتساب الحسنات هو ممّا يخالف العدل ، أمّا عدم احتساب السيّئات فأمر يوافق العفو . وإخلاف الوعد ممّا يخالف العدل ، أمّا إخلاف الوعيد فليس خلافاً للعدل ، بل هو أمر ينسجم مع العفو ، ويتعلّق بمشيئة الحاكم واختياره .

ومن هنا فإنّ الله لا يُخلف وعده :

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ.[1]

وما أكثر الوعود التي قطعها عزّ وجلّ للمؤمنين والمحسنين ، مثل قوله تعالى :

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى

---

١ ـ الآية ٩ ، من السورة ٣ : آل عمران .

ٱلْأَرْضِ.[1]

وكالآية : **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**.[2]

وإذا تقرّر أن يكون هناك مبرّر عقليّ لخُلف الوعد ، لافتقدت جميع وعود الله تعالى ضمانَ تحقّقها ، ولن يكون بإمكان أحد الاعتماد عليها . وسيكون الوعد بالجنّة إثر الأعمال الصالحة لغواً بلا فائدة !

إنّ الوفاء بالعهد من جملة الصفات الحسنة ، ونعلم أنّ الصفات الحسنى والأسماء الحسنى هي لله تعالى . أمّا خلاف ذلك ـ أي نقض العهد ـ فأمر قبيح من عمل الشيطان وليس من فعل الله عزّ وجلّ ، والشيطان ذاته يعترف بهذين الأمرين في خطابه للمستكبرين والمستضعفين المقصّرين يوم القيامة قائلاً :

إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ.[3]

ويتبيّن ممّا قيل أنّ المراد بسوء الحساب الوارد في الآية الكريمة ليس عدم احتساب الله تعالى للحسنات ، إذ إنّه عزّ وجلّ وعد المحسنين بالجنّة ، وخُلف الوعد ظلم يجلّ الله تعالى عنه .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.[4]

بل المراد به الاستقصاء ، أي المُساءلة عن الصغائر والمداقّة في الحساب . وهو معنى ما جاء في الأحاديث الأخيرة في تفسير آية : **وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ** ؛ من أنّ تفسيرها أنّ الحسنات لا تُقبل ولا تحتسب بينما

١ـ الآية ٥٥ ، من السورة ٢٤ : النور .

٢ـ الآية ٢٩ ، من السورة ٤٨ : الفتح .

٣ـ الآية ٢٢ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

٤ـ الآية ٤٠ ، من السورة ٤ : النساء .

تحتسب السيّئات ، لأنّه حين صارت هناك مداقّة واستقصاء في الحسنات ، فقد اتّضح أنّها لم تكن حسنات .

إنّ الحسنة هي العمل الذي يفعله المرء قربةً إلى الله تعالى ، خالصاً لوجهه الكريم من غير أن يكون في نيّة المرء غير الله سبحانه ، ودون أن يجعل له شريكاً ، وأن لا يفعل المرء شيئاً تبعاً للنوايا النفسانيّة وعلى أساس الآراء الدنيويّة والمقاصد الاعتباريّة الشهويّة .

وحين تقاس بهذا المعيار حسنات الإنسان التي تبدو في الظاهر حسنات ،كالصلاة والصيام والجهاد والإنفاق وبناء مسجد أو مدرسة أو مستشفى أو جسر وأمثال ذلك ، فقد يكون أكثرها غير خالص للّه تعالى في حقيقة المعنى .

ولهذا فإنّ تلك الحسنات لن تكون حسنات في ميزان القياس الواقعيّ ، مهماكانت عظيمة في الظاهر ، ومهما رفعت اسم صاحبها في هذه الدنيا بالإحسان وجعلته في عداد المُنفقين وأصحاب الخدمات . إلّا أنّ تلك الأعمال لا تمتلك قيمة في حقيقة الحال ، لأنّها لا تُختم بالقُربة ؛ فإذا استقصاها الله وأعمل المداقّة فيها ، ختمها بختم البطلان وأسقطها من درجة الاعتبار .

وحين يتّضح **بالاستقصاء** أنّ الحسنات لم تكن حسنات ، فإنّها سوف لن تحتسب ؛ أمّا سيّئات الإنسان فمن الجليّ أنّهاكانت قبائح وستحتسب عليه بأجمعها .

أمّا خُلف الوعيد فلا ينطوي على إشكال ما . لأنّ الوعيد هو التخويف بالعواقب الوخيمة للأعمال السيّئة ، والتهديد عليها بالعقاب الأليم .

بَيدَ أنّه لا إشكال في أن يعفو الحاكم عن المحكوم ويغفر له جرمه وجنايته ويتغمّده بعفوه ، وهو أمر في يد الحاكم ،كما أنّه ليس مُجبراً في

عفوه هذا، ليكون وعيده وتهديده ـ من ثمّ ـ لغواً، وليعتمد المجرمون والخاطئون على عفوه فيتمادون في غيّهم ويصرّون على جناياتهم.

وعلى هذا الأساس فإنّ الحاكم الحقّ ـ مثل الله تبارك وتعالى ـ يمكنه إذا أوعد المجرمين أن يعذّبهم ويعاقبهم، كما يمكنه أن يعفو عنهم ويرحمهم، إلّا أنّ هذا العفو ليس أمراً ملزماً يمكن للمجرمين الركون إليه والاطمئنان إلى ركنه، ليستمرّوا في جناياتهم وإجرامهم. فقد يعمل الحاكم في خصوص هذا المورد وفقاً للعدل لا العفو، فيعاقب بالعذاب الأليم. ويكفي الإنسان هذا الخوف وعدم الركون واحتمال العذاب والعقاب لردعه عمّا نُهي عنه من السيّئات.

فنفس احتمال العذاب وإمكان تحقّقه ـ إذاً ـ كافٍ لردع العباد عن المنكرات. أمّا القطع بالعذاب والإيقان به فهما أمران غير متحقّقين، لأنّ العذاب بِيَدِ الله تعالى وليس بإرادة العبد. ناهيك عن أنّهما يستدعيان اليأس والقنوط من رحمة الله. واليأس من رحمة الله كبائر الذنوب.

ويمثّل هذا البحث الذي سقناه هنا قاعدة وقانوناً عقليّاً يتعارف عليه العقلاء. فإنّ عدم احتساب الحسنات وخُلف الوعد من قبل أيّ حاكم في محاكم الدنيا أمر غير صحيح يعدّ مخالفاً لشؤون الحقّ والكرامة. أمّا التغاضي عن السيّئات وخُلف الوعيد فأمر صحيح يوجب في أكثر الأحيان كرامة السلطان والحاكم المقتدر. ويكفي احتمال الابتلاء بوعيد المحاكم والقوانين رادعاً للناس عن المخالفات.

إطالة موقف الحساب للمجرمين

وينبغي أن نرى الآن السبب الذي يجعل الموقف طويلاً ممتدّاً بالنسبة إلى بعض الناس، بينما لا يجعله كذلك بالنسبة إلى البعض، والذي

يجعل البعض الآخر لا يحسّون أبداً بطول الموقف !

إنّ عروج الملائكة والروح إلى الله تعالى يستغرق خمسين ألف سنة : **تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** .[1]

وهو ما يعادل خمسين سنة ربوبيّة : **وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** .[2]

وعموماً ، فهل يتفاوت إدراك طيّ هذه الحقائق أم لا ؟

يلزمنا ـ إيضاحاً لهذا المطلب ـ أن نعلم أوّلاً ما هو الزمان ، ثمّ نبحث في أمر امتداد الزمان وعدم امتداده .

لقد وضع الفلاسفة والحكماء معانٍ مختلفة للزمان . ونقل الشيخ الرئيس **ابن سينا** في الطبيعيّات من «الشفاء» أقوالاً مختلفة للفلاسفة في حقيقة الزمان . فقد افترض بعضهم الزمان مجرّداً ، وأنّه ينشأ من حركة الحوادث في عالم الطبيعة . بينما أظهر بعض الحكماء عجزهم عن فهم حقيقة الزمان . وقال بعضهم بوجودٍ حقيقيّ له . وهؤلاء ـ بدورهم ـ ذوو نظريّات متفاوتة ، فبعضهم عدّ الزمان مبدءاً واجباً للعالم ؛ وتصوّر البعض أنّ الزمان يمثّل جوهراً جسمانيّاً ؛ واعتبر **أفلاطون** أنّ الزمان جوهر مستقلّ منفصل عن الجسم ؛ واعتبر **أرسطو** أنّ الزمان هو مقدار الحركة . وعلى هذا الأساس فإنّ الكثير يعتبر الحركة الدوريّة السنويّة واليوميّة الحاصلة في هذا العالم منشأً للزمان .

ثمّ أعقب ابن سينا **أبو البركات البغداديّ** المتوفّى سنة ٥٤٧ هجريّة ، فاعتبر الزمان مقداراً للوجود ، وعدّ زمن كلّ حادث معادلاً لمقدار وجود

١ـ الآية ٤ ، من السورة ٧٠ : المعارج .

٢ـ الآية ٤٧ ، من السورة ٢٢ : الحجّ .

ذلك الحادث .

بَيدَ أنّ بعض الفلاسفة تصوّروا أنّ الزمان يمثّل أمراً نسبيّاً ، وعدّوه نسبةً تحصل من قياس شيئين إلى بعضهما . وعلى هذا الأساس فإنّ الزمن سيختلف تبعاً للأشياء المختلفة التي تُقارن ببعضها .

وقد اعتبر فخر الفلاسفة صدر **المتألّهين** الزمن مقدار الحركة في جوهر الموجودات ويقصد بالموجودات موجودات عالم الطبيعة ؛ فيقول بأنّ الزمان عبارة عن أمرٍ واحد ممتدّ متّصل متدرّج طوليّاً ، يتقدّم بعضه على البعض الآخر . ولأنّ الزمان يمثّل كمّيّة متّصلة تدريجيّة ، فلابدّ أن يكون منشأ انتزاع الزمان حركة دائمة متّصلة .

ولأنّنا نشاهد بالوجدان أنّ الحركة تقع في مقولات أربع ، هي **الكم والكيف والأين والوضع** ، وأنّ هذه المقولات عرضيّة وغير مستقلّة ، بل تابعة للجوهر ، فلابدّ ـ إذاً ـ أن يكون للجوهر حركة في ذاته ، وأن تكون الحركة في هذه المقولات ناشئة تبعاً للحركة الجوهريّة .

لقد كان القدماء يعتقدون بأنّ الحركة عبارة عن تغيير تدريجيّ يحصل في شيء ما ، ولم يكونوا يعمّمون هذه الحركة على جميع عالم الطبع الذي كانوا يعتقدون بعدم وجود حركة في جوهره . فكان أرسطو يعتقد في نظريّته بأنّ الحركة الدوريّة التي تسبب نشوء الليل والنهار هي التي تسبب نشوء الزمان . فالعامل المؤثّر في الزمان في نظره هو وجود الأفلاك ، وعلى الأخصّ فَلَك الأطلس أو فَلَك الأفلاك .

وكان القدماء يعتقدون أنّ الفلك في حال حركة دائمة ، وكانوا ينتزعون الزمان من دوران الفَلَك حول الأرض . أمّا اليوم فقد صار بطلان أساس وجود الفلك ودورانه أمراً من البديهيّات . فكيف يمكن أن تكون حركة الفلك الدوريّة منشأً لانتزاع الزمان يا ترى ؟

ولو فرضنا ـ إضافة إلى ذلك ـ أنّ الفلك توقّف عن الحركة ، أفهل سينعدم التقدّم والتأخّر بين الحوادث والموجودات في هذا العالم ؟

أي أنّه لو فُرض أنّ شخصاً ماكان في حال كتابةٍ أو ركض ، ثمّ توقّف الفَلَك ، فهل ستقع الكلمات التي يكتبها الكاتب تدريجيّاً بأجمعها دفعةً واحدة ؟ وهل ستجتمع خطوات الراكض العديدة المتلاحقة ، فتقع بأجمعها دفعةً واحدة ؟

من البديهيّ أنّ هذا الاحتمال بعيد عن الصواب . بَيدَ أنّنا لو قلنا بأنّ هذه الأُمور ستقع متلاحقة الواحد تلو الآخر ، وإنّ هناك تقدّماً وتأخّراً بينها ، فإنّ ذلك سيستدعي أن يكون نفس الامتداد الطوليّ التدريجيّ الذي يسبّب تقدّم الكلمات والخطوات أو تأخّرها هو الزمان ، مع افتراضنا أنّ الفلك قد توقف عن حركته .

وبطبيعة الحال فقدكان القدماء يقولون ـ تهرّباً من هذا الإشكال ـ بأنّ ما هو موجود في عالم الطبيعة إنّما هو معلول لحركة الفلك . ولو توقفت حركة الفلك لتوقّف معها عن الحركة شريان قلب عالم الطبيعة النابض ، ولأُصيب بدن عالم الطبيعة بالشلل ، ولتوقّف كلّ شيء وسكن ، وسيموت العالم بسكونه وتوقّفه ، لأنّ الحياة مرهونة بالحركة .

وإذا افترضنا بأنّ الفلك سكن وتوقّف ، فإنّ العالَم سينتفي وينعدم ، ولن يمكن ـ بعد فناء العالم ـ افتراض تقدّم أو تأخّر للحوادث والموجودات أو حدوثها في نفس الزمان .

وينبغي العلم بأنّ مقولة العلماء بأنّ حياة عالَم الطبيعة مرهونة بحركته مقولة صائبة ومتينة . إلّا أنّهم سلكوا سبيلاً مخطئاً في تعليل هذه الحركة بدوران فَلَك الأفلاك حول الأرض .

ولقد قام الفيلسوف الإسلاميّ صدر المتألّهين الشيرازيّ من خلال

التحقيق في جوهر عالم الطبيعة وأعراضه ، وعن طريق استحالة الحركة في الأعراض بدون الحركة في الجوهر ، بإثبات أنّ الحركة هي جوهر العالم ، وأنّ جميع التغييرات والحركة في الأعراض تابعة من الحركة في جوهر الأشياء . وأنّ هناك أمراً واحداً مستمرّاً سيّالاً في عالم الطبيعة . ومن هنا فإنّ الزمان يُنتزع من هذه الحركة الجوهريّة . وبناءً على ما قيل . فإنّ الزمان لدى صدر المتألّهين هو مقدار الحركة في الجوهر .

كانت هذه خلاصة نظريّة صدر المتألّهين في الحركة الجوهريّة وانتزاع الزمان . ويمكن تلخيص أساس نظريّته كالتالي :

إنّ جوهر عالم الطبيعة في حالة حركة وتغيّر وتجدّد مستمرّ؛ وإنّ الزمان هو المشخّص لمقدار هذا التغيّر ؛ وأنّ حركة العرض تابعة لحركة الجوهر.

ثمّ إنّ المرحوم صدر المتألّهين بعد إثبات نظريّته قد استنتج منها عدّة نتائج تتفرّع بأجمعها عن الحركة الجوهريّة :

النتيجة الأولى : **الحدوث الزمنيّ للعالم** . فقد كان الفلاسفة يقولون إنّ للزمان حدوث ذاتيّ لا يتنافى مع القِدَم الزمنيّ . أمّا على أساس الحركة الجوهريّة ، فإنّ عالم الطبيعة في حدوث وتجدّد مستمرّين في ذاته وكينونيّته . وإنّ افتراض جوهر لهذا العالم دونما حركة أمر محال . لذا فمن المحال افتراض جوهر لهذا العالم بلا زمان يمثّل الوجود بعد العدم . فجوهر هذا العالم ـ إذاً ـ مقترن مع الحركة ومع مشخّص الحركة (وهو الزمان) .

وعلى هذا الأساس ، وباعتبار أنّ الحركة هي الوجود بعد العدم ، فإنّ جوهر الطبيعة مقترن مع الزمان الذي هو الوجود بعد العدم ؛ وليس الحدوث شيئاً غير الوجود بعد العدم .

الثانية : **جسمانيّة أساس النفس** . أي أنّ النفوس الإنسانيّة الناطقة

كانت بأجمعها جسمانيّة في الوهلة الأُولى ، ثمّ طوت مراتب الكمال الواحدة بعد الأُخرى بواسطة الحركة في جوهرها . ثمّ إنّها ـ على افتراض ثبوت الماهيّة وعدم تغيّرها ـ تحرّكت في المراحل الوجوديّة حتّى بلغت مرحلة التجرّد الروحيّ وأثبتت أنّ :

النَّفْسَ جِسْمَانِيَّةُ الحُدُوثِ رُوحَانِيَّةُ البَقَاءِ.

وقد أوردنا في بعض الأبحاث السابقة أنّ هذا المطلب مؤيّد بالآيات القرآنيّة الصريحة : وأنّ تركيب الإنسان من شيئين مختلفين (أي من عالَمَي النفس والبدن) أمر يخالف وجدان الإنسان ووحدته وتشخّصه ، ويخالف ـ من جهة أُخرى ـ صريح الآيات الإلهيّة وسير الإنسان التكامليّ في مراحله الوجوديّة .

الثالثة : **مسألة المعاد الجسمانيّ** ؛ فقد كان الفلاسفة القدماء يقولون بالمعاد الروحيّ فقط باعتبار أنّهم أثبتوا ببراهينهم أمر تجرّد النفس فقط ، بينما عجزوا عن إثبات المعاد الجسمانيّ بالدليل العقليّ . أمّا المرحوم صدر المتألّهين فقد كان يعتبر الجسم والنفس والروح مراتب مختلفة من حقيقة واحدة للإنسان ، واستنتج ـ تبعاً لذلك ـ أمر المعاد الجسمانيّ من خلال إثبات الحركة في جوهر الإنسان .

الرابعة : **تعريف الزمان وتعيينه وموقعه** : نظراً لأنّ أصل جوهر العالم في حركة ، فإنّ الزمان هو مقدار حركة جوهر الطبيعة ومعيار قياسه .

الخامسة : **ربط المتغيّر بالحادث.**

فقد كان الفلاسفة القدماء مجبرين على افتراض فرضيّات معيّنة لربط موجودات عالم الطبع بالحضرة الأحديّة ، ووصف كيفيّة الارتباط بعلّة العلل والعلّة الأُولى التي تمثّل مصدر جميع الموجودات . وأشهر تلك الفرضيّات فرضيّة النفوس الفلكيّة والعقول العشرة ، فكانوا يشخّصون طريق نشوء

الكثرات في هذا العالم ، ويجيبون على إشكال عدم إمكان صدور الكثرة من الواحد من جميع الجهات متوسّلين بنزول علّة العلل إلى العقل الأوّل ، ومن هناك إلى سائر العقول وإلى نفوس الأفلاك وصولاً إلى العقل العاشر ونفس فلك القمر ونفس عالم الطبع .

أمّا صدر المتألّهين فكان ـ بإثباته الحركة الجوهريّة ـ يرى نفسه في غنى عن هذه الفرضيّة ، لأنّ جميع الكائنات تمتلك في نظره جانبين : جانب سيّال ومتجدّد ومتغيّر يمثّل الوجود المادّيّ والطبعيّ لتلك الكائنات ؛ وجانب ثابت مستقرّ يمثّل وجودها الملكوتيّ الذي يربط جميع الموجودات بالحقّ الأوّل على نحو المُثل الأفلاطونيّة .

وليس في الجانب الملكوتيّ ثمّة حركة أو تغيّر ؛ فما يحفظ الوجود المتغيّر لعالم الطبيعة وجوده الثابت الملكوتيّ الذي له نسبة إلى عالم الطبيعة كنسبة الروح إلى البدن .

ولجوهر الأشياء جانبان وصورتان ؛ فهو متغيّر من جهة ، وثابت من الجهة الأُخرى . والمرتبة الثابتة التي تمثّل الدرجة الشديدة لوجودها صادرة من المبدأ الإلهيّ ، أمّا المرتبة المتغيّرة المتجدّدة ـ وهي الدرجة الضعيفة لوجودها ـ فهي مبدأ جميع الحركات والتغيّرات المادّيّة . والجانب الضعيف المتغيّر خاضع للجانب القويّ الثابت .

هذا وقد شكّلت الجهة المتغيّرة الضعيفة عالم الكثرة والمادّة والجسم والمُلك والعيان . أمّا الجهة الثابتة الراسخة فشكّلت عالم الوحدة والنفس والمعنى والملكوت والباطن ، ذلك العالم المرتبط باستمرار بالله تعالى ، بل إنّه ليس إلّا الارتباط المحض الخالص .

هذه خلاصة كلام هذا الحكيم المتألّه ، الذي أورده مفصّلاً في مبحثَي الحركة والنفس في طبيعيّات «الأسفار» ، كما ذكره في بعض كتبه الأُخرى .

وتبعاً لهذه المقولة فإنّ الزمان مختصّ بعالم الطبع والصورة ، ويمثّل التغيّر والحركة والتجدّد . أمّا في عالم الثوابت فليس هناك ثـمّة زمـان ، أي أنّ الزمان ـ بعبارة أُخرى ـ مختصّ بالجهة المُلكيّة المتغيّرة لهذا العالم ، أمّا الجهة الملكوتيّة (الملكوت الأعلى) حيث تنعدم الحركة ، فليس للزمان من معنى فيها ، لأنّ الزمان هو المشخّص لمقدار الحركة ، وحيث تنعدم الحركة ينعدم الزمان .

وإذ اتّضحت هذه المقدّمة فنقول بأنّ نفس الإنسان الناطقة ترتقي إثر الحركة الجوهريّة من عالم الجسم والطبع والزمـان . وحـين تـبلغ مـرحـلة التجرّد فإنّ التدرّج والتجدّد والتغيّر ستفقد مفهومها آنذاك ، وستحيط نفس الإنسان بالجسم والحركة والزمان وعالم المُلك .

ويمكن ـ بناءً على هذا ـ أن تمرّ السنوات العديدة ، بل آلاف السنين وملايينها دون أن تدرك النفس تغيّراً ما . وستشاهد نفسها على الدوام ثابتة في عالم الثوابت . خلافاً للأفراد الذين لم يـبلغوا مـرحـلة الـتجرّد الـنـفسيّ ؛ والذين يعيشون في عالم الحركة والتـدرّج ويـجدون ذواتـهم ـ مـن خـلال الحركة الجوهريّة لهذا العالم ـ وهي متحرّكة باعتبارها جزءاً من جوهر هذا العالم ، كما أنّهم يدركون جيّداً مقدار الزمان الذي يـمثّل المشـخّص لهـذه الحركة .

إلّا أنّ هـناك مسألة جـديرة بـالالتفات فـي هـذا المـجال ، وهـي أنّ حصول التجرّد هو أمر نسبيّ يحصل للانسان تدريجيّاً . ويمكـن ـ والحـال هذه ـ أن يبلغ امرؤ ما بنفسه إلى الكمال الصوريّ والبـرزخـيّ إثـر الحـركة الجوهريّة في ذاته ، إلّا أنّه ـ مع ذلك كلّه ـ لم يبلغ بعدُ مرحلة التجرّد النفسيّ والروحيّ ، بل إنّه قد بلغ مرحلة الكمال النسبيّ لا التجرّد المطلق . ومثل هذا الشخص سيدرك الزمان ليس على نحو إدراك الناس العاديّين ، بل على نحوٍ

أسرع زوالاً وانقضاءً .

والكثير ممّن هم على وشك العبور من عالم المثال والبرزخ إلى عالم النفس يدركون مرور الزمان بصورة إجماليّة ، إلّا أنّه مرور سريع .

ونشاهد لهذا المطلب أمثلة كثيرة في عالمنا الحاضر :

١ ـ أنّ الإنسان ينام فيحسّ بحركة الزمان وتدرّجه وكأنّها أسرع من السابق . والغالبيّة من الناس لا يحسّون خلال نومهم بقدر الساعات التي تمرّ عليهم في نومهم . وكثيراً ما يحصل أن يتطلّعون إلى الساعة أو إلى ظلّ الشمس ليشخّصوا مدّة نومهم .

٢ ـ أنّ الإنسان يُغمى عليه فيتوقّف تبعاً لذلك إدراك حواسّه لانقضاء الزمان ، فيعجز في النتيجة عن معرفة المدّة التي فقد خلالها وعيه . وقد تمرّ الأيّام أو الشهور وهو فاقد وعيه . وقد حصل للبعض أن مرّت عليه سنوات دون أن يعود إلى وعيه . ومثل هذا الشخص المغمى عليه لا يحسّ بمرور الزمان ولو بقدر دقيقة واحدة .

٣ ـ أنّ الأطفال الذين يولدون حديثاً يبقون مدّة دونما إحساس بمرور الزمان ، لأنّ مشاعرهم بالنسبة إلى إدراكات عالم الكثرة لا تزال في حالة سبات .

٤ ـ وكثيراً ما يحصل أن ينغمر بعض الأفراد في سرور وبهجة شديدين ، وينغمسون في عالم من اللذة والسعادة بحيث يفقدون الإحساس بمرور الزمان . كما يحصل كثيراً أن تتنزّل مشاعر أفراد آخرين من شدّة الألم والحزن عن إدراك كثرات هذا العالم ، فينعدم ـ أو يضعف ـ إحساسهم بمرور الزمان .

٥ ـ أنّ هناك أفراداً مثل أنبياء الله تعالى الذين يُوحى إليهم لا يدركون مرور الزمان في حالات الوحي الخاصّة .

٦ ـ أنّ النفس إذا التفتت إلى شيء تمام الالتفات بحيث إنّها تغفل عمّا سوى ذلك الشيء ، فإنّها لن تدرك مرور الزمان وانقضاءه . فأولياء الله تعالى الذين ينهمكون بمناجاة الله تعالى والتضرّع إليه ؛ والأشخاص الذين ينشغلون باكتشافٍ ما ، يتوغّلون في ذلك المطلب بحيث يحصل لهم انصراف عن عالم الطبيعة .

ومن الأُمور التي يمكن عدّها من هذا القبيل الموت الإراديّ والتنويم المغناطيسيّ ـ ولو كان أمراً غير مشروع ـ وطيّ الزمان ـ وإنّ صحّت حقيقته ـ لأنّ أمرالطيّ في زمن قصير هو أمر مشهور ومعروف عند أولياء الله والأئمّة الطاهرين عليهم السلام . ومثاله ما حصل لأمير المؤمنين عليه السلام حين حضر من المدينة إلى المدائن قرب بغداد ليلةَ ارتحال سلمان الفارسيّ ، فجهّزه ودفنه ثمّ عاد إلى المدينة . وما حصل لجواد الأئمّة الإمام محمّد التقيّ عليه السلام عند شهادة أبيه الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام ، حيث حضر من المدينة إلى طوس ودخل إلى المنزل والأبواب مغلقة ، ثمّ عاد إلى المدينة بعد تجهيز أبيه وتكفينه وغسله والصلاة عليه ثمّ دفنه .

وكما حصل للإمام زين العابدين السجّاد عليه السلام حين حضر من الكوفة إلى كربلاء في مراسم دفن الأبدان المطهرة لشهداء الطفّ ومراسم دفن أبي عبد الله الحسين عليه السلام ، فصلّى بنفسه على جسد أبيه الطاهر ثمّ دفنه ، وقام بتعيين مواضع قبور سائر الشهداء .

أمّا طيّ الزمان ، أي قيام الإنسان بطيّ فترة زمنيّة طويلة خلال لحظات قصيرة . كأن يطوي شهر محرّم الحرام من أوّله إلى آخره في عدّة لحظات ، فيدخل في أول شهر صفر المظفّر ، وهو أمر لم أُشاهد له ذكراً في كتابٍ ما ، كما أنّه غير معروف بين العلماء والأعلام من أهل الكمال ؛ إلّا

أنّني سمعت في النجف الأشرف من رجل عربيّ، كان - حقّاً - سالكاً لطريق الله تعالى ومن المنزّهين المتحمّسين الصادقين، أنّه قال: لقد مرّت عَلَيَّ أوقات كنتُ أنغمر خلالها في عوالم الحيرة، فينقضي عَلَيَّ شهر أو أكثر من شهر دون أن يكون لي ولعيالي أدنى قوت (أدنى ما يلزم من الطعام لإدامة الحياة)، ولم نكن نحسّ بانقضاء الزمان أبداً، وكنت أنا وعيالي وأطفالي في حالٍ عاديّة من البهجة والسرور. ولم يكن لعائلتي اطّلاع على انقضاء الزمان أبداً، كما أنّني لم أَبُحْ لهم بذلك حتّى الآن.

وهناك أمثلة أُخرى على هذا الأمر، إلّا أنّنا نكتفي بهذا القدر كشاهد على المطلب.

وعلى العكس من ذلك، فكلّما زاد التفات الإنسان إلى عالم الكثرة، زاد إدراكه لحركة الزمان وتدرّجه. وكلّما زادت درجة التفاته، كان إحساسه بمرور الزمان إلى الدقائق أكثر من الساعات، وإلى الثواني أكثر من الدقائق. وكثيراً ما يحصل أن يكون الأمر أدنى من ذلك، فقد يكون مرور ثانية واحدة واضحاً لذلك الفرد ومشهوداً لديه.

إنّ الأفراد الذين يعيشون حالة انتظار وترقّب لأمرٍ ما، يدركون امتداد الزمان بشكل جيّد، ويبدو لهم الزمان طويلاً. فالشخص المعتقل الذي يراد تقديمه إلى المحاكمة تشتدّ عليه ساعات الزمان والشخص المحكوم الذي يُراد إجراء الحدّ بحقّه وإنزال القصاص به أو إعدامه، يبدو الزمان في نظره طويلاً. فكلّ دقيقة تبدو له بقدر ساعة؛ وكلّ ساعة تبدو بقدر يوم، أو بقدر شهر أو سنة. وكثيراً ما يكون الزمان ثقيلاً طويلاً في نظر المحكوم حتّى كأنّه قضى في انتظاره عمراً.

والأمر على هذا النحو بالنسبة للعاشق الذي يحترق في فراق حبيبه، فإنّ الدقائق و الساعات تمرّ في نظره بطيئة ثقيلة، كأنّ كلّ دقيقة تعادل زمناً

مديداً . فيتلظّى بنار الفراق ، ويحسّ بالزمان عليه طويلاً .

إنّ الأُمّ التي تنتظر عودة ولدها الضائع تعيش حالة ترقّب مستمرّ ، وتتسمّر أنظارها على باب البيت في انتظار لحظة إعادة طفلها إليها ، فيبدو انقضاء الزمان في نظرها بطيئاً ، فهي لا تلبث تتطلّع إلى الساعة وتقول : عجباً ! إنّهم حتّى الآن لم يرجعوا بطفلي إليّ ! لقد قالوا إنّهم سيأتون به بعد ساعة ، أفلم تمرّ ساعة ، بل وأكثر من ساعة ؟!

تقول ذلك مع أنّ خمس دقائق لم تنقضِ بعد . ثمّ تقول : انظروا لعلّ الساعة معطّلة لا تعمل !

والأمر كذلك بالنسبة إلى الشخص الذي يُراد تفتيشه في الجمرك أو في مكان آخر ، أو الذي يُراد حبسه في سجن ؛ فإنّ الزمان سيبدو في نظره طويلاً . وهذا الأمر من الوضوح والجلاء بحيث ورد في آداب كلّ اللغات في أشعار الغزل قصص عن فراق المحبوب وعن طول زمان الهجر ، وشُبّه الهجران بـ «شب يلدا» ،[1] وبحيث جاء هذا المعنى في قوالب النظم والنثر بأنواع مختلفة من التشبيهات والكنايات والاستعارات ،كما وردت شواهد في القرآن الكريم على هذه الحقيقة الكلّيّة التي ذكرناها :

الأوّل : قصّة إرميا ، وكان من الأنبياء فقد أماته الله وأمات حماره معه ثمّ أحياه بعد مائة عام ، ثمّ سأله :كم لبثتَ ؟ قال : يوماً أو بعض يوم . فخاطبه تعالى : بل لبثتَ مائة عام :

فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ.[2]

١ـكلمة فارسيّة تعني أطول ليلة من ليالي السنة . (م)

٢ـ الآية ٢٥٩ ، من السورة ٢ : البقرة .

الثاني : قصّة أصحاب الكهف الذين أنامهم الله ثلاثمائة سنة شمسيّة (تعادل ثلاثمائة وتسع سنين من السنين القمريّة) ثمّ أيقظهم ، فقال بعضهم لبعض :كم لبثنا هنا ؟ قالوا : يوماً أو بعض يوم . وكان الله تعالى يعلم كم استغرق نومهم .

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَـٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ.[1]

وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا.[2]

الثالث : عدم إدراك الأفراد في عالم البرزخ مقدار طول الزمان فيه ، وهو أمر ناتج عن التجرّد الروحيّ وتخطّي عالم الطبع ، حتّى بالنسبة إلى المجرمين . وقد ذُكر هذا المعنى في سبعة مواضع من القرآن الكريم :

١ ـ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا.[3]

٢ ـ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا.[4]

٣ ـ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ * قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ ٱلْعَادِّينَ * قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ.[5]

٤ ـ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ

---

١ ـ الآية ١٩ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٢ ـ الآيتان ٢٥ و ٢٦ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٣ ـ الآية ٥٢ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٤ ـ الآية ١٠٣ ، من السورة ٢٠ : طه .

٥ ـ الآيات ١١١ إلى ١١٤ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.[1]

٥ ـ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ.[2]

٦ ـ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ.[3]

٧ ـ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا.[4]

وقد وردت ـ تبعاً لهذا الأساس ـ روايات في اختلاف شعور أهل البرزخ لطول البرزخ ، وقد ذكرنا تلك الروايات في بحث عالم البرزخ .

أمّا في موقف القيامة ووقوف الإنسان للحساب ، فهناك أيضاً روايات ذات دلالة على أنّ ذلك الموقف ليس واحداً بالنسبة إلى الجميع ، وأنّه سريع الانقضاء بالنسبة إلى الأنبياء والمؤمنين والصالحين ، ومتثاقل طويل بطيء الانقضاء بالنسبة إلى الكفّار والفجّار والأشقياء .

ونحن نعلم ـ بطبيعة الحال ـ أنّ ذلك الزمان ليس أمراً موهوماً ، بل هو أمر حقيقيّ . وقد ذكرنا في بحث المعاد الجسمانيّ أنّ موقف الحساب والسؤال والكتاب والميزان والصراط يحصل بعد الفناء في الله تعالى ، وفي عالم البقاء بالله بعد طيّ الفناء . حيث يُحفظ في عالم البقاء كلّ شيء في موضعه : الزمان ، المكان ، الجسم والبدن ، السؤال والمؤاخذة ، اللذّة والبهجة ، الحزن والغمّ ، البكاء والضحك ، السرور والحزن ، والجنّة والنار .

ومن هنا ينبغي حتماً أن يكون إدراك اختلاف كمّيّة امتداد الزمان بحسب اختلاف درجات أعمال الناس وإدراكهم ، وأن يكون أمر نسبيّة الزمان تبعاً إلى المراحل المختلفة للسائرين تجاه الحرم الإلهيّ ، إذ إنّ

١ـ الآيتان ٥٥ و ٥٦ ، من السورة ٣٠ : الروم .

٢ـ الآية ٤٥ ، من السورة ١٠ : يونس .

٣ـ الآية ٣٥ ، من السورة ٤٦ : الأحقاف .

٤ـ الآية ٤٦ ، من السورة ٧٩ : النازعات .

الجميع في حركة باتّجاهه عزّ وجلّ ، والكلّ يبحث عنه سبحانه .

همه كس طالب يارست چه هشيار چه مست

همه‌جا خانهٔ عشق است چه مسجد چه‌كنشت[١]

فالإنسان ـ بما هو إنسان ـ في حركة إلى الله ، وممّن يلتقون بطلعته ويشاهدون جماله .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ .[٢]

منتهى الأمر أنّ هناك فارقاً بين سير المؤمنين وسير الكافرين ؛ وبين سير الصالحين وسير الطالحين ؛ وبين سير المقرّبين وسير غيرهم : وبين سير أصحاب اليمين وسير أصحاب الشمال ؛ وفي النهاية فإنّ هناك فارقاً بين سير مَن انكشفت لهم الأسرار الإلهيّة وسير المحجوبين .

فعشّاق جماله ، وطالبو لقائه ، والمشتاقون إلى طلعته الجميلة وسيماء جلاله ، والمتلهفون في ميدان الحيرة ، والمتحرّرون من هوى النفس ومكائد إبليس ومصائده ، ومَن تشرّف بعزّ حريم الحضور يصبح غارقاً باستمرار في أنوار تجلّياته ونفحاته السبحانيّة بحيث يفقد المجال والحال للنزول .

چه التفات به لذّات كائنات كند

كسى كه يافت دمى لذّت وصال حبيب

درون من نه چنان از حبيب مملوّ شد

كه گر حبيب درآيد ، بود مجال حبيب[٣]

١ـ يقول : «الكلّ يبحث عن الحبيب ، الصاحي منهم والثمل ؛ وكلّ مكان بيت للعشق ، مسجداً كان أم كنيسة» .

٢ـ الآية ٦ ، من السورة ٨٦ : الانشقاق .

٣ـ «ديوان المغربيّ» .

يقول : «كيف يلتفت إلى لذّات الكائنات مَن وَجَد لحظةً لذّة وصال الحبيب ؟ ⇦

قال المرحوم آية الله الحاجّ الميرزا جواد آقا الملكيّ التبريزيّ :

بل قد يكون مستغرق الهمّ والقلب في حضرته ، حتّى يتعطّل قلبُه عن ذكر ما سواه ، وعن الالتفات إلى غيره ؛ وعقله عن التدبير في أُموره ، ويحصل له شبه الهيمان ، كما روي ذلك في بعض حالات أمير المؤمنين عليه السلام ، وأُشير إليه في حديث المعراج بقوله :

وَأَسْتَغْرِقَنَّ عَقْلَهُ بِمَعْرِفَتِي ، ثُمَّ لَأَقُومَنَّ لَهُ مَقَامَ عَقْلِهِ.[1]

أمّا المحجوبون عن لقاء الله ، المحرومون من حبّه عزّ وجلّ ، والمتهرّبون عن القيام بوظائف الإيمان والعمل الصالح ، والمبتلون بالأفكار النفسانيّة الشيطانيّة ، المحبوسون في عوالم البُعد ، الذين تمثّل الأُمور الاعتباريّة والكثرات الوهميّة والشؤون السرابيّة لعالم الغرور المحور الذي تدور عليه أفكارهم ، فيصدق في حقّهم :

أُولَـٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ.[2]

وسيدرك هؤلاء يوم القيامة مرور الزمان جيّداً ، ويُحاسبون مفصّلاً على ما عملوا ، وسيطول ذلك الموقف عليهم ؛ وقد قرأنا في هذا المجلس الرواية القائلة بأنّهم سيتصبّبون عرقاً فيكفي عرقهم لريّ أربعين بعير ظمآن .

وهناك آخرون يتوزّعون في درجات مختلفة من العبوديّة بين هاتين الطائفتين ، أي بين طائفة المقرّبين وطائفة المنكرين ؛ وهؤلاء كلّما زاد خلوصهم وإخلاصهم ، زاد قربهم من مقام التجرّد المطلق وصاروا يحسّون

⇦ لقد امتلأ ضميري بحبّ الحبيب بحيث لم يعد من مجالٍ لحبيب إلّا إذا غادره الحبيب !» .

١ ـ «أسرار الصلاة» ص ٢٩٩ ، الطبعة الحروفيّة .

٢ ـ الآية ٤٤ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

بمرور الزمان إحساساً أضعف . وعلى العكس من ذلك ، فكلّما زادت درجة استكبارهم زاد بعدهم عن مقام التجرّد وزاد إحساسهم بمرور الزمان .

فالناس -إذاً- يقفون في موقف القيامة في درجات مختلفة ، فيحاسبون بنحوٍ خاصّ بحسب عقائدهم ومَلكاتهم وصفاتهم المكتسبة وأخلاقهم وسيرتهم ، فيحسّون بمرور الزمان إحساساً خاصّاً .

ويتّضح هذا المعنى جيّداً بما ذكره صدر المتألّهين في شأن جانبَي الإنسان المُلكيّ والملكوتيّ ، فكلّما اقتربنا أكثر من الجانب الملكوتيّ ، زاد ظهور تجرّد نفوسنا الناطقة ، وزادت مصونيّتنا من آلام حوادث عالم الكثرة وسراب الاعتباريّات الوهميّة وأذاها . وكلّما اقتربنا من الجانب المُلكيّ الظاهريّ ، قلّ تجرّد نفوسنا الناطقة ، وطال بنا الموقف في يوم القيامة ، وكان انقضاء زمان السؤال والحساب بطيئاً في نظرنا .

وقد ورد في تفسير «مجمع البيان» عن أبي سعيد الخدريّ في قوله تعالى : تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قال : قيل : يا رسول الله ما أطول هذا اليوم ؟

فقال : والذي نفسُ محمّدٍ بيده إنّه لَيخفّف على المؤمن ، حتّى يكون أخفّ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ يُصلّيها في الدنيا .

وروي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال : لَوْ ولي الحسابَ غيرُ الله لمكثوا فيه خمسين ألف سنة من قبل أن يفرغوا ، والله سبحانه يفرغ من ذلك في ساعة .[1]

ويتّضح من خلال هاتين الروايتين معنى فقرة «خمسين ألف سنة» ، ويتجلّى أن طول الزمن أمر يتعلّق بحالات العباد المختلفة ، وأنّه في نظر

١ـ تفسير «مجمع البيان» ج ٥ ، ص ٣٥٣ ، طبعة صيدا .

المؤمنين سريع الانقضاء، خفيف يبعث على الارتياح، لأنّ **وُجُوهُهُم نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**، فهم يشاهدون ذلك بحسب حقائقهم وواقعيّاتهم.

ومن الجليّ أنّ الحقيقة أمر واحد: **وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**.[1]

وجاء أيضاً في القرآن الكريم: **وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ**.[2]

وهذا الأمر القليل كلمح البصر يطول بالنسبة إلى الكافرين والفاسقين لأنّهم **عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**.

فالاختلاف ـ إذاً ـ من قِبل الناس؛ أمّا من قِبل الله تعالى فإنّ الأمر سينقضي في لحظة واحدة، بل إنّ التعبير باللحظة الواحدة في هذا المجال مُجانب للصواب؛ **وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ**.

وهذا هو معنى نسبيّة زمان الوقوف للسؤال والحساب في موقف القيامة.

أمّا ما قاله العالم الغربيّ أينشتَين بشأن نسبيّة الزمان فلا علاقة له بهذا المطلب أبداً. فقد وافق «أينشتين» على مبدأ عدم إمكان عدّ جسمٍ ما في هذا العالم ساكناً؛ أمّا تنوّع الحركات يوجب نشوء الأجسام المختلفة، فليس قولاً مختصّاً به، فقد ذكر ذلك آخرون قبل «أينشتين».

يقول «أينشتَين»: إنّ الامتداد الزمنيّ لا ينفك عن الامتداد المكانيّ. وقد نشأ حجم عالم الطبيعة من أبعاد أربعة: الأبعاد الثلاثة المعروفة (الطول والعرض والارتفاع) والبُعد الرابع هو الزمان.

وكان «نيوتن» قد شبّه الزمان بسائل متجانس الجريان دون أن يكون له

ـــــــــــ

١ـ الآية ٥٠، من السورة ٥٤: القمر.

٢ـ مقطع من الآية ٧٧، من السورة ١٦: النحل.

ارتباط مع الأشياء الخارجيّة . وفي نظر"أينشتين" أنّ لحظات هذا الزمن المطلق أشبه بنسيج يشكّل ما يشبه نقاط خطّ مستقيم . والأساس الذي تتتابع فيه هذه اللحظات هو أساس مستقلّ عن جميع الحوادث . أمّا الحوادث فيمثّل كلّ منها بعضاً من هذه اللحظات .

وقد تعرّضت عقيدة"نيوتن" بأنّ الزمن المطلق موجود بصورة مستقلّة عمّا يدور في العالم إلى انتقاد؛حتّى معاصريه ، ومن جملتهم «لايب نيتس» الذي كان يعتقد أنّ الحوادث أكثر تأصّلاً ، وأنّ اللحظات هي مفاهيم انتزاعيّة ، أي أنّها مجموعات من الحوادث المتزامنة .

فنحن ننتزع الزمان من الحوادث . والزمان ـ في الحقيقة ـ هو الذي يعرّف تسلسل الحوادث .

ثمّ جاء أينشتين فرفض فرض وجود الزمن المطلق ، وكان بدء تحقيقاته محاولته للمجانسة بين نظريّة مَاكْسْوِيل الإلكترومغناطيسيّة مع باقي القضايا الفيزيائيّة المبتنية على ميكانيك"نيوتن" .

وكان"نيوتن" قد قال في كتابه «الأُصول» بأنّ حركات الأجسام في فضاء معيّن واحدة ، سواءً كان ذلك الفضاء ساكناً أم متحرّكاً حركة متجانسة . أي ينبغي للتجارب الميكانيكيّة المحضة أن تعطي نتيجة واحدة على الدوام ، سواء أُجريت في أماكن تجارب ساكنة على الأرض ، أم في زورق يسير في حركة متجانسة . فالحجر الذي تتركه اليد ليسقط ، يمتلك في كلا الموضعين تعجيلاً واحداً .

ولم يكن هذا المطلب (الذي كان أحد أُسس النسبيّة) لينسجم مع نظريّة"ماكسويل" ؛ فطبقاً لنظريّة الأخير فقد كان يمكن التفريق بين هذين النوعين من خلال تجربة كهربائيّة أو ضوئيّة .

لذا فقد قال"أينشتين" بأنّ القوانين الإلكترو مغناطيسيّة (الحاكمة على

الظواهر الضوئيّة والكهربائيّة) ـ فضلاً عن قوانين الميكانيك ـ يجب أن تبدو واحدة للناظرين الذين يتحرّكون حركة متماثلة مع بعضهم ، وإنّ سرعة الضوء ينبغي أن تكون متماثلة لجميع هؤلاء الناظرين .

وقد وصل «أينشتين» خلال تحليله للحركة إلى نتيجة أنّ قياس الزمان مرتبط بمفهوم التزامن . وفي نظره أنّ جميع القضايا التي يحتلّ الزمان فيها نصيباً ، هي على الدوام قضايا تدور حول حوادث متزامنة . فحين نقول ـ مثلاً ـ بأنّ القطار سيصل إلى المحطّة في الساعة السادسة ، فإنّنا نقصد أنّ وصول عقرب الساعة الصغير مقابل الرقم «٦» متزامن مع وصول القطار إلى المحطّة . ولهذا فإنّ التزامن هو أمر نسبيّ .

وقد توصّل «أينشتين» إلى نتيجة أنّه إذا كانت الفاصلة بين شيء خارجيّ وبين الناظر معلومة ، وكانت سرعة العلامة التي تربط ذلك الشيء بالناظر معلومة بدورها (الصوت ، الضوء أو الأمواج الإلكترومغناطيسيّة) ، فإنّ زمن وقوع حادثةٍ ما سيمكن حسابه في تلك الحال . لكنّ ذلك الحساب سيكون واحداً للناظر الواحد ومختلفاً للناظرين المختلفين .

وكان يظنّ قبلاً أنّ زمان وقوع حادثة ما لو احتُسب وفقاً لزمن مشاهدتها ، لأمكن ترتيب جميع الحوادث في سلسلة زمنيّة واحدة ، وسيحصل جميع المشاهدين ـ في العاقبة ـ على نتيجة عدديّة واحدة لزمان وقوع أيّ حادثة .

ثمّ إنّه رفض هذا المطلب وقال : إذا لم يكن بين الحوادث الخارجيّة والناظر أيّ ارتباط آنيّ ، فإنّ سرعة الأمواج الإلكترو مغناطيسيّة (الضوئيّة) التي تمثّل أسرع وسيلة للارتباط ، ستكون واحدة لدى جميع الناظرين الذين لهم حركة متماثلة . أمّا بالنسبة إلى الناظرين الذين يتحرّكون حركات مختلفة بالنسبة إلى بعضهم البعض ، فإنّهم ينسبون أعداداً مختلفة لزمان

وقوع الحوادث ، واستنتج من ذلك جملة قضايا :

الأُولى : أنّ الساعة التي ينظر إليها ناظر متحرّك ستبدو أبطأ حركة من ساعة مماثلة ينظر إليها ناظر ساكن (وهذه القضية موسومة باتّساع الزمان) . واتّساع الزمان في نظر"أينشتين"يمثّل ظاهرة ناشئة من عمل القياس .

الثانية : يجب تغيير قوانين"نيوتن"في الحركة ، التي كانت تعدّ في السابق أُسس الفيزياء ، يجب أن تغيّر ؛ ومن جملتها أنّ كتلة الجسم التي كانت تبدو في السابق مستقلّة عن حركته ينبغي أن تزداد تبعاً لحركة الجسم . وفي النتيجة فإنّ تأثير قوّة معيّنة في تغيير سرعة الجسم سيتناقص مع ازدياد سرعة ذلك الجسم . وفي النتيجة فلا يمكن لأيّة ذرّة كانت أن تحصل على سرعة النور ، ولو قُدّر لساعةٍ ما أن تتحرّك بسرعة النور ، لأشارت باستمرار إلى نفس الزمان .

الثالثة : أنّ الأطوال تصبح أقصر في اتّجاه الحركة . أي أنّنا لو كنّا في حركة قياساً إلى مسطرة ما ، فإنّ طول تلك المسطرة الذي نحصل عليه بالقياس سيكون أقصر من الطول الذي سنحصل عليه عند سكون المسطرة. وهذا القصر في الأطوال ناشئ من عمل القياس . وهناك شواهد تجريبيّة موجودة في الوقت الحاضر لظواهر اتّساع الزمان وقصر الأطوال .

والنسبيّة الخاصّة تقول لكلّ ناظر بزمان خاصّ ، وذلك الزمان الخاصّ لكلّ ناظر هو الزمن الذي تشير إليه ساعته . وضمناً فإنّ كلّ ناظر إلى أيّة حادثة تقع في موضع آخر ينسب إليها زمناً خاصّاً يمكن احتسابه على أساس المعلومات التي يمتلكها عن محلّ وقوع تلك الحادثة وسرعة العلامة التي تربط بينه وبين تلك الحادثة . والزمن المختصّ بالحوادث الواقعة في موضع واحد مساوٍ إلى الزمن المختصّ بالناظر .

وفي نظر ناظر معيّن فإنّ جميع الحوادث التي لها زمن خاصّ

تشخّص حالة لحظيّة (آنيّة) للعالم ؛ وبينما كان الزمان لدى "نيوتن" مستقلاً عن العالم ، فإنّه لدى "أينشتين" جانب من الرابط بين هذا العالم وبين الناظر .

وفي نظر النسبيّة الخاصّة فإنّ الفاصلة الزمنيّة بين حادثتينِ هي أمر يتعلّق بالناظر ، بل إنّ الترتيب الزمانيّ لهما ـ بلحاظ التقدّم والتأخّر ـ يتعلّق بالناظر بدوره . لكنّها تشير هنا إلى عدم تغيّر ترتيب وقوع الحوادث التي ترتبط فيما بينها برابطة العلّة والمعلول .

وقد أجرى "مينكوسكي" في سنة ١٩٠٨ م أبحاثاً رياضيّة على نظريّة النسبيّة الخاصّة بعد تقديمها من قبل "أينشتين" في سنة ١٩٠٥ م .

ويمكن تلخيص كلام "مينكوسكي" بأنّه لا يمكن لأيّ إنسان أن يلحظ أيّ مكان خاصّ إلّا في زمن معيّن ، وبالعكس . وبهذا اللحاظ فقد استخدم مفهوم الفضاء والزمان والاصطلاح المعروف «الموقع» بدلاً من اصطلاح الزمان والمكان .

وقبل النظريّة النسبيّة ، فقد كانت الفاصلة الزمنيّة بين حادثتينِ واحدة بالنسبة إلى جميع الناظرين ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الفاصلة المكانيّة بين الحادثتينِ . أمّا في نظر النسبيّة فإنّ كلّ واحد من الأمرين السابقينِ مرتبط بالناظر ، ولكن يمكن اتّخاذ تركيب منهما بحيث يبدو واحداً بالنسبة إلى جميع الناظرين .

ولهذا قال "مينكوسكي" : إنّ الزمن لوحده والمكان لوحده سوف يمّحيان ، وسيبقى نوع من تركيبهما بعنوان حقيقة مستقلّة .

وقد توصّل "أينشتين" بعد عمل "مينكوسكي" إلى نتيجة أنّ العالم الخارجيّ الفيزيائيّ هو عالم ذو أربعة أبعاد ، وأنّ تفكيكه إلى فضاء ذي ثلاثة أبعاد وإلى زمن يمثّل البُعد الرابع ، ليس أمراً واحداً لجميع الناظرين . وقال من ثمّ : يبدو أنّ اعتبارنا الحقيقة الفيزيائيّة في هيئة وجود ذي أربعة

أبعاد أقرب إلى الطبيعة من اعتبارنا لها في هيئة تغيّر ذي وجود ثلاثيّ الأبعاد .

ويعدّ فضاء"مينكوسكي" باللحاظ الرياضيّ فضاءً خاصّاً ؛ ولا نقصد بذلك أنّ الفضاء بمعناه المتعارف هو فضاء ذو أربعة أبعاد ، أو أنّ الزمان هو شكل من أشكال الفضاء . وخلاصة النظريّة النسبيّة هي أنّ خواصّ الزمان والفضاء مندمجة ومرتبطة مع بعضها ، وأنّه لا يمكن إعطاء أشكال منفصلة لكلّ واحد منها .

والخلاصة فإن"أينشتين" قد قدّم نظريّة النسبيّة الخاصّة والعامّة : النسبيّة الخاصّة التي تتعلّق بالحركات المتماثلة بما يشمل الحركات ذات الخطّ المستقيم وذات الخطّ المنحني . والتي تربط بين الناظرين الذين لهم حركة متماثلة بالنسبة إلى بعضهم .

أمّا النسبيّة العامّة فتربط كلا الناظرينِ إلى بعضهما ، سواءً كان لهم تعجيل بالنسبة إلى بعضهما أم لم يكن لهما تعجيل .

وقد أُرسيت النسبيّة الخاصّة على فرضيّتينِ :

الأُولى : أنّ قوانين الفيزياء لها شكل واحد بالنسبة إلى جميع الناظرين الذين يتماثلون مع بعضهم في حركتهم (أي في سرعتهم الثابتة) .

والثانية : أنّ سرعة النور في الفراغ واحدة بالنسبة إلى جميع الناظرين الذين لهم تماثل في الحركة بالنسبة إلى بعضهم .

وقد أُرسيت النسبيّة العامّة على أساس عدّة قواعد لايزال بعضها في دور الفرضيّة ولم تثبت علمياً بعدُ . مثل عموميّة الحركة ، قانون الجاذبيّة العامّة للأجسام ، ثبات سرعة النور ؛ وبطبيعة الحال فإنّ قانون الجاذبيّة العامّة للأجسام لايناقش في النسبيّة العامّة في نفس الصورة التي يُناقش بها في ميكانيك"نيوتن". بل إنّ الوزن (الجاذبيّة) يمثّل في هذه الحالة مظهراً من

الهندسة الفضائيّة (أي آثار الوزن الناشئة من خواصّ الفضاء ـ الزمان) .

ولا يختصّ أمر اكتساب الجسم المستند على جسم آخر سرعة ذلك الجسم بالنسبيّة الخاصّة ؛ إذ إنّه موجود أيضاً في ميكانيك«نيوتن». منتهى الأمر أنّ تفصيله متفاوت في الموردينِ .

وقد قام بعض العلماء قبل«أينشتين»بطرح أساس النسبيّة ، فقد كان «لورنتز»قد حصل على بعض النتائج الرياضيّة للنظريّة النسبيّة قبل«أينشتين» ، لكنّ تعبيره عن تلك النتائج جاء مغايراً للتعبير الذي قدّمه لها«أينشتين» لاحقاً .

وكان«بوانكاره»قد طرح اساس النسبيّة (وهو الفرض الأوّل للنسبيّة الخاصّة) قبل«أينشتين»، لكنّ هذا الفرض لم يكن كافياً بمفرده ، وكان امتياز تقديم نظريّة النسبيّة الخاصّة منحصراً ب«أينشتين»الذي قدّم النظريّة في الحركات المتماثلة ، بما فيها الحركة المستقيمة والمتكرّرة .

وبطبيعة الحال فإنّ الحركات ذات الخطّ المستقيم (المتماثلة منها وغير المتماثلة) مطروحة بدورها في النسبيّة العامّة .

على أنّ«مينكوسكي»لم يكن قد سبق«أينشتين»في الحديث عن النسبيّة ، لكنّه قام ـ بعد أن قدّم«أينشتين»نظريّته النسبيّة ـ بتقديم قالب رياضيّ بديع لبيان النسبيّة الخاصّة .

وأساس النسبيّة قائم على الحركة ؛ ولو كان الفضاء وعالم الطبع ساكنينِ دونما حركة ، لما كان للنظريّة النسبيّة من موضوع . وتعدّ المادّة وأفعال المادّة في نظر«أينشتين»وسائر العلماء القائلين بالنسبيّة متحرّكة بأجمعها ، كما أنّها بأجمعها من قبيل ميدان الوزن (الجاذبيّة) والميدان الإلكترو مغناطيسيّ .

وباعتبار أنّ النور والصوت هما اللذان ينقلان لنا أخبار الحوادث

وأماكنها وحيّزها (مواقعها)، وأنّ ذلك بذاته يستغرق زمناً معيّناً (سرعة النور تعادل ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية، وسرعة الصوت تعادل ثلاثمائة وواحد وثلاثين متر في الثانية)، ولأنّ نفس تلك الأجسام متحرّكة بدورها، فإنّنا سنعجز عن معرفة زمن وقوع الحادثة بشكل عامّ وكلّيّ.

ووفقاً لنظريّة النسبيّة الخاصّة، فإنّ الزمن الحاصل عن هذا الطريق مختلف للناظرين المختلفين الذين هم في حركة بالنسبة إلى بعضهم البعض، ويمكننا فقط أن نحصل ـ وبشكل دقيق ـ على زمن وقوع الحادثة بالنسبة إلى ناظر خاصّ.

فنحن نرى ـ مثلاً ـ أنّ الشمس قد أشرقت، فنقول: لقد أشرقت الشمس الآن. بينما لم تكن الشمس قد أشرقت بعدُ حين شاهدنا إشراقها. ولم يكن موضعها في الأُفق هو المحلّ الذي نراه، لأنّ بُعدها عن الأرض يقارب ١٥٠ مليون كيلومتر؛ ويستغرق نورها ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية ليصل إلى الأرض. ونحن إنّما نرى منظر إشراق الشمس بعد هذه المدّة التي أشرقت فيها الشمس فعلاً، ونشاهد مكانها بهذا المقدار الذي ارتفعت به عن الأُفق. كما أنّنا نشاهد منظر غروبها بعد هذه المدّة التي غربت فيها الشمس فعلاً واختفت وراء الأُفق. أي أنّ الشمس قد غربت فعلاً، لكنّنا نشاهدها في الأُفق بعد ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية وهي على وشك الغروب مقتربة من الأُفق.

وباعتبار أنّ نور القمر يستغرق ثانية واحدة وخُمس الثانية ليصل إلى الأرض، فإنّنا نشاهد طلوع القمر بعد طلوعه الفعليّ بهذه المدّة، كما نشاهد غروبه بعد غروبه الفعليّ بهذه المدّة.

ونحن نشاهد باستمرار خلال النهار موضع الشمس بما يسبق موضعها الحقيقيّ في الأُفق، ونشاهد محلّ القمر خلال الليل بما يسبق

موضعه الحقيقيّ أيضاً . ونشاهد أنواع النجوم الأُخرى التي يستغرق نور بعضها أربعاً وعشرين ساعة ليصل إلى الأرض ؛ ونحن نشاهدها بعد دوران الأرض دورة كاملة . وهناك من النجوم ما يستغرق نورهُ سنةً كاملة ليصل إلى الأرض ؛ ونحن نرى تلك النجوم بعد ثلاثمائة وخمس وستّين دورة للأرض حول محورها في حركتها الوضعيّة .

وما أكثر النجوم التي يبدأ طلوعها في النهار ، فيصل نورها إلى الأرض خلال الليل .

وبالإضافة إلى الزمان الذي يستغرقه نور النجوم للوصول إلى الأرض ، فإنّ هذه النجوم هي بذاتها في حركة خلال هذه المدّة ، فهي إمّا أن تقترب من الأرض أو تبتعد عنها .كما أنّ للأرض حركة خلال هذه المدّة سواء اقتربت من هذه النجوم في حركتها أم ابتعدت عنها .

وينبغي ـ وصولاً إلى رصد النجوم على نحو التحقيق ـ أن نجعل أساس حساباتنا على خصوص ما ننظر إليه . فهذه الأرصاد إنّما هي أرصاد لنا ، ونسبة لنا ـ نحن الذين نرصد من على الأرض ـ أمّا بالنسبة إلى الذين يريدون أن يرصدوا من على الكرات السماويّة الأُخرى ـ مثلاً ـ أو إلى الذين يريدون رصد الأرض من على إحدى النجوم فإنّها تعدّ مختلفة ، بل إنّها مختلفة أيضاً حتّى للناظرين المختلفين على الأرض ، والذين هم في حال حركة بالنسبة إلى بعضهم البعض .

ومع جميع هذه الأحوال ، فإنّ هذه الفواصل متفاوتة بلحاظ مسألة النسبيّة . فبُعد الشمس عن الأرض ـ كما قيل ـ يقابل ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية ، لكنّ هذا الزمن هو غير الزمن المستغرق بين غروب الشمس الحقيقيّ وبين الغروب الظاهريّ ؛ أو بين طلوعها الحقيقيّ وطلوعها الظاهريّ . وهذا الاختلاف ناشئ من نسبيّة الزمان الخاصّة . ويصدق هذا

الأمر أيضاً على القمر والنجوم . وبناء على ما قيل ، وباعتبار أنّ جميع الموجودات في حالة حركة يتدخّل فيها الزمان في تعيين موضعها وموقفها ـ لأنّ مسافة الجسم المتحرّك في الحركات المتماثلة يساوي سرعته مضروبة في الزمن ـ وباعتبار أنّ الزمان هو عبارة عن حاصل قسمة المسافة على سرعة الحركة ، فيمكن من ثمّ أن يكون للزمن دخلاً في تعيين أبعاد الأجسام وأن يعدّ الزمن بُعداً رابعاً .

وثانياً : أنّ الزمان ـ شأنه شأن المكان ـ يمكن أن يكون نسبيّاً ، وأن يختلف تبعاً لاختلاف الأشخاص والأمكنة .

يقول"أينشتين": ليس الزمان والمكان ظرفينِ مستقلّينِ للموجودات المادّيّة ، بل هما صفتان نسبيّتان من صفاتها . وبينما يُعدّ الزمان والمكان في ميكانيك"نيوتن"مستقلّين عن العالم ، فإنّهما في النسبيّة الخاصّة من جهات الارتباط بين الأشياء والناظر . ولأنّ جميع قوانين الفيزياء لها شكل واحد في نظر النسبيّة بالنسبة إلى جميع الناظرين ، فإنّ حركة الإلكترونات في الشمس وفي الأرض تخضع إلى قانون واحد ، منتهى الأمر أنّ الزمن الذي ننسبه إلى حركة إلكترون شمسيّ يختلف عن الزمن الذي ينسبه إليه ناظر شمسيّ .

وبالتدقيق في المطالب التي ذكرناها في حقيقة الزمان في نظر الفلاسفة والعلماء ، تُستنتج أربعة تفاسير مختلفة للزمان ، اثنان منها تفسيران فلسفيّان ، والآخران تفسيران مرتبطان بالعلوم التجريبيّة .

١ ـ النظريّة المشهورة للحكماء المشّائين التي نُسبت إلى"أرسطو"؛ ويعدّ الزمان بموجبها أمراً عينيّاً يمثّل أساس حوادث عالم الطبيعة ، وينشأ من دوران الأفلاك . وباعتبار أنّ هؤلاء الفلاسفة كانوا يعتبرون الحركة جارية فقط في أعراض عالم الطبيعة ، فإنّهم ـ في النتيجة ـ لم يكونوا

يقولون بزمان خاصّ لجوهر الأشياء .

٢ ـ أثبت الحكيم الجليل في العصر الإسلاميّ : المرحوم "صدر المتألّهين" بدلائل متقنة أنّ الحركة في جوهر عالم الطبيعة حركة راسخة ، وأنّ أرجاء عالم الطبع ـ أساساً ـ وجود سيّال . وأنّ الزمان هو مقدار هذا السيلان الوجوديّ للأشياء الذي يتفاوت بحسب كلّ شيء .

وبطبيعة الحال فإنّ الزمان الشائع في عرف الناس ليس هو الزمان الحقيقيّ للأشياء ، بل هو المقارنة بين الأشياء المختلفة الزمنيّة .

ووفقاً لنظريّة "صدر المتألّهين" فإنّ الحركة ـ والزمان في النتيجة ـ ليست جزءاً ماهويّاً لأيّ شيء من الأشياء بخصوصه ، بل تمثّل نوعاً من الوجود لجميع أشياء عالم الطبيعة . لذا فبيان الأبعاد الثلاثة المتعامدة على بعضها (الطول والعرض والعمق) ليس كافياً لمعرفة الجوهر الجسمانيّ ، بل ينبغي الالتفات إلى بُعد آخر لهذا الجوهر يرتبط بنحو وجود ذلك الجوهر ، ـ وهو الامتداد الزمنيّ ـ بعنوان بُعد رابع .

٣ ـ التفسير العلميّ للزمان من قبل "نيوتن"، الذي يفترض الزمان والمكان بُعدين مستقلّينِ عن أشياء العالم . ومع أنّ حقيقة الزمان لم تكن ملحوظة في هذا التفسير ـ ولو بلحاظ ماهيّتها التجريبيّة ، حيث لوحظ الزمان بعنوان عامل ومعيار لقياس الحوادث والأشياء الملحوظة ـ إلّا أنّ تعميم هذه الصفة لجميع الأشياء بلحاظٍ مطلق يمكن أن يجعل هذا التفسير متطابقاً مع التفسير الفلسفيّ الأوّل .

٤ ـ التفسير العلميّ التجريبيّ للزمان ، الذي قدّمه "أينشتين" وفقد على أساسه الزمان المطلق مفهومه واستبدل بمفهوم تزامن الأشياء مع بعضها .

وعلى الرغم من أنّ الزمان فقد في هذا التفسير اعتباره المطلق العينيّ ، إلّا أنّه ـ في المقابل ـ رسخ في الماهيّة العلميّة لكلّ ظاهرة ، بحيث

صارت أيّة معرفة تجريبيّة عن موقف شيء من شيء آخر منوطة بإدراك رابطة التزامن بين تلك الأشياء .

ويتّضح ، من خلال الالتفات إلى التفسيرات المذكورة ، أن ليس ثمّة من تناقض فيما بين نظريّات الفلاسفة والتصريحات العلميّة لأمثال "أينشتين"و"مينكوسكي". ولا نقصد بذلك أنّ هذين التفسيرين والنظرين متّحدان مع بعضهما ، لأنّ الفلاسفة ينظرون إلى العالم باللحاظ الفلسفيّ ومناقشة حقائق الأشياء .

أمّا علماء الفيزياء فينظرون إليه بلحاظ العلوم التجريبيّة وقوانين الميكانيك والفيزياء . ومع أنّ وجهتي نظر هذين الأُسلوبين والخطّين تختلفان في سيرهما إلى النتيجة ، فإنّ هذين الأُسلوبين لا يتعارضان ولا يتزاحمان مع بعضهما فحسب ، بل إنّهما ـ بناء على الأُسس المسلّمة الثابتة ـ يعضدان بعضهما ، تبعاً للمقدّمات الموجودة لدى الطرف الآخر لتحصيل النتيجة والقياس . وهذا هو الفرق بين الفلسفة والعلم ، حيث يتّضح أحد مصاديقه في هذا المجال بين مفهوم الزمان في نظر الفيلسوف وفي نظر الفيزيائيّ .

فبالنسبة إلى"أينشتين"وأمثاله ، فإنّ هناك زمناً واحداً هو الزمن المستخدم في القياسات الفيزيائيّة ، وهو ـ بطبيعة الحال ـ نوع نسبيّ من الزمان .[1]

١ـ ومن أراد المزيد فليراجع كتابي"أينشتين": «تكامل الفيزياء» و«النسبيّة ومفهوم النسبيّة» .

أذكر أنّه نُقل لي قبل عشرين سنة مطلب عن"أينشتين"جدير بالتأمّل ، وأرى من المناسب نقله في هذا المجال . وناقل القصّة هو سماحة العالم المحترم العزيز أحمد الأنصاريّ زيد توفيقه ، النجل الأكبر لسماحة آية الحقّ واليقين جمال العارفين المرحوم ⇐

....

⇐ آية الله الحاجّ الشيخ محمّد جواد الأنصاريّ الهمدانيّ رضوان الله عليه ؛ وموضوع القصّة أنّ أينشتين كان يتمنّى الاطّلاع على اللغة الفارسيّة لقراءة كتب الملّا الروميّ وحافظ الشيرازيّ اللذين توصّلا إلى معرفة قدرة الباري العظيمة المحيطة بالموجودات . وقد أرسلتُ إلى الأخ الأنصاريّ رسالة شفويّة ليكتب لي نصّ كلام أينشتين من أجل أن أنقله في هذا المجال بحذافيره ، فتفضّل مشكوراً بإرسال رسالة مفصّلة أوردها بعباراتها (مُترجمةً) .

- «أبلغ هذا الحقير برسالتكم الشفويّة الكريمة في تقديم ترجمة كتاب :

«The World as I See it» (=العالم كما أراه) ، وقد بذلت قصارى وسعي امتثالاً لأوامركم في استنساخ عين الترجمة وإرسالها ، إلّا أنّي لم أُوفّق بالعثور عليها على الرغم من بحثي عنها ، لذا أُقدّم اعتذاريّ لسماحتكم ، وأدوّن ما بقي في ذهني من ذلك الموضوع على أمل أن ينال ذلك رضاكم . وكما ذُكر فإنّ مؤلّف الكتاب هو إلبرت أينشتين ، وقد وقعت بيدي نسخة من الكتاب المذكور قبل ما يقارب ثلاثين سنة ، وكنت إذ ذاك أدرس في الجامعة . وكان الكتاب موجوداً في المكتبة الأمريكيّة الواقعة في طهران ، شارع نادري ، حيث حاز اهتمامي الشديد . وباعتبار أنّهم لم يكونوا يسمحون بإخراج الكتاب من المكتبة ، فقد شرعت بترجمته في نفس المكتبة ، وترجمت منه فعلاً ثلاثين صفحة (أصل الكتاب بالحجم الجيبيّ (كرّاسة) في حدود ١٥٠ صفحة) . وأقدّم فيما يلي خلاصة ما ترجمته منه :

لقد اطّلع أينشتين على أنّ أصغر جزء من المادّة لا يقبل التجزئة يُدعى بالذرّة ، وعلم أنّ الذرّة مكوّنة من عدّة أجزاء ، الأُولى : مدارات خارجيّة تحوي أعداداً مختلفة من الإلكترونات التي تدور بشكل منتظم وسرعة ثابتة .

الثانية : نواة مركزيّة تحتوي على البروتونات والنيوترونات . والبروتونات تماثل الإلكترونات في العدد . ووفقاً لرأي أينشتين فإنّ اختلاف أعداد هذه الإلكترونات هو الذي أرسى الأساس الذي يدور عليه عالم الوجود ، والذي تسبّب في نشوء الاختلاف بين الموجودات المادّيّة . وقال : لقد حاولتُ ـ بلا نتيجة ـ أن أعثر على السبب الأساسيّ في دوران إلكترونات المدارات الخارجيّة ، ثمّ أدركتُ بعد مطالعات وتحقيقات عمليّة كثيرة أنّ هذا الدوران المنتظم السريع لإلكترونات المدارات الخارجيّة المختلفة ليس له عامل مادّيّ . وتبعاً لرأي بعض العلماء السابقين فإنّ هذه الحركة المنتظمة تخضع لقدرة عاملٍ غير مادّيّ . وقد استطاع البعض الاتّصال بهذا العامل المقتدر الحاكم والساري في دوران عالم ⇐

ويتّضح ـ بالالتفات إلى ما قيل ـ أنّ كيفيّة البحث في أمر الزمان يختلف أساساً بين الحكماء وبين العلماء التجريبيّين ، فبحث الحكماء يرجع إلى حقيقة الزمن التي يُنتزع الزمان منها . وتنشأ نسبيّة الزمان ـ بناء على ما ذكرناه ـ من شدّة أو ضعف تجرّد الموجودات . بَيدَ أنّ بحث هؤلاء العلماء لا يرجع في الأساس إلى حقيقة الزمان ، بل إلى كيفيّة قياس الزمان ونسبيّته ، إذ إنّ هدفهم هو الحساب تبعاً لاختلاف العوامل الدخيلة في القياس . وبطبيعة الحال فحين تقوم القيامة وتبدّل الأرض غير الأرض ، فإنّ الحركات يمكن أن تتبدّل وتتغيّر بدورها ، فيدرك الناس الزمان في موقف يوم الجزاء في صورة أُخرى ، أي أنّهم يدركونه حسب إحساس التدرّج الموجود في ذلك العالم ، إلّا أنّ هذا الأمر لا يرتبط بالآيات والروايات الدالّة على أنّ الناس يدركون موقف الحساب يوم القيامة بصورة مختلفة ، إذ إنّ أمر تبدّل الأرض وتغيّر كيفيّة الحركة الجوهريّة محفوظ في موضعه ، أمّا هذا الاختلاف في إدراك زمان الموقف فيتعلّق بالحالات النفسانيّة للناس ، ويختلف بحسب التجرّد أو عدمه ، وبحسب مدى الانغمار في عالم الطبع .

إنّ مواقف القيامة وإطالتها بالنسبة إلى بعض الناس وعدم طولها بالنسبة إلى البعض الآخر الذين لا يحسّون بالزمان والتأخير، عائد إلى

⇐ الوجود ، ومنهم الملّا الروميّ وحافظ .

وكان يقول : أتمنّى لو كنت أعرف اللغة الفارسيّة لأُطالع كتب هذين العظيمين لأتمكّن أن أجد ـ مثلهما ـ السبيل المنتهي بمعرفة القدرة الكبيرة الجارية والمحيطة بموجودات العالم .

وقد سردت هذه العبارات بمضمونها باختلاف يسير في الألفاظ ـ انتهى مورد الحاجة من الرسالة الكريمة للصديق العزيز الأنصاريّ أمدّ الله في عمره الشريف .

اختلاف انغمار النفس في الآيات الإلهيّة وفي الأسماء السبحانيّة ، وفي الفناء في ذات الحقّ المتعال .

وبصورة عامّة فإنّ الذين ينسون أنفسهم في الدنيا ويلتحقون بالحقّ ، سوف لن يمكثوا يوم القيامة طويلاً ، ولن يدركوا الوقوف وزمان الموقف ، لأنّ القيامة هي ظهور عالم الدنيا ، ولأنّ الباطن هو تجلّي عالم الظاهر .

عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَانَ عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إذَا قَامَ إلَى الصَّلَاةِ كَأَنَّهُ سَاقُ شَجَرَةٍ لَا يَتَحَرَّكُ مِنْهُ إلَّا مَا حَرَّكَتْهُ الرِّيحُ ؛ وعَنْهُ : كَانَ عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إذَا قَامَ إلَى الصَّلَاةِ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، وَإذَا سَجَدَ لَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ حَتَّى يَرْفِضَ عَرَقاً .[1]

وبالجملة قد يتأثّر بعض الأنبياء والأولياء بعظمة الله وهيبته ، بحيث ينسى غير الله تعالى ويغفل عن جميع ما سواه ، حتّى عن بدنه ، ومن ذلك إخراج السهم عن رجله [2] عليه السلام في الصلاة وعدم تأثّره منه ، ومن ذلك غشواته حتّى يظنّ له الموت .[3]

وقد ورد في الرواية أنّ وليّ الله يؤتى به إلى الموقف فيهيّئ الله عزّ وجلّ لاستقباله عدداً من الحوريّات اللواتي خلقهنّ له ، فتبتهج الحوريّات اللاتي انتظرن وليّ الله السنوات المتمادية في شوق ومحبّة ، ويفرحن بدنوّ وصال محبوبهنّ ، ثمّ إنّ وليّ الله يغرق فجأة في أنوار الحقّ جلّ وعزّ بحيث ينسى سواه تماماً . ويُخيّل للحوريّات أنّ وليّ الله قد استغرق في النوم ، فيطفن ببدنه ويأنسن به علّه ينهض من نومه ، ويدعون ربّهنّ أن يوقظه

١ـ «أسرار الصلاة» للملكيّ التبريزيّ ص ١٩٨ ، الطبعة الحروفيّة .

٢ـ يقصد أمير المؤمنين عليه السلام .

٣ـ «أسرار الصلاة» ص ١٩٨ .

لأنّهن محزونات بفراقه ، فيأمر الله تعالى وليّه بالنزول ، فيعود هذا المؤمن إلى وعيه بعد ثمانين سنة قضاها غارقاً في أنوار الله ، وتبتهج حوريّات الجنّة وينغمرنّ في عالم المسرّة لأنّهن سيأنسنّ بمحبوبهنّ ، لكنّ وليّ الله يضرع فجأة إلى ساحة الحضرة الأحديّة : يا إلهي ! ما أسرع ما أهبطتني من حريمك وحرمك ؟!

فيعود وليّ الله بمجرّد هذا الكلام إلى حرم الله ثانية ويستغرق في أنوار جماله وجلاله .

گر افتد آن دو زلف چليپا به چنگ من
چندين هزار سلسله در پا كنم ترا
طُوبَى و سِدرِه گر به قيامت به من دهند
يك جا فداى قامت رعنا كنم ترا
خواهم شبى نقاب ز رويت بر افكنم
خورشيد كعبه ، ماهِ كليسا كنم ترا[1]

١ـ «ديوان فروغي بسطامي» ص ١ ، طبعة انتشارات جاويدان .
يقول : «لو تعلّقت يدي بذؤابتيك الشبيهتين بالصليب ، لأوثقتُ قدميَّ بسلاسلها الألوف .
ولو أُعطيت يوم القيامة شجرة طوبى والسّدرة ، لفديتها دفعةً واحدة لقامتك البهيّة !
سأسفر النقابَ عن وجهك ليلةً وأجعلك شمساً للكعبة وقمراً للكنيسة !» .



المجلس الثامن والخمسون

عمومية الحساب والسؤال يوم القيامة



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه ربّ العالمين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ.[1]

يأتي عالم السؤال بعد عالم الحساب ويعدّ من توابعه ولواحقه . والسؤال بمعنى الاستجواب والاستيضاح من المسؤول عن حقيقة ما عنده . وينبغي أن تُحاسب نفوس الناس يوم القيامة عمّا اكتسبت في الدنيا ، سواءً بما يتعلّق بجانب الشقاء أم بجانب السعادة ، وسيتّضح آنذاك تبعات آثار النفس ولواحقها ولوازمها ، فتُحاسب عليها حساباً يحدّد مصيرها . ذلك أنّ يوم القيامة هو يوم الظهور والبروز ، ويوم تحمّل المسؤوليّات والالتزامات الدنيويّة : يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ.[2]

وباعتبار أنّ السريرة هي الموضع الخاصّ من النفوس الناطقة الذي يمثّل النيّة والفكر والأسرار ، فإنّه يقال للسرّ الخفيّ بهذه المناسبة سريرةً .

واليوم الذي تبلى فيه السرائر هو اليوم الذي تظهر فيه مواضع أسرار

١ـ الآيتان ٩٢ و ٩٣ ، من السورة ١٥ : الحجر .

٢ـ الآية ٩ ، من السورة ٨٦ : الطارق .

الإنسان وتتجلّى خارج ستار الخفاء .

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ .[١]

إِن تُبْدُوا مَا فِيَ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ آللَّهُ .[٢]

ويُلاحظ في الآية الأخيرة عموميّتها وشمولها لكلّ سريرة ونيّة . ومع أنّ ما جاء في الرواية من أنّ هذه الآية قد نُسخت بالآية الشريفة : **إِلَّا آللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ آلْمَغْفِرَةِ ،**[٣] هو كلام متين وصائب ، إلّا أنّه ينبغي العلم بأنّ النسخ قد جاء هنا بمعنى التفسير والبيان ، وأنّه ليس بياناً لغاية الحكم وانتهائه وانقضاء مدّته . فالنسخ بهذا المعنى مختصّ بالأُمور التشريعيّة والأحكام ، وليس هناك من معنى للنسخ في الحقائق .[٤]

أجل ، وسنبيّن بعض الآيات الواردة في السؤال :

وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .[٥]

تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ .[٦]

فَلَنَسْئَلَنَّ آلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ آلْمُرْسَلِينَ .[٧]

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ .[٨]

١ـ الآية ٢٨ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٢ـ الآية ٢٨٤ ، من السورة ٢ : البقرة .

٣ـ الآية ٣٢ ، من السورة ٥٣ : النجم .

٤ـ أورد العلّامة الطباطبائيّ هذا المطلب في «رسالة المعاد» المخطوطة ، ص ٥٠ ؛ إلّا أنّه قد نُقلت روايات في تفسير «الميزان» وفي التفاسير الأُخرى ذيل الآية ٢٨٤ ، من السورة ٢ : البقرة بأنّ هذه الآية منسوخة بآية : «لا يكلّف آلله نفسًا إلّا وسعها» .

٥ـ الآية ٩٣ ، من السورة ١٦ : النحل .

٦ـ الآية ٥٦ ، من السورة ١٦ : النحل .

٧ـ الآية ٦ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٨ـ الآية ٢٤ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا .[1]

وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا .[2]

أمّا الروايات الواردة في هذا الباب فكثيرة وذات مضامين مختلفة ، ويمكن تقسيمها بلحاظ المضمون إلى عدّة طوائف :

الأُولى : الروايات الدالّة على شمول الحساب والسؤال لجميع الناس .

يروي الشيخ الطوسيّ في كتابه «الأمالي» عن جماعة ، عن أبي المفضّل عن محمّد بن الحسن بن حفص ، عن هشام النهشليّ ، عن عمر بن هاشم عن معروف بن خرّبوذ ، عن عامر بن واثلة ، عن أبي بردة الأسلميّ قال :

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : لَا يَزُولُ قَدَمُ عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ ؟ وَعَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِمَّا اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ حُبِّنَا أَهْلَ البَيْتِ .[3]

١ـ الآية ٣٤ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٢ـ الآية ١٥ ، من السورة ٣٣ : الأحزاب .

٣ـ «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٥٨ و ٢٥٩ و ٢٦١ ، الطبعة الحروفيّة ؛ والروايات الواردة في «الخصال» موجودة في ص ٢٥٣ من الطبعة الحروفيّة ؛ وقد أورد عليّ بن إبراهيم في تفسيره الرواية ذيل آية : إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ، في ص ٣٨٢ من الطبعة الحجريّة . وذكر الطبرسيّ الرواية في تفسير «مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٤١٦ ، طبعة صيدا ، ذيل نفس الآية نقلاً عن «تفسير عليّ بن إبراهيم» ؛ ويروي الطبريّ في كتاب «بشارة المصطفى لشيعة المرتضى» ص ١٢٤ ، عن الحسن بن الحسين بن بابويه ، عن الشيخ الطوسيّ ، عن الشيخ المفيد ، عن جعفر بن محمّد ، عن أبيه ، عن سعد بن عبد الله ، عن أحمد بن محمّد بن عيسى ، عن الحسن بن محبوب ، عن أبي حمزة الثماليّ ، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله : لا تزول قدم عبدٍ يوم القيامة بين يدي الله عزّ وجلّ حتّى يسأله عن أربع خصال : عمرك فيما أفنيته ، وجسدك فيما أبليته ، ومالك من أين ⇦

وقد أورد الصدوق رواية بهذا المضمون في كتابيه «الخصال» و«الأمالي» عن محمّد بن أحمد الأسديّ البردعيّ ، عن رقيّة بنت إسحاق بن موسى بن جعفر ، عن أبيه ، عن آبائه ، عن رسول الله .كما وردت رواية مشابهة لها في «تفسير عليّ بن إبراهيم» عن ابن محبوب ، عن الثماليّ ، عن الإمام الباقر عليه السلام ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله .

وروي في «الأمالي» للطوسيّ عن الشيخ المفيد ، عن أحمد بن محمّد ابن الوليد ، عن أبيه ، عن محمّد بن الحسن الصفّار ، عن عليّ بن محمّد القاسانيّ ، عن القاسم بن محمّد الأصفهانيّ ، عن سليمان بن داود المنقريّ ، عن سُفيان بن عُيَينة ، قال :

سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ : مَا مِنْ عَبْدٍ إلَّا وَلِلَّهِ عَلَيْهِ حُجَّةٌ إمَّا فِي ذَنْبٍ اقْتَرَفَهُ وَإمَّا فِي نِعْمَةٍ قَصَّرَ عَنْ شُكْرِهَا.[1]

وروى الطوسيّ في «الأمالي» بنفس السند السابق عن ابن عُيينة ، عن حميد بن زياد ، عن عطاء بن يسار :

عَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : يُوقَفُ العَبْدُ بَيْنَ يَدَي اللَهِ ؛ فَيَقُولُ : قِيسُوا بَيْنَ نِعَمِي عَلَيْهِ وَبَيْنَ عَمَلِهِ !

فَتَسْتَغْرِقُ النِّعَمُ العَمَلَ . فَيَقُولُونَ : قَدِ اسْتَغْرَقَ النِّعَمُ العَمَلَ ؛ فَيَقُولُ : هَبُوا لَهُ نِعَمِي وَقِيسُوا بَيْنَ الخَيْرِ وَالشَّرِّ مِنْهُ !

فَإنِ اسْتَوَى العَمَلَانِ أَذْهَبَ اللَهُ الشَّرَّ بِالخَيْرِ وَأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ ؛ وَإنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ أَعْطَاهُ اللَهُ بِفَضْلِهِ ؛ وَإنْ كَانَ عَلَيْهِ فَضْلٌ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى

⇦ اكتسبته وأين وضعته ، وعن حبّنا أهل البيت . فقال رجل من القوم : وما علامة حبّكم يا رسول الله ؟ فقال : محبّة هذا ، ووضع يده على رأس عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

١ـ «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٦٢ ، الطبعة الحروفيّة ، نقلاً عن «أمالي الطوسيّ» .

لَمْ يُشرِكْ بِاللَهِ تَعَالَى وَاتَّقَى الشِّرْكَ بِهِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ المَغْفِرَةِ ، يَغْفِرُ اللَهُ لَهُ بِرَحْمَتِهِ إنْ شَاءَ وَيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِ بِعَفْوِهِ.[١]

وفي «عدّة الداعي» : وفي الخبر النبويّ : أنّه يُفتح للعبد يوم القيامة على كلّ يومٍ من أيّام عمره أربع وعشرين خزانة عدد ساعات الليل والنهار ؛ فخزانة تجدها مملوّةً نوراً وسروراً ، فيناله عند مشاهدتها من الفرح والسرور ما لو وزّع على أهل النار لأدهشهم عن الإحساس بألم النار ، وهي الساعة التي أطاع فيها ربّه ؛ ثمّ يفتح له خزانة أُخرى فيراها مظلمة منتنة مفزعة ، فيناله منها عند مشاهدتها من الفزع والجزع ما لو قسّم على أهل الجنّة لنغّص عليهم نعيمها ، وهي الساعة التي عصى فيها ربّه ؛ ثمّ يفتح له خزانة أُخرى فيراها خالية ليس فيها ما يسرّه ولا يسوؤه ، وهي الساعة التي نام فيها أو اشتغل فيها بشيءٍ من مباحات الدنيا ، فيناله من الغبن والأسف على فواتها حيث كان متمكّناً من أن يملأها حسنات ما لا يوصف ، ومن هذا قوله تعالى : **ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ**.[٢]

وروي أيضاً في «عدّة الداعي» :

إنَّ اللَهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَجْمَعُ الخَلَائِقَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ حُقُوقٌ ، وَلَهُ تَعَالَى قِبَلَهُمْ تَبِعَاتٌ . فَيَقُولُ : عِبَادِي ! مَا كَانَ لِي قِبَلَكُمْ فَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكُمْ ، فَهَبُوا بَعْضَكُمْ تَبِعَاتِ بَعْضٍ ، وَادْخُلُوا الجَنَّةَ جَمِيعاً بِرَحْمَتِي.[٣]

١ـ «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٦٢ ، الطبعة الحروفيّة ، نقلاً عن «الأمالي» للطوسيّ؛ وقد وردت هذه الرواية في «عدّة الداعي» أيضاً ، ص ١٠٧.

٢ـ «عدّة الداعي» ص ٨٢ ، الطبعة الحجريّة . والآية هي الآية ٩ ، من السورة ٦٤: التغابن.

٣ـ «عدّة الداعي» ص ٨٢.

وروى الصدوق في «التوحيد» عن ابن الوليد، عن الصفّار، عن ابن هاشم، عن ابن معبد، عن دُرُست، عن ابن أُذَيْنة، عن الإمام الصادق عليه السلام، قال:

قُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ! مَا تَقُولُ فِي القَضَاءِ وَالقَدَرِ؟

قَالَ: أَقُولُ: إنَّ اللَهَ تَعَالَى إذَا جَمَعَ العِبَادَ يَوْمَ القِيَامَةِ سَأَلَهُمْ عَمَّا عَهِدَ إلَيْهِمْ وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ عَمَّا قَضَى عَلَيْهِمْ.[١]

وروى العيّاشيّ في تفسيره، ذيل الآية الكريمة: **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا.**[٢] عن الحسين بن هارون عن الإمام الصادق عليه السلام قال: **يُسْأَلُ السَّمْعُ عَمَّا يَسْمَعُ! وَالبَصَرُ عَمَّا يَطْرِفُ! وَالفُؤَادُ عَمَّا يَعْقِدُ عَلَيْهِ.**[٣]

وروي أيضاً في «تفسير العيّاشيّ» عن الحسن، قَالَ:

كُنْتُ أُطِيلُ القُعُودَ فِي المَخْرَجِ لِأَسْمَعَ غِنَاءَ بَعْضِ الجِيرَانِ؛ قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ، فَقَالَ لِي: يَا حَسَنُ! «إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا». السَّمْعُ وَمَا وَعَى، وَالبَصَرُ وَمَا رَأَى، وَالفُؤَادُ وَمَا عَقَدَ عَلَيْهِ.[٤]

وروى أيضاً في «تفسير العيّاشيّ» عن أبي جعفر،[٥] قال:

١ـ «التوحيد» للصدوق ص ٣٦٥، طبعة الحيدريّ، سنة ١٣٨٧.

٢ـ الآية ٣٦، من السورة ١٧: الإسراء.

٣ـ «تفسير العيّاشيّ» ج ٢، ص ٢٩٢؛ ووردت كذلك في «تفسير البرهان» ج ٢، ص ٤٢١، الطبعة الحروفيّة ذات الخمسة أجزاء؛ وفي «تفسير الصافي» ج ١، ص ٩٦٩.

٤ـ «تفسير العيّاشيّ» ج ٢، ص ٢٩٢؛ وورد أيضاً في «تفسير البرهان» و«تفسير الصافي» ذيل الآية المذكورة.

٥ـ «أبو جعفر» كُنية محمّد بن عليّ بن النعمان الأحول مؤمن الطاق، وهي كذلك ⇐

كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ! أَدْخُلُ كَنِيفاً لِي ، وَلِي جِيرَانٌ وَعِنْدَهُمْ جَوَارِي يَتَغَنَّيْنَ وَيَضْرِبْنَ بِالعُودِ ؛ فَرُبَّمَا أَطَلْتُ الجُلُوسَ اسْتِمَاعاً مِنِّي لَهُنَّ.

فَقَالَ : لَا تَفْعَلْ !

فَقَالَ الرَّجُلُ : وَاللهِ مَا أَتَيْتُهُنَّ ؛ إِنَّمَا هُوَ اسْتِمَاعٌ أَسْمَعُهُ بِأُذُنِي.

فَقَالَ لَهُ : أَمَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ : «إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا» ؟!

قَالَ : بَلَى وَاللهِ فَكَأَنِّي لَمْ أَسْمَعْ هَذِهِ الآيَةَ قَطُّ مِنْ كِتَابِ اللهِ مِنْ عَجَمِيٍّ وَلَا مِنْ عَرَبِيٍّ ؛ لَا جَرَمَ أَنِّي لَا أَعُودُ إِنْ شَاءَ اللهُ ؛ وَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللهَ.

فَقَالَ لَهُ : قُمْ فَاغْتَسِلْ وَصَلِّ مَا بَدَا لَكَ ! فَإِنَّكَ كُنْتَ مُقِيماً عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ. مَا كَانَ أَسْوَأَ حَالَكَ لَوْ مِتَّ عَلَى ذَلِكَ ! احْمَدِ اللهَ وَاسْأَلْهُ التَّوْبَةَ مِنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُ ، فَإِنَّهُ لَا يَكْرَهُ إِلَّا كُلَّ القَبِيحِ ؛ وَالقَبِيحَ دَعْهُ لِأَهْلِهِ ، فَإِنَّ لِكُلٍّ أَهْلاً.[1]

وقد روى العلّامة الطباطبائيّ مدّ ظلّه العالي هذه الرواية عن «تفسير

⇐ كُنية محمّد بن مسلم بن رباح الثقفيّ الطائفيّ ، وكلاهما من أعاظم أصحاب وتلامذة الإمام الصادق عليه السلام ؛ ويحتمل قويّاً أن يكون المراد بأبي جعفر في هذه الرواية مؤمن الطاق. وذكر هذه الكُنية لهذين الرجلين الجليلين المامقانيّ في «تنقيح المقال» ج ٣، ص ٨، باب الكنى.

١ـ «تفسير العيّاشيّ» ج ٢ ، ص ٢٩٢ و ٢٩٣ ؛ و «تفسير البرهان» ج ٢ ، ص ٤٢١، الطبعة الحروفيّة ذات الخمسة أجزاء ؛ وفي الطبعة الحجريّة ج ١ ، ص ٦٠٥ ، حيث روى هذه الرواية بنفس هذه العبارات عن محمّد بن يعقوب الكلينيّ ، عن عليّ بن إبراهيم ، عن هارون ابن مسلم ، عن مسعدة بن زياد.

العيّاشيّ» بإسناده عن أبي جعفر ضمن حديث مفصّل.[١]

وروي كذلك في «تفسير العيّاشيّ» عن أبي عمرو الزبيريّ، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال:

إنّ الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح بني آدم، وقسّمه عليها، فليس من جوارحه جارحة إلّا وقد وكّلت به من الإيمان بغير ما وكّلت به أُختها؛ ومنها عيناه اللتان ينظر بهما، ورجلاه اللتان يمشي [بهما]؛ ففرض على العين أن لا تنظر إلى ما حرّم الله عليه، وأن تغضّ عمّا نهاه الله عنه ممّا لا يحلّ له، وهو عمله، وهو من الإيمان، قال الله تبارك وتعالى:

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا.[٢]

فهذا ما فرض الله من غضّ البصر عمّا حرّم الله وهو عملها وهو من الإيمان؛ وفرض اللهُ على الرِّجلينِ أن لا يمشي بهما إلى شيء من معاصي الله، وفرض عليهما المشي فيما فرض الله، فقال:

وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا.[٣]

وقال: وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ.[٤]

١ـ «تفسير الميزان» ج ١٣، ص ١٠٧.

٢ـ الآية ٣٦، من السورة ١٧: الإسراء.

٣ـ الآية ٣٧، من السورة ١٧: الإسراء.

٤ـ «تفسير العيّاشيّ» ج ٢، ص ٢٩٣؛ و «تفسير البرهان» ج ٣، ص ٤٢١، الطبعة الحروفيّة. والآية هي: الآية ١٩، من السورة ٣١: لقمان.

وروى المرحوم الكلينيّ في «الكافي» عن عدّة من الأصحاب، عن البرقيّ، عن الحسن بن عليّ بن يقطين، عن محمّد بن سنان، عن أبي الجارود، عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام، قَالَ:

إنَّمَا يُدَاقُّ اللَّهُ العِبَادَ فِي الحِسَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ مَا آتَاهُمْ مِنَ العُقُولِ فِي الدُّنْيَا.[1]

كما روى الكلينيّ في «الكافي» عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، والعدّة، عن أحمد بن محمّد وسهل جميعاً، عن ابن محبوب، عن مالك بن عطية، عن يونس بن عمّار، قال: قال أبو عبد الله (الصادق) عليه السلام:

إنّ الدواوين يوم القيامة ثلاثة، ديوان فيه النعم، وديوان فيه الحسنات، وديوان فيه السيّئات، فيقابل بين ديوان النعم وديوان الحسنات، فتستغرق النعمُ ديوانَ الحسنات، ويبقى ديوانُ السيّئات، فيُدعى ابن آدم المؤمن للحساب، فيتقدّم القرآنُ أمامه في أحسن صورةٍ فيقول: يا ربِّ! أنا القرآنُ، وهذا عبدُك المؤمن، قد كان يُتعب نفسَه بتلاوتي، ويُطيل ليلَه بترتيلي، وتفيض عيناه إذا تهجّد، فأرْضِهِ كما أرضاني.

قال: فيقول العزيزُ الجبّار: ابسطْ يَمينَك، فيملأها من رضوان الله العزيز الجبّار، ويملأ شماله من رحمة الله، ثُمّ يُقال: هذه الجنّة مُباحة لك فاقرأْ واصعد؛ فإذا قرأ آيةً صعدَ درجةً.[2]

وقد أورد الحسين بن سعيد في كتابَيْهِ صدر هذه الرواية فقط الذي يتعلّق بالدواوين الثلاثة واستغراق النعم ديوانَ الحسنات.[3]

١ـ «أُصول الكافي» ج ١، ص ١١.
٢ـ «أُصول الكافي» ج ٢، ص ٦٠٢.
٣ـ «بحار الأنوار» ج ٧، ص ٢٧٣.

وجاء في «نهج البلاغة» :

أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ ، وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ ؛ فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللَّهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ» ؛ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ العَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الهَنَاتِ ؛ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ ، فَظُلْمُ العِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً. القِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ ؛ لَيْسَ هُوَ جَرْحاً بِالمُدَى وَلَا ضَرْباً بِالسِّيَاطِ ؛ وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذَلِكَ مَعَهُ. [1]

وروى الكلينيّ في «روضة الكافي» عن عدّة من أصحابنا ، عن سهل ابن زياد ، عن الحسن بن محبوب ، عن عليّ بن رئاب ، عن أبي عُبيدة الحذّاء ، عن ثوير بن أبي فاختة ، قال :

سمعتُ عليّ بن الحسين عليه السلام يحدّث في مسجد رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فقال : حدّثني أبي أنّه سمع أباه عليّ بن أبي طالب عليه السلام يحدّث الناس ، قال : إذا كان يومُ القيامة بعثَ اللهُ تبارك وتعالى الناسَ من حفرهم غُزلاً بهماً جُرداً مُرداً (أي ليس لهم من اللباس الدنيويّ ما يسترهم) في صعيد واحد ، يسوقهم النور وتجمعهم الظلمة ، حتّى يقفوا على عقبة المحشر ، فيركب بعضُهم بعضاً ويزدحمون دونها ، فيُمنعون من المضيّ ، فتشتدّ أنفاسُهم ويكثر عرقُهم ، وتضيقُ بهم أُمورهم ، ويشتدّ ضجيجهم ، وترتفعُ أصواتهم. قال : وهو أوّلُ هوْلٍ من أهوال يوم القيامةِ.

قالَ : فيُشرف الجبّارُ تبارك وتعالى عليهم مِن فوقِ عَرْشه في ظلال من الملائكة ، فيأمر مَلَكاً من الملائكة فيُنادي فيهم : يا معشر الخلق أنصتوا واستمعوا منادي الجبّار !

١ـ «نهج البلاغة» ، الخطبة ١٧٤.

قال : فيسمع آخرُهم كما يسمع أوّلهم . قال : فتنكسر أصواتُهم عند ذلك ، وتخشع أبصارهم ، وتضطرب فرائصهم ، وتفزع قلوبهم ، ويرفعون رؤوسهم إلى ناحية الصوت مهطعين إلى الداعي .

قال : فعند ذلك يقول الكافر : هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ.[1]

قال : فيُشرف الجبّارُ عَزّ وجلّ الحَكَمُ العدل عليهم فيقول : أنا اللهُ لا إله إلّا أنا الحَكَمُ العدلُ الذي لا يَجور ؛ اليوم أحكمُ بَينكم بعَدْلي وقسطي ، لا يُظلَم اليومَ عندي أحدٌ ؛ اليوم آخذ للضعيفِ من القويِّ حقَّه ، ولصاحبِ المظلَمةِ بالمظلمةِ بالقصاص من الحسنات والسيّئات ،[2] وأُثيب على الهبات ، ولا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالم ولا أحد عنده مظلَمة ، إلّا مظلمة يهبها صاحبها وأُثيبه عليها وآخذ له بها عند الحساب ، فتلازموا أيّها الخلائق واطلبوا مظالمكم عند مَن ظلمكم بها في الدنيا ، وأنا شاهدٌ لكم عليهم وكفى بي شهيداً .

قال : فيتعارفون ويتلازمون ، فلا يبقى أحدٌ له عند أحد مظلمة أو حقّ إلّا لزمه بها . قال : فيمكثون ما شاء الله ، فيشتدّ حالُهم ويكثر عرقُهم ويشتدّ غمُّهم وترتفع أصواتُهم بضجيج شديد ، فيتمنّون الخلاص منه بترك مظالمهم لأهلها .

قال : ويطّلع الله عزّ وجلّ على جهدهم ، فينادي منادٍ من عند الله تبارك وتعالى ـ يسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم ـ :

يا معشر الخلائق ! أنصتوا لداعي الله تبارك وتعالى واسمعوا . إنّ الله تبارك وتعالى يقول [لكم] : أنا الوهّاب ، إن أجبتُم أَن تواهبوا فتواهبوا ، وإن

١ـ الآية ٨ ، من السورة ٥٤ : القمر .

٢ـ أي أعطي حسنات الظالم للمظلوم ، وسيّئات المظلوم للظالم .

لم تواهبوا أخذتُ لكم بمظالمكم .

قال : فيفرحون بذلك لشدّة جهدهم وضيق مسلكهم وتزاحمهم .

قال : فيهب بعضُهم مظالمهم رجاء أن يتخلّصوا ممّا هم فيه ويبقى بعضُهم فيقول : يا ربِّ ! مظالمنا أعظم من أن نهبها . قال : فيُنادي منادٍ من تلقاء العرش : أين رضوان خازن الجنان ، جنان الفردوس ؟

قال : فيأمره الله عزّ وجلّ أن يطلع من الفردوس قصراً من فضّة بما فيه من الأبنية والخدم . قال : فيطلعه عليهم في حفافة القصر الوصائف والخدم . قال : فينادي مناد من عند الله تبارك وتعالى : يا معشر الخلائق ! ارفعوا رؤوسكم فانظروا إلى هذا القصر ! قال : فيرفعون رؤوسهم فكلّهم يتمنّاه .

قال : فينادي منادٍ من عند الله تعالى : يا معشر الخلائق ! هذا لكلِّ مَن عفى عن مؤمن قال : فيعفون كلّهم إلّا القليل .

قال : فيقول الله عزّ وجلّ : لا يجوز إلى جنّتي اليوم ظالم ، ولا يجوز إلى ناري اليوم ظالم ولأحدٍ من المسلمين عنده مظلمة حتّى يأخذها منه عند الحساب ؛ أيّها الخلائق ! استعدّوا للحساب . قال : ثمّ يخلّي سبيلهم فينطلقون إلى العقبة يكرد [1] بعضهم بعضاً ، حتّى ينتهوا إلى العرصة والجبّار تبارك وتعالى على العرش ، قد نُشرت الدواوين ونُصبت الموازين وأُحضر النبيّون والشهداء وهم الأئمّة ، يشهد كلُّ إمامٍ على أهل عالمه بأنّه قد قام فيهم بأمر الله عزّ وجلّ ، ودعاهم إلى سبيل الله .

قال (ثوير بن فاختة راوي الرواية) : فقال له رجلٌ من قُريش : يا بن رسول الله ! إذا كان للرجل المؤمن عند الرجل الكافر مظلمة ، أيّ شيء

١ـ الكرد : الطرد والدمع .

يأخذ من الكافر وهو من أهل النار ؟! قال : فقال له عليُّ بن الحسين عليه السلام : يُطرح عن المسلم من سيّئاته بقدر ما له على الكافر فيعذّب الكافر بها مع عذابه بكفره عذاباً بقدر ما للمسلم قِبلَه من مظلمة .

قال : فقال له القرشيُّ : فإذا كانت المظلمة للمسلم عند مسلم ، كيف تؤخذ مظلمته من المسلم ؟ قال : يؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته بقدر حقّ المظلوم ، فتزاد على حسنات المظلوم .

قال : فقال له القرشيّ : فإن لم يكن للظالم حسنات ؟ قال : إن لم يكن للظالم حسنات ، فإنّ للمظلوم سيّئات ؛ يؤخذ من سيّئات المظلوم فتزاد على سيّئات الظالم .[1]

وروى الصدوق في «علل الشرائع» عن ابن إدريس ، عن أبيه ، عن يعقوب بن يزيد مرفوعاً عن أحدهم عليهم السلام ، قال :

يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَاحِبِ الدَّيْنِ يَشْكُو الوَحْشَةَ ؛ فَإِن كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَتْ مِنْهُ لِصَاحِبِ الدَّيْنِ . قَالَ : وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُلْقِيَ عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِ الدَّيْنِ ـ الحديث .[2]

وقد وردت هذه الرواية في «العلل» بهذه الألفاظ التي ذكرناها ، ونقلها المجلسيّ رضوان الله عليه بهذا اللفظ ، إلّا أنّه قال عن لفظ «الوحشة» الذي لم يكن له معنى مناسب : ولعلّه كان مكانه غريمه أو نحوه .[3]

أجل ، فلهذه الطائفة من الروايات دلالة على شمول السؤال والحساب لجميع الخلائق .

١ـ «روضة الكافي» ص ١٠٤ إلى ١٠٦ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٦٨ إلى ٢٧٠ .

٢ـ «علل الشرائع» ج ٢ ، ص ٥٢٨ ؛ طبعة النجف ، سنة ١٣٨٥ هجريّة .

٣ـ «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٧٤ .

وأمّا عن عموميّة الحساب والسؤال ، بلحاظ الجمع بين طائفتين من الآيات القرآنيّة ، فيطرأ سؤال في البيْن ؛ ذلك أنّ طائفة من الآيات تقول :

فَلَنَسْئَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ.[1]

فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ.[2]

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ.[3]

أمّا الطائفة الأُخرى فتقول : **وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ.**[4]

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ.[5]

وبينما تقول الطائفة الأُولى بأنّ الجميع سيُسألون يوم القيامة ، تصرّح الطائفة الثانية بأنّهم لن يُسألوا . فكيف يمكن الجمع بين مضمون هاتين الطائفتين من الآيات ؟

قال الشيخ الطبرسيّ : والجواب عنه من وجوه ؛ أحدها أنّه سبحانه نفى أن يسألهم سؤال استرشاد واستعلام ، وإنّما يسألهم سؤال تبكيت وتقريع ، ولذلك قال عقيبه : **يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ.**[6]

وثانيها : أنّهم إنّما يُسألون يوم القيامة ، كما قال : **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ**؛[7] ثمّ تنقطع مساءلتهم بعد حصول العقوبة ودخولهم النار .

١ـ الآيتان ٦ و ٧ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢ـ الآيتان ٩٢ و ٩٣ ، من السورة ١٥ : الحجر .

٣ـ الآية ٢٤ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

٤ـ الآية ٧٨ ، من السورة ٢٨ : القصص .

٥ـ الآية ٣٩ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

٦ـ مقطع من الآية ٤١ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

٧ـ الآية ٢٤ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

وثالثها : أنّ في القيامة مواقف ، ففي بعضها يُسأل ، وفي بعضها لا يُسأل . فلا تضادّ بين الآيات .

وأمّا الجمع بين قوله : **فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ**،[1] وقوله : **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ**،[2] فمعنى الأوّل أن لا يسأل بعضهم بعضاً سؤال استخبار عن الحال التي جهلها بعضهم لتشاغلهم عن ذلك . والثاني : أن يسأل بعضهم بعضاً سؤال لوم وتوبيخ كما قال في موضع آخر : **يتلاومون**.[3]

وقال أستاذنا العلّامة الطباطبائيّ مدّ ظلّه في ذيل الآية الواقعة في سورة القصص : **وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ** ، باعتبار وقوع هذه الآية عقب الآيات النازلة في شأن فرعون وعذابه :

ظاهر السياق أنّ المراد به بيان السنّة الإلهيّة في تعذيب المجرمين وإهلاكهم بذنوبهم ، فيكون كناية عن عدم إمهالهم والإصغاء إلى ما لفّقوه من المعاذير أو هيّؤوه من التذلل والإنابة ليرجوا بذلك النجاة ،كما أنّ أُولي الطول والقوّة من البشر إذا أرادوا تعذيب من يتحكّمون عليه سألوه عن ذنبه ليقضوا عليه بالجرم ثمّ العذاب ، وربّما صرف المجرم عذابهم عن نفسه بما لفّقه من المعاذير ؛ لكنّ الله سبحانه لا يسأل المجرمين عن ذنوبهم لعلمه بحقيقة الحال ، وإنّما يقضي عليهم قضاءً فيأتيهم عذاب غير مردود .[4]

١ـ الآية ١٠١ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

٢ـ الآية ٥٠ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

٣ـ «مجمع البيان» ج ٢ ، ص ٣٩٨ . والكلمة الأخيرة هي من الآية ٣٠ ، من السورة ٦٨ : القلم .

٤ـ تفسير «الميزان» ج ١٦ ، ص ٧٩ .

وقال في ذيل الآية الواقعة في سورة الرحمن : فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ :

والسؤال المنفي هو النحو المألوف من السؤال ؛ ولا ينافي نفي السؤال في هذه الآية إثباته في قوله :

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ، وقوله : فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ؛ لأنّ اليوم ذو مواقف مختلفة يُسأل في بعضها ، ويختم على الأفواه في بعضها فتتكلّم الأعضاء ، ويعرف بالسيماء في بعضها .[1]

وينبغي أن يُعلم بأنّ عموميّة السؤال لجميع الخلائق تشمل الأنبياء والأئمّة بدورهم ؛ منتهى الأمر أنّ الأُمم تُسأل عن كيفيّة طاعتها للأنبياء والأئمّة ، بينما يُسأل الأنبياء والأئمّة عن كيفيّة إبلاغهم أُممهم ، وعن مدى طاعة أُممهم لهم .

روى الكلينيّ في «الكافي» عن أبي عليّ الأشعريّ ، عن ابن عبد الجبّار ، عن ابن أبي نجران ، عن أبي جميلة ، عن جابر ، عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام ، قَالَ :

قَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : يَا مَعَاشِرَ قُرَّاءِ القُرْآنِ ! اتَّقُوا اللَهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا حَمَلَكُمْ مِن كِتَابِهِ ، فَإِنِّي مَسْؤُولٌ وَإنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ ! إنِّي مَسْؤُولٌ عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتُسْأَلُونَ عَمَّا حُمِّلْتُمْ مِنْ كِتَابِ اللَهِ وَسُنَّتِي .[2]

سؤال النبيّ نوح وإجابته في موقف القيامة

كما يروي الكلينيّ في «الكافي» عن محمّد بن يحيى ، عن أحمد بن

١ـ تفسير «الميزان» ج ١٩ ، ص ١٢١ .

٢ـ «أُصول الكافي» ج ٢ ، ص ٦٠٦ .

محمّد ، عن محمّد بن خالد ، عن القاسم بن محمّد ، عن جميل بن صالح ، عن يوسف بن أبي سعيد ، قال :

كنتُ عند أبي عبد الله عليه السلام ذات يوم ، فقال لي : إذاكان يوم القيامة وجمع الله تبارك وتعالى الخلائق ،كان نوح صلّى الله عليه أوّل مَن يدعى به فيقال له : هل بلّغتَ ؟ فيقول : نعم . فيقال له : مَن يشهد لك ؟ فيقول : محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله .

قال : فيخرج نوح صلّى الله عليه فيتخطّى الناس حتّى يجيء إلى محمّد صلّى الله عليه وآله وهو على كثيب المسك ومعه عليّ عليه السلام ، وهو قول الله عزّ وجلّ : **فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا**؛[1] فيقول نوح **لِمُحَمَّدٍ** صلّى الله عليه وآله : يا محمّد ! إنّ الله تبارك وتعالى سألني : هل بلّغت ؟ فقلتُ : نعم ، فقال : مَن يشهد لك ؟ فقلتُ : محمّد . فيقول : يا جعفر ويا حمزة ! اذهبا واشهدا له أنّه قد بلّغ . فقال أبو عبد الله عليه السلام : **فَجَعْفَر وحَمْزَة** هما الشاهدان للأنبياء عليهم السلام بما بلّغوا . فقلت : جُعلت فداك فعليٌّ عليه السلام أين هو ؟ فقال : هو أعظم منزلةً من ذلك .[2]

كما روى في «الكافي» عن عليّ بن إبراهيم ، عن محمّد بن عيسى ، عن يونس ، عن رجل ، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام ، قَالَ :

قَالَ الخِضْرُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا مُوسَى ! إنَّ أَصْلَحَ يَوْمَيْكَ الَّذِي هُوَ أَمَامَكَ ! فَانْظُرْ أَيَّ يَوْمٍ هُوَ ، وَأَعِدَّ لَهُ الجَوَابَ ، فَإنَّكَ مَوْقُوفٌ وَمَسْؤُولٌ ! وَخُذْ مَوْعِظَتَكَ مِنَ الدَّهْرِ ، فَإنَّ الدَّهْرَ طَوِيلٌ قَصِيرٌ .[3]

١ـ الآية ٢٧ ، من السورة ٦٧ : الملك .

٢ـ «روضة الكافي» ص ٢٦٧ .

٣ـ طويل باعتبار أنّ آلاف السنين المتمادية قد انقضت من الدهر ولم ينتهِ بعد ؛ ⇦

فَاعْمَلْ كَأَنَّكَ تَرَى ثَوَابَ عَمَلِكَ لِيَكُونَ أَطْمَعَ لَكَ فِي الآخِرَةِ، فَإِنَّ مَا هُوَ آتٍ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا قَدْ وَلَّى مِنْهَا.[1]

ويتّضح ممّا قيل أنّ الأنبياء يُحاسبون ويُسألون بدورهم، منتهى الأمر أنّ حساب كلّ امرئ وسؤاله يتناسبان معه ومع شؤونه. فحساب الأنبياء في منتهى الدقّة والعمق والخطورة، إذ كلّما ارتفعت الدرجة والمقام والمنزلة، زادت معها أهمّيّة التكاليف وخطورتها.

إنّ جميع الكائنات ـ عدا الذات القدسيّة للحضرة الأحديّة سبحانه وتعالى ـ ممكنة الوجود، والأنبياء هم بشر كالآخرين، إلّا أنّهم نالوا هذه المقامات تبعاً للتكليف ومجاهدة النفس. وحيثما كان هناك تكليف، تبعه السؤال والحساب. وعصمتهم لا تنافي تكليفهم، لأنّ العصمة لا تسلب منهم إرادتهم واختيارهم. وما دامت الإرادة والاختيار لدى المرء، فسيوجد معهما التكليف والمجاهدة، والسؤال والحساب.

وقد بحثنا بحمد الله ومنّه في هذا الموضوع بما تيسّر في الجزء الأوّل من كتاب «معرفة الإمام» وأوضحنا أنّ العصمة لا تستدعي سلب الإرادة من المعصومين، ولا تجعل أفعالهم إجباريّة واضطراريّة، بل إنّ قدرهم ومنزلتهم مستمدّان من أنّهم ـ في عين اختيارهم ـ لا يرتكبون الذنوب والأخطاء، ولولا ذلك لما كان للعمل الاضطراريّ من فضيلة. قال أُستاذنا العلّامة الطباطبائيّ في أمر عدم منافاة عصمة الأنبياء للتكاليف الإلهيّة:

وأمّا كون الأنبياء معصومين بعصمة إلهيّة يمتنع معها صدور المعصية

⇐ وقصير باعتبار أنّ ما هو موجود في هذا الدهر الطويل، موجود بلا زيادة ولا نقصان في أيّام العمر القصير، فالعمر القصير ـ إذاً ـ مظهر للدهر الطويل.

١ـ «أُصول الكافي» ج ٢، ص ٤٥٩.

عنهم ، فلا يوجب ذلك سقوط التكليف عنهم وعدم صحّة توجّهه إليهم ؛ ولو كان ذلك لم يُتصوّر في حقّهم معصية كسائر من لا تكليف عليه ، ولم يكن معنى لعصمتهم .[1]

سؤال عيسى ابن مريم وإجابته في موقف القيامة

وقد وردت آيات في القرآن الكريم تتحدّث عن السؤال من عيسى ابن مريم على نبيّنا وآله وعليه السلام وإجابته :

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .[2]

موقف السؤال من النبيّ والأئمّة

روى عليّ بن إبراهيم القمّيّ في تفسيره ذيل الآية الأخيرة ، عن أبيه إبراهيم ، عن الحسن بن محبوب ، عن محمّد بن النعمان ، عن ضريس ، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى : هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ

١ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٧ ، ص ٢٠٥ .

٢ـ الآيات ١١٦ إلى ١١٩ ، من السورة ٥ : المائدة .

صِدْقُهُمْ ، قال :

إذا كان يوم القيامة وحُشر الناس للحساب ، فيمرّون بأهوال يوم القيامة ، فلا ينتهون إلى العرصة [1] حتّى يجهدوا جهداً شديداً . قال : فيقفون بفناء العرصة ويشرف الجبّار عليهم وهو على عرشه ؛ فأوّل من يُدعى بنداءٍ يسمع الخلائق أجمعون أن يهتف باسم مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَهِ النَّبِيِّ القُرَشِيِّ العَرَبِيِّ. قال : فيتقدّم حتّى يقف على يمين العرش . قال : ثمّ يُدعى بصاحبكم عليّ عليه السلام ، فيتقدّم حتّى يقف على يسار رسول الله صلّى الله عليه وآله . ثمّ يدعي بأُمّة محمّد فيقفون على يسار عليّ عليه السلام ، ثمّ يدعى بنبيٍّ نبيّ وأُمّته معه من أوّل النبيّين إلى آخرهم وأُمتهم معهم ، فيقفون على يسار العرش .

قال : ثمّ أوّل من يُدعى للمساءلة القلم .

قال : فيتقدّم فيقف بين يدي الله في صورة الآدميّين ، فيقول الله : هل سطّرتَ في اللوح ما ألهمتُك وأمرتُك به من الوحي ؟ فيقول القلم : نعم يا ربّ ؛ قد علمتَ أنّي قد سطّرتُ في اللوح ما أمرتني وألهمتني به من وحيك .

فيقول الله : فمن يشهد لك بذلك ! فيقول : يا ربّ ؛ وهل اطّلع على مكنون سرّك خلقٌ غيرك ؟ قال : فيقول له الله : أفلحت حجّتك .

قال : ثمّ يُدعى باللوح فيتقدّم في صورة الآدميّين حتّى يقف مع القلم ، فيقول له : هل سطّر فيك القلم ما ألهمتُه وأمرتُه به من وحيي ؟ فيقول اللوح : نعم يا ربّ ، وبلّغتُه إسرافيل . فيتقدّم مع القلم واللوح في صورة

١ـ العرصة هي الأرض المستوية التي لا بناء فيها . وجمعها العرصات . والمراد بها هنا الأرض الواسعة لموقف القيامة التي يحضر فيها الناس عند الله تعالى للسؤال والحساب .

الآدميّين . فيقول الله : هل بلّغك اللوح ما سطّر فيه القلم من وحيي ؟ فيقول : نعم يا ربّ ، وبلّغتُه جبرائيل .

فيُدعى بجبرائيل فيتقدّم حتّى يقف مع إسرافيل ، فيقول الله : هل بلّغك إسرافيل ما بلّغ ؟

فيقول : نعم يا ربّ ، وبلّغتُه جميع أنبيائك ، وأنفذتُ إليهم جميع ما انتهى إليّ من أمرك ، وأدّيت رسالتك إلى نبيّ نبيّ ورسولٍ رسول ، وبلّغتهُم كلّ وحيك وحكمتك وكتبك ، وإنّ آخر من بلّغتُه رسالاتك ووحيك وحكمتك وعلمك وكتابك وكلامك **مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَـهِ العَرَبِيُّ القَرَشِيُّ الحَرَمِيُّ** حبيبك .

قال أبو جعفر عليه السلام : فإنّ أوّل مَن يُدعى من ولد آدم للمساءلة **مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَهِ** صلّى الله عليه وآله ، فيُدنيه الله حتّى لا يكون خلقٌ أقرب إلى الله يومئذٍ منه ، فيقول الله : يا محمّد ! هل بلّغك جبرائيل ما أوحيتُ إليك وأرسلتُه به إليك من كتابي وحكمتي وعلمي ، وهل أوحى ذلك إليك ؟ فيقول رسول الله صلّى الله عليه وآله : نعم يا ربّ ، قد بلّغني جبرائيل جميع ما أوحيتَه إليه وأرسلته من كتابك وحكمتك وعلمك وأوحاه إليّ .

فيقول الله لمحمّد : هل بلّغتَ أُمّتك ما بلّغك جبرائيل من كتابي وحكمتي وعلمي ؟ فيقول رسول الله صلّى الله عليه وآله : نعم يا ربّ ، قد بلّغتُ أُمّتي ما أُوحى إليّ من كتابك وحكمتك وعلمك ، وجاهدتُ في سبيلك .

فيقول الله لمحمّد : فمن يشهد لك بذلك ؟ فيقول محمّد صلّى الله عليه وآله : أنت الشاهد لي بتبليغ الرسالة وملائكتك والأبرار من أُمّتي ، وكفى بك شهيداً ؛ فيُدعى الملائكة فيشهدون لمحمّد بتبليغ الرسالة .

ثمّ يدعى بأُمّة محمّد فيُسألون : هل بلّغكم محمّد رسالتي وكتابي وحكمتي وعلمي وعلّمكم ذلك ؟ فيشهدون لمحمّد بتبليغ الرسالة والحكمة والعلم .

فيقول الله لمحمّد : فهل استخلفتَ في أُمّتك مِن بعدك مَن يقوم فيهم بحكمتي وعلمي ، ويفسّر لهم كتابي ، ويبيّن لهم ما يختلفون فيه من بعدك حجّة لي وخليفة في الأرض ؟

فيقول محمّد : نعم يا ربّ ، قد خلّفت فيهم عليّ بن أبي طالب أخي ووزيري وخير أُمّتي ، ونصبتُه لهم علماً في حياتي ودعوتُهم إلى طاعته ، وجعلته خليفتي في أُمّتي وإماماً يقتدي به الأئمّة من بعدي إلى يوم القيامة .

فيُدعى **بعليّ بن أبي طالب** عليه السلام فيُقال له : هل أوصى إليك محمّد واستخلفك في أُمّته ونصبك علماً لأُمّته في حياته ، وهل قمتَ فيهم من بعده مقامه ؟

فيقول له عليّ : نعم يا ربّ ، قد أوصى إليّ محمّد وخلّفني في أُمّته ، ونصبني لهم علماً في حياته ، فلمّا قبضتَ محمّداً إليك جحدتني أُمّته ومكروا بي واستضعفوني وكادوا يقتلونني وقدّموا قدّامي من أخّرتَ ، وأخّروا من قدّمت ، ولم يسمعوا منّي ، ولم يطيعوا أمري ، فقاتلتُهم في سبيلك حتّى قتلوني .

فيقال لعليّ : فهل خلّفتَ مِن بعدك في أُمّة محمّد حجّة وخليفة في الأرض يدعو عبادي إلى ديني وإلى سبيلي ؟ فيقول عليّ : نعم يا ربّ ، قد خلّفتُ فيهم الحسن ابني وابن بنت نبيّك .

فيُدعى **بالحسن بن عليّ** عليهما السلام فيسأل عمّا سُئل عنه عليّ بن أبي طالب عليه السلام . قال : ثمّ يُدعى بإمامٍ إمام وأهل عالمه فيحتجّون بحجّتهم فيقبل الله عذرهم ويُجيز حجّتهم .

قال : ثمّ يقول الله : هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ. قال (ضريس راوي الحديث) : ثمّ انقطع حديث أبي جعفر عليه وعلى آبائه السلام .[1]

احتجاج الله على الأُمم في موقف العرصات

يروي المجلسيّ رضوان الله عليه عن كتابَي الحسين بن سعيد ، عن أبي الحسن بن عبد الله ، عن ابن أبي يعفور قال :

دخلتُ على أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام وعنده نفر من أصحابه ، فقال : يابن أبي يعفور هل قرأتَ القرآن ؟

قال ، قلت : نعم هذه القراءة .[2]

قال : عنها سألتُك ليس عن غيرها .

قال ، فقلتُ : نعم جُعِلتُ فداك ولِمَ ؟

قال : لأنّ موسى عليه السلام حدّث قومه بحديث لم يحتملوه عنه ، فخرجوا عليه بمصر فقاتلوه ، فقاتلهم فقتلهم ؛ ولأنّ عيسى عليه السلام حدّث قومه بحديث فلم يحتملوه عنه فخرجوا عليه بـ تكريت[3] فقاتلوه ، فقاتلهم فقتلهم . وهو قول الله عزّ وجلّ : فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَـٰهِرِينَ.[4] وأنّه أوّل قائم يقوم منّا أهل البيت يحدّثكم بحديث لا تحتملونه فتخرجون عليه

١ـ «تفسير عليّ بن إبراهيم» ص ١٧٨ إلى ١٨٠ ، الطبعة الحجريّة .

٢ـ يقصد قراءة عاصم ، وهي القراءة المشهورة للقرآن . ويروي عاصم هذه القراءة بواسطة واحدة عن أمير المؤمنين عليه السلام . وتختلف قراءة عاصم عن قراءة أُبيّ بن كعب وابن مسعود وسائر القراءات الأُخرى .

٣ـ يقول في «معجم البلدان» : تكريت بفتح التاء مدينة مشهورة بين بغداد والموصل ، وهي إلى بغداد أقرب منها إلى الموصل ، وتبعد عن بغداد ثلاثة فراسخ .

٤ـ الآية ١٤ ، من السورة ٦١ : الصفّ .

برميلة **الدسكرة** [1] فتقاتلونه فيقتلكم ، وهي آخر خارجة تكون ؛ ثمّ يجمع الله ـ يابن أبي يعفور ـ الأوّلين والآخرين ، ثمّ يُجاء بمحمّد صلّى الله عليه وآله في أهل زمانه ، فيقال له : يا محمّد ! بلّغت رسالتي واحتججت على القوم بما أمرتُك أن تحدّثهم به ؟ فيقول : نعم يا ربّ ـ وقد عَلِمَ اللهُ تبارك وتعالى أنّه قد فعل ذلك ـ يُعيد ثلاث مرّات فيصّدق محمّداً ويكذّب القوم ، ثمّ يُساقون إلى نار جهنّم ، ثُمّ يُجاء بعليّ في أهل زمانه فيقال له كما قيل لمحمّد صلّى الله عليه وآله ويكذّبه قومه ، ويصدّقه الله ويكذّبهم ، يعيد ذلك ثلاث مرّات ، ثمّ الحسن ثمّ الحسين ثمّ عليّ بن الحسين ـ وهو أقلّهم أصحاباً ،كان أصحابه أبو خالد الكابليّ ، ويحيى بن أُمّ الطويل ، وسعيد بن المسيّب ، وعامر بن واثلة ، وجابر بن عبد الله الأنصاريّ ، وهؤلاء شهود له على ما احتجّ به ـ ثمّ يؤتى بأبي ـ يعني محمّد بن عليّ ـ على مثل ذلك ، ثمّ يؤتى بي وبكم فأُسأل وتُسألون ، فانظروا ما أنتم صانعون .

يا بن أبي يعفور ! إنّ الله عزّ وجلّ هو الآمر بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أُولي الأمر الذين هم أوصياء رسوله .

يا بن أبي يعفور ! فنحن حجج الله في عباده ، وشهداؤه على خلقه ، وأمناؤه في أرضه ، وخزّانه على علمه ، والداعون إلى سبيله ، والعاملون بذلك ، فمن أطاعنا أطاع الله ، ومن عصانا فقد عصى الله . [2]

أجل ،كانت هذه نماذج من الروايات الدالّة على أنّ السؤال يوم

١ـ الدسكرة في اللغة الأرض المستوية . إلّا أنّ في «معجم البلدان» أنّها قرية كبيرة في نواحي نهر ملك غرب بغداد ، وهي أيضاً قرية في طريق خراسان قرب مدينة شهر آبان ؛ وهي أيضاً قرية مقابل الجبل ، وقرية في خوزستان .

٢ـ «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٨٤ و ٢٨٥ .

القيامة شامل لجميع العباد .

المقرّبون والمخلَصون لا يُسألون

الطائفة الثانية : الروايات التي لها دلالة على أنّ مَن مُحض الإيمان (الذين يُدعون بالمقرّبين) يدخلون الجنّة بغير حساب ، وأنّ المشركين الذين محضوا الشقاوة والإنكار والجحود يدخلون جهنّم بلا حساب وبلا سؤال . وكما ذُكر سابقاً ، فالذين خرج تدبير أُمورهم من أيديهم وأُوكل إلى الله تعالى ، سوف لن يكون لهم من وليّ ولا مهيمن متصرّف إلّا الله تعالى ، لأنّهم خرجوا من الإرادة والاختيار . ولكون عدم إسناد أعمالهم إليهم ، فلن يتعرّضوا إلى حساب أو سؤال . وأُولئكم هم المقرّبون والمخلَصون (بفتح اللام) الذين اختاروا الإقامة في مقام الفناء في الله عزّ وجلّ .

يقول تعالى : **فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ**.[1]

وفي المقابل ، فإنّ هناك أفراداً انغمروا في الكفر والشرك والإنكار والاستكبار ، وأخمدوا في قلوبهم تلك اللطيفة الإلهيّة وأفسدوها وأضاعوها بالمرّة ؛ فليس لهم ـ بعدُ ـ من وليّ إلّا الطاغوت ، لأنّ الله لا يتولّاهم .

وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ.[2]

وستحبط أعمال أمثال هؤلاء ، ولن يُنصب لهم يوم القيامة ميزان ، ولن يُعطوا كتاباً ، ولن يتعرّضوا للسؤال .

وقد تكلّمنا بحول الله وقوّته عنهم وعن خصائصهم مفصّلاً في بحث صحيفة الأعمال وميزان الأعمال (في الجزء السابع ، المجلس الثاني

١ـ الآيتان ١٢٧ و ١٢٨ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

٢ـ الآية ١١ ، من السورة ٤٧ : محمّد .

والأربعين ؛ وفي الجزء الثامن ، المجلس الرابع والخمسين) .

يروي الشيخ الطوسيّ في «الأمالي» عن الشيخ المفيد ، عن أبي غالب أحمد بن محمّد الزراريّ ، عن عمّه عليّ بن سليمان ، عن الطيالسيّ ، عن علاء ، عن محمّد ، قال :

سألتُ أبا جعفر محمّد بن عليّ عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : **فَأُولَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا.**[1] **فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يُؤْتَى بِالْمُؤْمِنِ الْمُذْنِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَامَ بِمَوْقِفِ الْحِسَابِ ، فَيَكُونُ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى حِسَابَهُ ، لَا يُطْلِعُ عَلَى حِسَابِهِ أَحَداً مِنَ النَّاسِ ، فَيُعَرِّفُهُ ذُنُوبَهُ ، حَتَّى إذَا أَقَرَّ بِسَيِّئَاتِهِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِـمَلَائِكَتِهِ: بَدِّلُوهَا حَسَنَاتٍ ! وَأَظْهِرُوهَا لِلنَّاسِ.**

فَيَقُولُ النَّاسُ حِينَئِذٍ : مَا كَانَ لِهَذَا العَبْدِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ إلَى الجَنَّةِ ؛ فَهَذَا تَأْوِيلُ الآيَةِ ، وَهِيَ فِي الْمُذْنِبِينَ مِنْ شِيعَتِنَا خَاصَّةً.[2]

وحين يكون الأمر بالنسبة إلى المؤمن المذنب بهذه الكيفيّة ، فكيف به بالنسبة إلى المقرّبين والمخلَصين الذين وهبوا أرجاء وجودهم إلى الله عزّ وجلّ ، والذين أخلصوا سلوكهم وأفكارهم ووجودهم لله وفي الله ؟

المشركون يدخلون النار بلا حساب

يروي الصدوق في «الأمالي» في خبر سعيد بن المسيّب ضمن رواية طويلة عن الإمام السجّاد عليه السلام ، قال :

ثُمَّ رَجَعَ الْقَوْلُ مِنَ اللهِ فِي الكِتَابِ عَلَى أَهْلِ المَعَاصِي وَالذُّنُوبِ ؛ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : «وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا

١ـ الآية ٧٠ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٢ـ «الأمالي» للطوسيّ ، ص ٤٤ و ٤٥ ، الطبعة الحجريّة .

ظَـٰلِمِينَ». [١]

فَإِنْ قُلْتُمْ ـ أَيُّهَا النَّاسُ ـ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا عَنَى بِهَذَا أَهْلَ الشِّرْكِ، فَكَيْفَ ذَلِكَ وَهُوَ يَقُولُ: «وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ». [٢]

اعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ لَا تُنْصَبُ لَهُمُ المَوَازِينُ وَلَا تُنْشَرُ لَهُمُ الدَّوَاوِينُ؛ وَإِنَّمَا تُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ لِأَهْلِ الإِسْلَامِ ـ الحديث. [٣]

كما روى في «عيون أخبار الرضا» بأسانيده الثلاثة عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحَاسِبُ كُلَّ خَلْقٍ إِلَّا مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يُحَاسَبُ وَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ. [٤]

في معنى محاسبة الأنبياء

إنّ البحث الذي أوردناه مؤخّراً عن المقرّبين والمخلَصين، وقولنا بعدم وجود حساب وسؤال وميزان وصحائف أعمال لهم، لا يتنافى مع ما ذكرنا في هذا المجلس من أنّ الحساب والسؤال يشملان جميع العباد، حتّى الأنبياء الكرام والنبيّ العظيم الشأن وأئمّة الهدى عليهم الصلاة والسلام، لأنّ المخلَصين والمقرّبين (الذين هم في حال الفناء) قد تخطّوا أمر الحضور في القيامة وأمر السؤال والجواب. أمّا الذين فازوا بعد فنائهم في الله بمقام البقاء في الله تعالى، والذين يمسكون بأزمّة أُمور تربية الخلق وتكاملهم

١ـ الآية ٤٦، من السورة ٢١: الأنبياء.

٢ـ الآية ٤٧، من السورة ٢١: الأنبياء.

٣ـ «بحار الأنوار»، ج ٧، ص ٢٥٨ و ٢٥٩، عن «أمالي الصدوق».

٤ـ «عيون أخبار الرضا» ص ٢٣٢، الطبعة الحجريّة.

تكويناً وتشريعاً ،كالأنبياء والأئمّة ، فإنّهم يمتلكون مقام الجامعيّة ، ويستوفون حظّ كلّ عالم على أكمل وجه ، ويحفظون شأن كلّ عالم على أتمّ نحو ، ويتأثّرون بآثار وخواصّ كلّ نشأة من النشآت . لذا فإنّهم سيتعرّضون للسؤال والحساب ، إلّا أنّ هناك بوناً شاسعاً بين حسابهم وحساب من سواهم .

فحساب الذين لم يبلغوا مقام الفناء في الله هو التوبيخ والمؤاخذة والتقريع والتبكيت ، أو اللوم والعتاب على أقلّ تقدير .كما أنّهم سيتعرّضون للحساب على التكليف تبعاً لشائبة الاثنينيّة التي تشوبهم .

أمّا حساب الأولياء ، والأنبياء والمقرّبين والمخلَصين الذين بلغوا مقام البقاء بعد الفناء ، فهو من باب المحادثة والمحاورة بين الحبيب والمحبوب ، ومن باب كشف أسرار الحرم الداخليّة بين صاحب الحرم وبين القريب الحميم . وتتّضح هذه الحقيقة بجلاء من خلال التأمّل في الأخبار الواردة التي تتحدّث عن السؤال من رسول الله وأئمّة الهدى والأنبياء العظام . والروايات الواردة بالمضامين المختلفة من قبيل : **لِي مَعَ اللَهِ وَقْتٌ لَا يَسَعَنِي فِيهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ**[1] تكشف هذه الحقيقة .كما يُعبّر عنها بالسَّفَر الرابع عند العرفاء بالله وأهل اليقين ، وهو السفر من الخلق بالحقّ ، ويُشار إليها في الغزليّات بتعبير المُسامرات الليليّة .

وَخَاطَبَنِي مِنِّي بِكَشْفِ سَرَائِرِي
فَقَالَ : أَتَدْرِي مَنْ أَنَا قُلْتُ مُنْيَتِي
فَصِرْتُ فَنَاءً فِي بَقَاءٍ مُؤَبَّدٍ
لِذَاتٍ بِدَيْمُومَةٍ سَرْمَدِيَّةٍ

---

١ ـ «مفاتيح الإعجاز» ص ٩٣.

فَأَغْـدُو وَأَمْـرِي بَـيْـنَ أَمْـرَيْـنِ وَاقِـفٌ
عُلُـومِـيَ تَمْحُـونِـي وَوَهْـمِـيَ مُثْبِتِـي
وَمَا شَـهِدَتْ عَيْنِـي سِـوَى عَيْـنَ ذَاتِهَا
وَإِنَّ سِــوَاهَــا لَا يَــلُــمُّ بِــفِـكْـرَتِـي
نَعَمْ نَشْـأَتِـي فِي الحُبِّ مِـنْ قَبْـلِ آدَمٍ
وَسِـرِّيَ فِي الأَكْـوَانِ مِنْ قَبْلِ نَشْـأَتِي[1]

• وقد ذكر المرحوم صدر المتألّهين في «الأسفار» في كيفيّة علم الله بما سواه ، وفي فصل آخر في علم الله السابق على الأشياء في موضوع «بسيط الحقيقة كلّ الأشياء» مطالب قيّمة جدّاً حول هذه المطالب وفي كيفيّة توحيد الحضرة الأحديّة تبارك وتقدّس وفي كيفيّة عالم الخلقة ، بحيث يتّضح من خلال تلك المطالب كيفيّة سؤال الله تبارك وتعالى المحبّين والمقرّبين والأنبياء العظام وكلامه معهم ، إلّا أنّ تلك المطالب خارجة عن عهدة هذا الكتاب .

مشكل عشق نه در حوصلهٔ دانش ماست
حلّ اين نكته بدين فكر خطا نتوان كرد[2]

إلّا أنّ كلام رسول الله صلّى الله عليه وآله هو الذي يكشف هذه الحقيقة : **نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ.**[3]

١ـ «طبقات الأخيار» للشعرانيّ ، ج ١ ، ص ١٨٢ ، عن العارف المشهور : الشيخ إبراهيم الدسوقيّ .

٢ـ «ديوان حافظ الشيرازيّ» ص ٥٠ ، طبعة پژمان ، انتشارات بروخيم ، سنة ١٣١٨ .
يقول : «إنّ مشكلة العشق لا يسعها علمنا ، لأنّ حلّ هذه النكتة بهذا الفكر الخاطئ أمر غير ميسور» .

٣ـ وردت هذه الرواية بهذا المضمون في «تحف العقول» ص ٣٧ ؛ ونقلها ⇦

موارد حبط الأعمال والتكفير

وتبقى في بحث عموميّة السؤال والحساب مسألة لابدّ من التعرّض إليها ، وهي : هل يحصل حَبْط وتكفير في الأعمال أم لا ؟

والحبط يعني إبطال العمل السيّئ آثار العمل الحسن ؛ أمّا التكفير فيعني تغطية آثار العمل الحسن آثار العمل السيّئ .

ومرجع هذا البحث ـ عموماً ـ إلى التساؤل عن التأثير المتبادل بين الأعمال الحسنة والأعمال السيّئة التي يجترحها الإنسان في حياته اليوميّة .

فهل ـ يا ترى ـ يمحو أقواهُما أضعفهما ؟ وهل إذا تساوى العملان في القوّة ، ضاع أثرَي الخير والشرّ بسبب تأثير العملينِ في بعضهما ؟

أم أنّ كلّاً من أعمال الخير وأعمال الشرّ سيُحفظ في موضعه دون أن يمحو أحدهما تأثير الآخر ، فتكون أعمال الخير وأعمال الشرّ التي فعلها الإنسان مشهودة له بأجمعها يوم القيامة ، بحيث يحصل على الثواب والعقاب في إزاء كلٍّ من تلك الأعمال ؟

يقول البعض بأنّ أعمال الخير وأعمال الشرّ محفوظة في مواضعها دون أن يؤثّر أحدها في الآخر أدنى تأثير ، ولا يمكن أن يكون لها فعل وانفعال مع بعضها .

⇐ المجلسيّ عن «تحف العقول» في «بحار الأنوار» ج ١٧ ، ص ٤١ : (الروضة) ؛ وروى البرقيّ في «المحاسن» ج ١ ، ص ١٩٥ بإسناده عن سليمان بن جعفر بن إبراهيم الجعفريّ مرفوعاً قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنبِيَاءِ نُكَلِّمُ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ ؛ وروى الكلينيّ في «الكافي» ج ١ ، ص ٢٣ ، عن جماعته ، عن أحمد بن محمّد بن عيسى ، عن الحسن بن عليّ بن فضال ، عن بعض أصحابنا ، عن الإمام الصادق عليه السلام ، قَالَ : مَا كَلَّمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ العِبَادَ بِكُنْهِ عَقْلِهِ قَطُّ . وَقَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ . كما أورد هذه الرواية في «روضة الكافي» ص ٢٦٨ .

ويقف آخرون في الجهة المقابلة لهذه العقيدة ، فيقولون بأنّ لجميع الأعمال تأثيراً على بعضها البعض ، وإنّ هناك تأثيراً وتأثّراً وحبطاً وتكفيراً بصورة مستمرّة . فإن بقيت آثار الأعمال الإيجابيّة في نهاية المطاف ،كان الإنسان من أصحاب الجنّة ؛ وإن تخلّفت آثار الأعمال السلبيّة في العاقبة صار من أصحاب الجحيم .

إلّا أنّ من الحقّ أن نقول بأنّ الحبط يحصل في بعض الموارد فقط ، أمّا في باقي الموارد فليس هناك ثمّة حبط ولا تكفير .

القاعدة الأساسيّة تقضي بانتفاء الحبط والتكفير

ولتوضيح هذه الحقيقة نقول : أوّلاً : إنّ القاعدة الأساسيّة تقضي بعدم حصول الحبط والتكفير . فلقد بدرت من الإنسان أعمال صار لكلّ منها وجود وأثر في عالم التكوين وفي النفس الإنسانيّة . والقاعدة الأساسيّة تقضي ببقاء تلك الأعمال وثبوتها ، وبأنّ أيّ عمل لا يمكنه ـ دونما دليل ـ إحباط العمل الآخر أو تكفيره تحت آثاره الجميلة .

وثانياً : إنّ الآيات القرآنيّة الكريمة والروايات الواردة عن المعصومين سلام الله عليهم أجمعين تشير إلى هذه الحقيقة ؛ فالآيتان :

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ.[1]

والآية : **وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ.**[2]

والآية : **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا.**[3]

١ـ الآيتان ٧ و ٨ ، من السورة ٩٩ : الزلزلة .

٢ـ الآية ٤٧ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٣ـ الآية ٣٠ ، من السورة ٣ : آل عمران .

والآيات الأُخرى الواردة في هذا الشأن صريحة في انتفاء الحبط والتكفير. كما أنّ الروايات ـ بدورها ـ لها نفس المنحى. وقد تحدّثنا بالقدر الوافي في هذا المجال في بحث صحيفة الأعمال وميزان الأعمال وذكرنا هناك الروايات الصريحة فيه.

بَيدَ أنّه قد صُرِّح في بعض الموارد بإحباط أعمال خاصّة، وينبغي علينا بطبيعة الحال، أن نرفع اليد في تلك الموارد عن تلك القاعدة الكلّيّة بموجب قاعدة التخصيص.

وقد جرى بيان هذه الموارد في القرآن الكريم؛ فأوّلها: الشرك بالله المتعال.

وثانيها: الكفر.

وثالثها: الارتداد.

ورابعها: التكذيب بآيات الله ولقائه.

وخامسها: التجاسر على مقام النبيّ الأكرم والأئمّة الطاهرين وعلى مقام الولاية. وقد بحثنا في هذا الأمر بحثاً مستفيضاً في المجلس الثالث والأربعين في الجزء السابع من كتاب «معرفة المعاد». ونكتفي بهذا المقدار هنا فلا نتوسّع.

هذا وقد عدّت بعض الروايات طائفةً من الأعمال القبيحة مدعاةً للحبط، ومن بينها عقوق الوالدين، والحسد، وعدم اتّباع حاكم الشرع الإسلاميّ وعدم طاعته، وظلم المستضعفين. إلّا أنّ من المسلّم أنّ هذه الأعمال لا تستدعي الإحباط الكلّيّ للأعمال ولا توجب الكفر والارتداد. وسيكون الحبط ـ في حال تحقّقه ـ حبطاً ضمنيّاً. وينبغي خلال التحقيق في هذه الموارد عدم نسيان درجات الحبط المختلفة تبعاً لدرجات قبح هذه الأعمال ولحاظ النسبيّة فيها جميعاً.

كما ورد في كثير من الآيات في شأن التكفير، أنّ التوبة تسبّب غفران الذنوب وتكفيرها، لأنّ الغفران والتكفير بمعنى الستر والتغطية، أي ستر شيء ما بغطاء وساتر يخفيه. وبطبيعة الحال فإنّ التوبة بمثابة الستار الذي يخفي الذنوب ويغطّيها.

الدرجات المختلفة لتبديل الأعمال بإرادة الله المتعال

وقد وردت في القرآن الكريم مطالب عامّة في تكفير الأعمال السيّئة أو محوها أو تبديلها حسنات، وفي مضاعفة أعمال الخير والحسنات.

الأوّل: تكفير الذنب وتغطيته بستر يلقيه الله عزّ وجلّ عليه في عالم المعنى والحقيقة. وقد نُصّ على هذا الأمر في عدّة موارد، منها في التوبة:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ.[1]

ومنها: اجتناب الكبائر، حيث يعفو الله تعالى عندئذٍ عن الصغائر. أي أنّ نفس اجتناب الكبائر يوجب غفران الصغائر وتكفيرها:

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ.[2]

ومنها: الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح، حيث يوجب ذلك غفران الذنوب السابقة:

وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ.[3]

ومنها: التقوى.

١ـ الآية ٨، من السورة ٦٦: التحريم.

٢ـ الآية ٣١، من السورة ٤: النساء.

٣ـ الآية ٩، من السورة ٦٤: التغابن.

وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ.[١]

وبصورة عامّة فإنّ كلّ عمل صالح يفعله الإنسان في سبيل الله تعالى يجعله في معرض غفران الله عزّ وجلّ ، فلو شاء تعالى عفى عن ذنوبه .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ.[٢]

الثاني : أنّ الأعمال الصالحة توجب محو السيّئات . أي أنّ الله تعالى سيمحو السيّئة ويعدمها :

إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ.[٣]

وتشير الآيات الواردة في موارد الحبط وما شابهها إلى محو الله تعالى للثواب والحسنات الموجودة :

وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا.[٤]

حيث إنّ الآية السابقة في معرض الحديث عن المستكبرين الذين لا يرجون لقاء الله تعالى .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ.[٥]

ومن هذا القبيل التعبير بالإضلال :

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ.[٦]

الثالث : أنّ الحسنات توجب تبديل السيّئات بالحسنات ، أي أنّها تبدّل جميع الذنوب والأعمال الطالحة أعمالاً حسنة صالحة :

١ـ الآية ٥ ، من السورة ٦٥ : الطلاق .

٢ـ الآيتان ٤٨ و ١١٦ ، من السورة ٤ : النساء .

٣ـ الآية ١١٤ ، من السورة ١١ : هود .

٤ـ الآية ٢٣ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٥ـ الآية ٩ ، من السورة ٤٧ : محمّد .

٦ـ الآية ٨ ، من السورة ٤٧ : محمّد .

إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُولَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا.[١]

الرابع : أنّ الله تعالى يُضاعف العمل الحسن القليل :

أُولَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا.[٢]

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا.[٣]

الخامس : أنّ الله تعالى يوجد العمل المعدوم الذي لا وجود له :

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ.[٤]

ويلاحظ هنا أنّ الذرّيّة التي تتبع الآباء تُلحق بهم في الأجر والعمل ، من دون أن يقسّم الله من عمل أُولئك الآباء على ذرّيّتهم . فالأبناء يتبعون آباءهم ويلحقون بهم ، فيَشركونهم في جميع الأعـمال الحسـنة والخـيرات التي كانت للآباء دون أن ينقص من أُولئكم شيء . وهذا هو معنى **اللحوق والإلحاق**. وهذه الآية في غاية الغرابة ، وباعثة على إبهاجنا نحن المؤمنين المقصّرين في العمل . حيث يلحقنا الله تـعالى بـلطفه ومـنّه وعـطفه ـ مـن خلال اتّـباعنا للآبـاء الكـرام والأجـداد العـظام ـ بأُولئك الآبـاء والأجـداد ، ويشركنا في خيراتهم وبرّهم ومجاهداتهم وسائر حسناتهم خطوةً فخطوة ، وشعرة فشعرة ، دون أن ينقص من نصيبهم قـدر ذرّة ، و **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ.**[٥] وسـنتحدّث إن شـاء اللـه

١ـ الآية ٧٠ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٢ـ الآية ٥٤ ، من السورة ٢٨ : القصص .

٣ـ الآية ١٦٠ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٤ـ الآية ٢١ ، من السورة ٥٢ : الطور .

٥ـ الآية ٤٣ ، من السورة ٧ : الأعراف .

تعالى في أمر اللحوق والإلحاق مفصّلاً في بحث الجنّة والنار الذي سنتعرّض له مستقبلاً.[1]

معنى النعيم، وتفسير آية: «لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ»

الثالثة: الروايات الدالة على أنّ الإنسان سيُسأل عن النعيم. وقد وردت هذه الروايات بأجمعها في تفسير الآية الكريمة في سورة التكاثر: **ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ.**[2]

قال المرحوم الشيخ الطبرسيّ في تفسير هذه الآية: قال مقاتل: يعني كفّار مكّة، كانوا في الدنيا في الخير والنعمة، فيُسألون يوم القيامة شكر ما كانوا فيه إذ لم يشكروا ربّ النعيم حيث عبدوا غيره وأشركوا به، ثمّ يعذّبون على ترك الشكر وهذا قول الحسن، قال: لا يُسأل عن النعيم إلّا أهل النار. وقال الأكثرون: إنّ المعنى: ثمّ لتسألنّ يا معاشر المكلّفين عن النعيم. قال قتادة: إنّ الله سائل كلّ ذي نعمةٍ عمّا أنعم عليه.

وقيل: عن النعيم في المأكل والمشرب وغيرهما من الملاذّ، عن سعيد بن جبير؛ وقيل: النعيم: الصحّة والفراغ، عن عكرمة؛ ويؤيّد هذا القول رواية ابن عبّاس، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: **نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ.**

وقيل: هو الأمن والصحّة، عن ابن مسعود ومجاهد. وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام؛ وقيل: يُسأل عن كلّ نعيم إلّا ما خصّه الحديث. وهو قوله صلّى الله عليه وآله:

١ـ أورد سماحة الأُستاذ العلّامة الطباطبائيّ مطالب نفيسة في كيفيّة التبديل والتغيير وأقسامه في «الميزان في تفسير القرآن» ج ١، ص ١٦٣، وفي ج ٢، ص ١٨٠ و ١٨١.

٢ـ الآية ٨، من السورة ١٠٢: التكاثر.

ثَلاثَةٌ لَا يُسْأَلُ عَنْهَا العَبْدُ : خِرْقَةٌ يُوَارِي بِهَا عَوْرَتَهُ ، أَوْ كِسْرَةٌ يَسُدُّ بِهَا جوعَتَهُ ، أَوْ بَيْتٌ يَكُنُّهُ مِنَ الحَرِّ وَالبَرْدِ.

وروي أن بعض الصحابة أضاف النبيّ صلّى الله عليه وآله مع جماعة من أصحابه ، فوجدوا عنده تمراً وماءً بارداً ، فأكلوا فلمّا خرجوا قال : هذا من النعيم الذي تُسألون عنه .

وروى العيّاشيّ بإسناده في حديث طويل قال : سأل أبو عبد الله عليه السلام أبا حنيفة عن هذه الآية ، فقال له : ما النعيم عندك يا نعمان ؟ قال : القُوت من الطعام والماء البارد . فقال : لئن أوقفك الله بين يديه يوم القيامة حتّى يسألك عن كلّ أكلةٍ أكلتها أو شربةٍ شربتها ليطولنّ وقوفُك بين يديه .

قال : فما النعيم جُعلت فداك ؟ قال : نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد ، وبنا ائتلفوا بعدما كانوا مختلفين ، وبنا ألّف الله بين قلوبهم فجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءً ، وبنا هداهم الله للإسلام ، وهو النعمة التي لا تنقطع ، والله سائلُهم عن حقّ النعيم الذي أنعم به عليهم وهو النبيّ صلّى الله عليه وآله وعترته عليهم السلام .[1]

ومن المؤسف أنّ النصف الأخير من «تفسير العيّاشيّ» قد فقدت نسخته وتعذّر العثور عليها في أيٍّ من مكتبات الدنيا ، ولولا ذلك لكنّا نقلنا هذه الرواية النفيسة من «تفسير العيّاشيّ» الذي يعدّ من أتقن كتب الشيعة ، وصاحبه مقدّم على الكلينيّ . وينبغي حقّاً أن يُعدّ فقدان هذا التفسير من خسارات المذهب الشيعيّ ، أشبه بخسارة فقدان كتاب «مدينة العلم» للشيخ الصدوق .

١ ـ «مجمع البيان» ج ٥ ، ص ٥٣٤ و ٥٣٥ ، طبعة صيدا .

يروي الراونديّ في «النوادر» بإسناده عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ، عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال :

كُلُّ نَعِيمٍ مَسْؤولٌ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إلَّا مَا كَانَ فِي سَبِيلِ اللَهِ تَعَالَى. [1]

ويروي البرقيّ في «المحاسن» عن ابن محبوب ، عن ابن رئاب ، عن الحلبيّ ، عن الإمام الصادق عليه السلام ، قَالَ:

ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ لَا يُحَاسَبُ العَبْدُ المُؤْمِنُ عَلَيْهِنَّ : طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ، وَثَوْبٌ يَلْبَسُهُ ، وَزَوْجَةٌ صَالِحَةٌ تُعَاوِنُهُ وَيُحْصِنُ بِهَا فَرْجَهُ. [2]

كما يروي في «المحاسن» عن أبيه ، عن القاسم بن محمّد ، عن الحارث بن حريزة ، عن سدير الصيرفيّ ، عن أبي خالد الكابليّ ، قال :

دَخَلْتُ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَدَعَا بِالغَدَاءِ فَأَكَلْتُ مَعَهُ طَعَاماً مَا أَكَلْتُ طَعَاماً قَطُّ أَنْظَفَ مِنْهُ ، وَلَا أَطْيَبَ مِنْهُ . فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الطَّعَامِ قَالَ: يَا أَبَا خَالِدٍ ! كَيْفَ رَأَيْتَ طَعَامَنَا ؟ قُلْتُ : جُعِلْتُ فِدَاكَ ، مَا رَأَيْتُ أَنْظَفَ مِنْهُ قَطُّ وَلَكِنِّي ذَكَرْتُ الآيَةَ الَّتِي فِي كِتَابِ اللَهِ : «لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ».

فَقَالَ : أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا ؛ إنَّمَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الحَقِّ. [3]

وفي «بشارة المصطفى» بإسناده عن أبي الطفيل ، عن أبي بردة قال :

قَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : لَا تَزُولُ قَدَمُ عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ حُبِّنَا أَهْلَ البَيْتِ.

قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَهِ ! مَا عَلَامَةُ حُبِّكُمْ ؟

١ـ «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٦١ ، عن «نوادر الراونديّ» .

٢ـ «المحاسن» ج ٢ ، ص ٣٩٩.

٣ـ «المحاسن» ج ٢ ، ص ٣٩٩ و ٤٠٠ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٦٥ و ٢٦٦ .

قَالَ : فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. [١]

وروى الصدوق في «عيون أخبار الرضا» بأسانيده الثلاثة عن الإمام الرضا ، عن آبائه عليهم السلام ، قَالَ :

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى : «ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ» ، قَالَ : الرُّطَبُ وَالمَاءُ البَارِدُ. [٢]

وروى عليّ بن إبراهيم القمّيّ في تفسيره عن أحمد بن إدريس ، عن أحمد بن محمّد ، عن سلمة بن عطاء ، عن جميل ، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، قال :

قُلْتُ : قَوْلُ اللهِ : «لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ» ؟

قَالَ : تُسْأَلُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَمَّا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ثُمَّ بِأَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. [٣]

ويروي البرقيّ في «المحاسن» عن أبيه ، عن ابن أبي عمير ، عن حفص بن البختريّ ، عن الإمام الصادق عليه السلام فِي قَوْلِهِ: «لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ» ؛ قَالَ :

إِنَّ اللهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ مُؤْمِناً عَنْ أَكْلِهِ وَشُرْبِهِ. [٤]

كما يروي المرحوم الصدوق في «عيون أخبار الرضا» بإسناده عن إبراهيم بن العبّاس الصوليّ قال : كنّا يوماً بين يدي عليّ بن موسى عليهما السلام فقال لي : ليس في الدنيا نعيم حقيقيّ . فقال له بعض الفقهاء ممّن

١ـ «بشارة المصطفى» ص ١٥٩ و ١٦٠ ، طبعة النجف ، وذكر في هذه النسخة المطبوعة «أبي الفضل» بدلاً من «أبي الطفيل» .

٢ـ «عيون أخبار الرضا» الباب ٣٠ ، ص ٢٣٥ ، الطبعة الحجريّة .

٣ـ «تفسير القمّيّ» ص ٧٣٨ ، الطبعة الحجريّة ؛ و «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٧٢ .

٤ـ «المحاسن» ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

يحضره : فيقول الله عزّ وجلّ : ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ، أمّا هذا النعيم في الدنيا وهو الماء البارد . فقال له الرضا عليه السلام وعلا صوته : كذا فسّرتموه أنتم وجعلتموه على ضروب ، فقالت طائفة : هو الماء البارد ، وقال غيرهم : هو الطعام الطيّب ، وقال آخرون : هو النوم الطيّب .

قال الرضا عليه السلام : ولقد حدّثني أبي عن أبيه أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّ أقوالكم هذه ذُكرت عنده في قول الله تعالى : ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ، فغضب عليه السلام وقال : إنّ الله عزّ وجلّ لا يسأل عبادَه عمّا تفضّل عليهم به ، ولا يمنّ بذلك عليهم ، والامتنان بالإنعام مُستقبح من المخلوقين ، فكيف يُضاف إلى الخالق عزّ وجلّ ما لا يرضى المخلوق به ؟! ولكنّ النعيم حبّنا أهل البيت وموالاتنا ، يسألُ اللهُ عبادَه عنه بعد التوحيد والنبوّة ، لأنّ العبد إذا وفى بذلك أدّاه إلى نعيم الجنّة الذي لا يزول . ولقد حدّثني بذلك أبي ، عن أبيه ، عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال :

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : يَا عَلِيُّ ! إنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ العَبْدُ بَعْدَ مَوْتِهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَنَّكَ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ بِمَا جَعَلَهُ اللهُ وَجَعَلْتُهُ لَكَ ؛ فَمَنْ أَقَرَّ بِذَلِكَ وَكَانَ يَعْتَقِدُهُ صَارَ إلَى النَّعِيمِ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ .

فقال لي أبو ذكوان بعد أن حدّثني بهذا الحديث مبتدئاً من غير سؤال : أحدّثك بهذا من جهات ، منها لقصدك لي من البصرة ، ومنها أنّ عمّك أفادنيه ، ومنها أنّي كنتُ مشغولاً باللغة والأشعار ولا أعول على غيرهما ، فرأيتُ النبيّ صلّى الله عليه وآله في النوم والناس يسلّمون عليه ويُجيبهم ، فسلّمت فما ردّ عَلَيَّ . فقلتُ : أمَا أنا من أُمّتك يا رسول الله ؟! قال لي : بلى ، ولكن حدّث الناسَ بحديث النعيم الذي سمعتَه من إبراهيم .

قال الصُّوْليّ : وهذا حديث قد رواه الناس عن النبيّ صلّى الله عليه وآله إلّا أنّه ليس فيه ذكر النعيم والآية وتفسيرها ، إنّما رووا أنّ :

أَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ الشَّهَادَةُ وَالنُّبُوَّةُ وَمُوَالاَةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.[1]

ويروي الفيض الكاشانيّ في «تفسير الصافي» عن «المجالس» للصدوق ، عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال :

مَنْ ذَكَرَ اسْمَ اللهِ عَلَى طَعَامٍ لَمْ يُسْأَلْ عَنْ نَعِيمِ ذَلِكَ الطَّعَامِ.[2]

كما يروي في « تفسير الصافي » عن « الاحتجاج » للطبرسيّ ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال :

إنَّ النَّعِيمَ الَّذِي يُسْأَلُ عَنْهُ ، رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَمَنْ حَلَّ

١ـ «عيون أخبار الرضا» الباب ٣٤ ، ص ٣٠٩ و ٣١٠ ، الطبعة الحجريّة ؛ وفي الطبعة الحروفيّة : ج ٢ ، ص ١٢٩ و ١٣٠ . وقال المرحوم الصدوق مؤلّف الكتاب : حدّثنا الحاكم أبو عليّ الحسين بن أحمد البيهقيّ قال : حدّثنا محمّد بن يحيى الصوليّ ، قال : حدّثنا أبو ذكوان القاسم بن إسماعيل بسيراف سنة خمس وثمانين ومائتين قال : حدّثنا إبراهيم بن عبّاس الصوليّ الكاتب بالأهواز سنة سبع وعشرين ومائتين ، قال : كنّا يوماً بين يدي عليّ بن موسى الرضا عليهما السلام ... إلى آخر الحديث الشريف الذي أوردناه . وينبغي العلم أنّ المحدّثين الأجلّاء الذين ينقلون حديثاً عن محدّث جليل يذكرون جميع جهات ذلك الحديث ، كأن يكون الحديث قد ذكر في السنة الفلانيّة ، وفي المدينة الفلانيّة ، وفي منزل الشخص الفلانيّ ، كأن يكون في منزل شخص ما في مدينة مشهد الرضويّة المقدّسة على مشرّفها السلام . ويبدو أنّ راوي هذا الحديث وهو محمّد بن يحيى الصوليّ كان له حاجة إلى أبي ذكوان ، كأن يريد أداء دَين له عليه ، أو فكّ رهن له عنده ، وأنّ أبا ذكوان كان قد وعده بالوفاء بها ، والآخر أنّ محمّد بن يحيى الصوليّ كان عازماً على الخروج من البصرة ، لذا فإنّ هذه الجهات التي كانت في هذين الشخصين عند رواية الحديث تعدّ من جهات الحديث ، وذُكرت على هذا الأساس .

٢ ـ «تفسير الصافي» ص ٥٧٣ ، الطبعة الحجريّة ، طهران .

مَحَلَّهُ مِنْ أَصْفِيَاءِ اللهِ ؛ فَإِنَّ اللهَ أَنْعَمَ بِهِمْ عَلَى مَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ.[1]

ويروي الكاشانيّ في «تفسير الصافي» عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لأبي حنيفة :

بَلَغَنِي أَنَّكَ تُفَسِّرُ النَّعِيمَ فِي هَذِهِ الآيَةِ بِالطَّعَامِ الطَّيِّبِ وَالمَاءِ البَارِدِ فِي اليَوْمِ الصَّائِفِ !

قَالَ : نَعَمْ !

قَالَ : لَوْ دَعَاكَ رَجُلٌ وَأَطْعَمَكَ طَعَاماً طَيِّباً وَسَقَاكَ مَاءً بَارِداً ثُمَّ امْتَنَّ عَلَيْكَ بِهِ ، إلَى مَا كُنْتَ تَنْسِبُهُ ؟

قَالَ : إلَى البُخْلِ !

قَالَ : أَفَيَبْخَلُ اللهُ تَعَالَى ؟!

قَالَ : فَمَا هُوَ ؟!

قَالَ : حُبُّنَا أَهْلَ البَيْتِ.[2]

وعلى أيّة حال ، فالروايات التي أوردناها في هذا المجال تعدّ كافية بحمد الله ومنّه في تفسير النعيم بمعانيه المختلفة ، ومُغنية عن إيراد باقي الروايات المماثلة لها في الموضوع والسياق . وعلى الراغبين في الاطّلاع على تفصيل أقوال الشيعة والعامّة في هذا المجال فليراجعوا «تفسير أبي الفتوح الرازي» رحمة الله عليه ؛ وعلى الراغبين بالاطّلاع على باقي الروايات أن يراجعوا «تفسير البرهان» و «بحار الأنوار» .[3]

وينبغي الآن أن نرى المعنى الحقيقيّ للنعيم ، والكيفيّة التي ينبغي

---

١ و ٢ـ «تفسير الصافي» ص ٥٧٣ ، الطبعة الحجريّة ، طهران.

٣ـ «تفسير أبي الفتوح» و «تفسير البرهان» سورة التكاثر ؛ و «بحار الأنوار» جزء المعاد ، ج ٧، باب محاسبة العباد.

علينا أن نجمع خلالها بين هذه الروايات المختلفة .

لقد ذكر سماحة أُستاذنا العلّامة الطباطبائيّ في «رسالة المعاد» في هذا المجال بحثاً مختصراً ومفيداً ضمن عدّة أسطر ، إذ إنّه سلك في تلك الرسالة سبيل الإيجاز والاختصار .[1] بَيدَ أنّ الحقير لمّا وجد تفصيل كلماته في «تفسير بيان السعادة» ، فقد ارتأيت أن أنقل بحول الله وقوّته تلك المطالب إلى طلّاب الحقّ والحقيقة ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم :

ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ.

قد ذكر في أخبار كثيرة من جملة النعيم المسؤول عنه ملائمات القوى الحيوانيّة والملاذ الدنيويّة ، كالطعام واللباس والرُّطب والماء البارد ؛ وفي أخبار أُخر إنكار أن يكون النعيم المسؤول عنه ذلك ، وأنّ السؤال والامتنان بالنعمة من وصف الجاهل اللئيم ، وأنّ الله قد نهى عن ذلك ، وأنّه سبحانه وتعالى الله لا يوصَف بما لا يرضاه لعباده ، وأنّ النعيم المسؤول عنه محمّد صلّى الله عليه وآله وعليّ عليه السلام ، أو حبّنا أهل البيت ، أو ولايتنا أهل البيت .

والتحقيق في هذا المقام والتوفيق بين الأخبار أنّ النعمة كما مرّ مراراً ليست إلّا الولاية وكلّ ما اتّصل بالولاية ، سواءً كان من ملائمات الحيوانيّة ، أم من مؤذيات القوى الحيوانيّة .

وبعبارةٍ أُخرى ، سواءً عُدّ من النعم الدنيويّة أم من النقم الدنيويّة كان نعمة ؛ وكلّ ما انقطع عن الولاية كان نقمة وإن كان بصورة النعمة . وكلّ من اتّصل بالولاية كان ضيفاً لله ، وكان جميع نعمه الصوريّة والمعنويّة مباحةً له ، وكان مأموراً بالتصرّف فيها بمنطوق قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

١ـ «رسالة الإنسان بعد الدنيا» النسخة الخطّيّة ، ص ٥١ .

كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ؛[1] ولا يسأل اللهُ عن شيء منها ، ولو سأل كان سؤاله مثل السؤال من الضيف وأنّه كيف أكل ولِمَ أكل وعلى أيّ مقدارٍ أكل ، ولِمَ لَمْ يعمل لي على قدر ما أكل ، وكان قبيحاً على البشر فكيف بخالق البشر ؟!

ومن انقطع عن الولاية كان جميع نعمه الصوريّة مغصوبة في يده ، وللحاكم والمالك أن يسأل الغاصب عن تصرّفاته في العين المغصوبة ، ولا قُبح في ذلك السؤال .

ولمّا كان الخطاب للمحجوبين المنقطعين عن الولاية ، فالمراد بالنعيم الولاية ، ثمّ جميع الملائمات الحيوانيّة والإنسانيّة ، وكان السؤال عن أداء شكرها وصرفها في مصرفها أو غير مصرفها .

أو المعنى:إذا رفع حجاب الخيال والوهم من بصائركم ووصلتم إلى دار العلم وشاهدتم الجحيم وآلامها والجنّات ولذّاتها ، وعاينتم أنّ النعيم الصوريّ صار سبباً لدخول الجحيم ، وأيقنتم أنّ النعيم الصوريّ كان نقمة في الحقيقة ، وأنّ النعيم كان الولاية ولوازمها التي هي الجنّة ونعيمها ، تُسألون أكان ماكنتم فيه من الملاذ الحيوانيّة نعيماً؟أم ما عليه المؤمنون ، توبيخاً لكم .

أو المعنى : أنّكم إذا وصلتم إلى مقام المعاينة تُسألون عن مقام حقّ اليقين ما هو ؛ لأنّكم بالمعاينة تجدون ذوق الحقيقة وجاز لكم السؤال والجواب عنها .

وما روي عن الرسول صلّى الله عليه وآله يؤيّد ما وُفِّقْنا به من الأخبار،فإنّه قال:**كُلُّ نَعِيمٍ مَسْئُولٌ عَنْهُ صَاحِبُهُ إلَّا مَا كَانَ فِي غَزْوٍ أَوْ حَجٍّ**.

١ـ الآية ١٧٢ ، من السورة ٢ : البقرة .

فإنّ السالك القابل للولاية في غزوٍ وحجّ ، شَعَرَ به أم لا .

وكذلك ما روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : **مَنْ ذَكَرَ بِسْمِ اللّهِ عَلَى الطَّعَامِ لَمْ يُسْأَلْ عَنْ نَعِيمِ ذَلِكَ** ؛ فإنّ الذاكر لاسم الله ليس إلّا من قبيل الولاية بالبيعة الخاصّة المولويّة ، فإنّ غيره بمضمون : **مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْخٌ تَمَكَّنَ الشَّيْطَانُ مِنْ عُنُقِهِ** ، قد تمكّن الشيطان منه ، وتكون كلّ أفعاله وأقواله وأحواله بتصرّف الشيطان ، فإذا قال بِسْمِ اللّهِ يتصرّف الشيطان فيه ويخلو اللفظ من معناه ويجعل نفسه في لفظ اللّهِ ، فيصير بِسْمِ اللّهِ في الحقيقة بِسْمِ الشَّيْطَانِ .[1] انتهى كلام «تفسير بيان السعادة» في معنى النعيم .

ويستفاد ممّا ذكر أنّ الإنسان لن يؤاخذ على كلّ نعمة يصرفها في سبيل الله تعالى ، وأنّ فعله سيكون مندوباً ومطلوباً . أمّا ما يصرفه في غير سبيله عزّ وجلّ ، سواءً كان المصروف عمراً أم قدرة أم علماً أم نعمة من النعم الدنيويّة والملاذّ الشهويّة ، كالولد والزوجة والعشيرة والأطعمة والأشربة والتفرّج على المناظر الخلّابة لجبال العالم وسهوله وغير ذلك ، فإنّه سيؤاخذ عليها ، لأنّ تلك الأعمال ليست مندوبةً من قبل خالق عالم الوجود ومالك منزل التكامل . ذلك لأنّ خلقة الإنسان هي لأجل الولاية ، والولاية تعني الحجاب الأقرب والاندكاك في عالم الفناء في الذات القدسيّة للحضرة الأحديّة ، وبلوغ مقام العبوديّة المحضة .

وتبعاً لهذه الحقيقة فإنّ النعيم هو الولاية : وكلّ مايفعله الإنسان كمقدّمة في سبيل بلوغ هذا المقصد الأعظم ينصبّ بأعظمه في طريق الولاية ويعدّ كلّه نعيماً . كما أنّ ما يفعله في اتّجاهٍ معاكس للولاية ، كسبيل الشيطان وطريق البُعد ومتابعة النفس الأمّارة ، يُعدّ بأجمعه نقمةً .

١ـ «تفسير بيان السعادة» ج ٢ ، ص ٣٢٢ ، الطبعة الحجريّة .

فحقيقة النعمة - إذاً - تتمثّل في بلوغ درجة شرف الإنسانيّة وبلوغ المقام الأصليّ والوطن المألوف الإلهيّ. وهذه هي الولاية، لأنّ حبّ محمّد وآل محمّد هو السلّم الوحيد للارتقاء إلى هذه الذروة السامقة والمقصد الأسنى.

وتبعاً لهذا الأساس فإنّ من يعتقد بهذا المقام ويجتهد في البحث عنه سيكون في جنّة النعيم؛ أمّا من يتمرّد فسينتمي إلى دار البوار وجهنّم النقمة ومحلّ الشياطين؛ وتبعاً لقوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ.[1] فإنّ صرف القوى الإنسانيّة والإحساسات والعواطف والأفكار يمثّل الصراط المستقيم ويمثّل النعمة.

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ.[2]

وهذا الصراط هو صراط الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين.

أُولَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰٓئِكَ رَفِيقًا.[3]

والآن وقد انتهى بحثنا في أمر السؤال عن النعيم، نصل إلى الجزء الرابع والأخير من البحث، والذي يدور حول موضوع السؤال والحساب.

الرابع: هل تتعرّض الحيوانات - شأنها شأن الإنسان - للحساب والسؤال؟

ذكرنا - في المجلس الأربعين من الجزء السادس لهذه السلسلة من

١ـ الآيتان ٢٨ و ٢٩، من السورة ١٤: إبراهيم.

٢ـ الآيتان ٦ و ٧، من السورة ١: الفاتحة.

٣ـ الآية ٦٩، من السورة ٤: النساء.

بحوث «معرفة المعاد» ـ أنّ الحيوانات تُحشر كما يُحشر الإنسان ، حيث تدّل الآية المباركة ٣٨، من السورة ٦ : الأنعام على هذا المطلب :

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ.

وقال الشيخ الطبرسيّ في تفسير هذه الآية : ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ: معناه يحشرون إلى الله بعد موتهم يوم القيامة كما يُحشر العباد ، فيعوّض الله تعالى ما يستحقّ العوض منها ، وينتصف لبعضها من بعض .

وفيما رووه عن أبي هريرة أنّه قال : يحشر اللهُ الخلق يوم القيامة البهائم والدوابّ والطير وكلّ شيء ، فيبلغ من عدل الله يومئذٍ أن يأخذ للجمّاء من القرناء ، ثمّ يقول كوني تراباً ، فلذلك يقول الكافر : يا ليتني كنت تراباً .

وعن أبي ذرّ قال : بينا أنا عند رسول الله صلّى الله عليه وآله إذ انتطح عنزان ، فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : أتدرون فيما انتطحا ؟ فقالوا : لا ندري ! قال : لكنّ الله يدري وسيقضي بينهما . وعلى هذا فإنّما جعلت أمثالنا في الحشر والاقتصاص ، واختاره الزجّاج ، فقال : يعني أمثالكم في أنّهم يبعثون ؛ ويؤيّده قوله :

وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ.[1]

واستدلّت جماعة من أهل التناسخ بهذه الآية على أنّ البهائم والطيور مكلّفة لقوله : أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ؛ وهذا باطل ، لأنّا قد بيّنّا أنّها من أيّ وجهٍ تكون أمثالنا ، ولو وجب حمل ذلك على العموم لوجب أن تكون أمثالنا في كونها على مثل صورنا وهيآتنا وخلقتنا وأخلاقنا ، وكيف يصحّ تكليف البهائم

١ـ الآية ١٥ ، من السورة ٨١: التكوير .

وهي غير عاقلة ، والتكليف لا يصحّ إلّا مع كمال العقل ! [١]

يروي البرقيّ في «المحاسن» عن أبيه مرفوعاً ، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام صعد المنبر بالكوفة فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال :

أيّها الناس ! إنّ الذنوب ثلاثة ؛ ثمّ أمسك . فقال له حَبَّةُ العُرَنِيُّ : يا أمير المؤمنين ! قلتَ الذنوب ثلاثة ثمّ أمسكتَ !

فقال له : ما ذكرتُها إلّا وأنا أريد أن أفسرّها ، ولكنّه عرض لي بهرٌ حال بيني وبين الكلام . نعم ؛ الذنوب ثلاثة ، فذنب مغفور ، وذنب غير مغفور ، وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه .

قيل : يا أمير المؤمنين ، فبيّنها لنا !

قال : نعم ؛ أمّا الذنب المغفور فعبدٌ عاقبه الله على ذنبه في الدنيا ، فالله أحكم وأكرم أن يعاقب عبده مرّتين . وأمّا الذنب الذي لا يُغفَر فظُلم العباد بعضهم لبعض . إنّ الله تبارك وتعالى إذا برز لخلقه أقسم قسماً على نفسه فقال :

وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يَجُوزُنِي ظُلْمُ ظَالِمٍ وَلَوْ كَفٌّ بِكَفٍّ ، وَلَوْ مَسْحَةٌ بِكَفٍّ ،[٢] وَنَطْحَةٌ مَا بَيْنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ إلَى الشَّاةِ الجَمَّاءِ . فَيَقْتَصُّ اللهُ لِلْعِبَادِ

١ـ تفسير «مجمع البيان» ج ٢ ، ص ٢٩٨ ، طبعة صيدا ؛ و«بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٥٦ .

٢ـ قال المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ٣ ، ص ١٠٠ ، طبعة الكمبانيّ ، باب التسوية ، بعد بيان هذه الرواية : لعلّ المراد بالكفّ أوّلاً المنع والزجر ، وبالثاني اليد ؛ ويحتمل أن يكون المراد بهما معاً اليد ، أي تضرّر كفّ إنسان بكفّ آخر بغمزٍ وشبهه ، أو تلذّذ كفّ بكفّ . والمراد بالمسحة بالكفّ ما يشتمل على إهانة وتحقير أو تلذّذ .

ويمكن حمل التلذّذ في الموضعين على ما إذا كان من امرأة ذات بعل ، أو قهراً ⇦

بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ، حَتَّى لَا يَبْقَى لِأَحَدٍ عِنْدَ أَحَدٍ مَظْلِمَةٌ ، ثُمَّ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ إِلَى الحِسَابِ.

وأمّا الذنب الثالث فذنبٌ ستره الله على عبده ورزقه التوبة ، فأصبح خاشعاً من ذنبه ، راجياً لربّه ، فنحنُ له كما هو لنفسه ، نرجو له الرحمة ونخاف عليه العقاب .[1]

وقال المجلسيّ رضوان الله عليه : قال الرازيّ في تفسير قوله تعالى : **وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ** : قال قتادة : يحشر كلّ شيء حتّى الذباب للقصاص . وقالت المعتزلة : إنّ الله تعالى يحشر الحيوانات كلّها في ذلك اليوم ليعوّضها على آلامها التي وصلت إليها في الدنيا بالموت والقتل وغير ذلك ، فإذا عُوّضت عن تلك الآلام فإن شاء اللهُ أن يبقي بعضها في الجنّة إذا كان مستحسناً فعل ، وإن شاء أن يفنيه أفناه على ما جاء به الخبر . وأمّا أصحابنا (الأشاعرة) فعندهم أنّه لا يجب على الله شيء بحكم الاستحقاق ، ولكنّ الله تعالى يحشر الوحوش كلّها فيقتصّ للجمّاء من القرناء ، ثمّ يُقال لها : موتي ! فتموت ـ انتهى كلام الفخر الرازيّ .

ثمّ يقول المجلسيّ : الأخبار الدالّة على حشرها عموماً وخصوصاً وكون بعضها ممّا يكون في الجنّة كثيرة سيأتي بعضها في باب الجنّة ، وقد مرّ بعضها في باب **الرُّكْبَان يَوْمَ القِيَامَةِ** وغيره . كقولهم عليهم السلام في مانع الزكاة :

تَنْهَشُهُ كُلُّ ذَاتِ نَابٍ بِنَابِهَا ، وَيَطَأُهُ كُلُّ ذَاتِ ظِلْفٍ بِظِلْفِهَا.

وروى الصدوق في «الفقيه» بإسناده عن السكونيّ ، بإسناده أنّ النبيّ

⇐ بدون رضا الممسوح فيكون من حقّ الناس .

١ـ «المحاسن» ج ١ ، ص ٧ .

صلّى الله عليه وآله أبصر ناقةً معقولة وعليها جهازها ، فقال :

أَيْنَ صَاحِبُهَا ؟ مُرُوهُ فَلْيَسْتَعِدَّ غَداً لِلْخُصُومَةِ !

وروى فيه أيضاً ، عن الصادق عليه السلام ، أنّه قال : **أيُّ بَعِيرٍ حُـجَّ عَلَيْهِ ثَلَاثَ سِنِينَ يُجْعَلُ مِنْ نَعَمِ الجَنَّةِ**. وروى **سَبْعِ سِنِينَ**.

وقد روى عن النبيّ صلّى الله عليه وآله : **اسْتَفْرِهُوا ضَحَايَاكُمْ ، فَإنَّهَا مَطَايَاكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ.**

وروى : **إنَّ خُيُولَ الغُزَاةِ فِي الدُّنْيَا خُيُولُهُمْ فِي الجَنَّةِ.**[1]

وينبغي العلم أنّ الحيوانات ليست مكلّفة باعتبار عدم امتلاكها عقلاً ، إلّا أنّها ـ بقدر شعورها وسعة ماهيّة وجودها ـ تشخّص الخطأ من الصواب ، والخيانة من الأمانة ، وهذا القدر كافٍ للسؤال والحساب . وقد شاهدنا في أيّام حياتنا تفاوت كثير من الحيوانات كالكلاب والخيول والقطط في هذه المعاني تفاوتاً ملحوظاً .

قال ابن طاووس في كتاب «مهج الدعوات» : وجدتُ ما هذا لفظه : قال الفضل بن الربيع : اصطبح الرشيدُ يوماً ثمّ استدعى حاجبه فقال : امضِ إلى **عليّ بن موسى العلويّ** وأخرجه من الحبس وألقه في بركة السباع ! ثمّ ذكر أنّه أخذه حتّى انتهى إلى البركة ، ففتح بابها وأدخله فيها ، وفيها أربعون سبعاً ، ثمّ ذكر أنّ الخليفة رأى رؤيا هائلة ، وأنّه دعاه نصف الليل فأمره أن يذهب وينظر إليه ، فنظر إليه فإذا هو قائم يصلّي والسباع حوله ، ثمّ إنّ الرشيد نهض حتّى نظر إليه كذلك ، فأمر بإخراجه ثمّ أكرمه وأمر له بصلة وكسوة .[2]

١ـ «بحار الأنوار» ج ٧ ، ص ٢٧٦ ، الطبعة الحروفيّة .

٢ـ «إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات» ج ٦ ، ص ١٤٧ ، نقلاً عن السيّد ابن ⇦

وعلى أيّة حال ، فليس عـجباً أن تـمتلك الوحـوش شـعوراً يـجعلها تعرف الإمام ؛ بل العجب ـ كلّ العجب ـ من بني آدم الذين يعدّون أنفسهم أشرف المخلوقات ، ثمّ يأمرون بإلقاء ابن فاطمة في بركة السِّباع !!

⇐ طاووس.



فهرس التأليفات



بسم الله الرّحمن الرّحيم

تقوم مؤسّسة ترجمة و نشر

(دورة العُلوم و المعارف الإسلاميّة)

من تأليفات

العلامة آية الله الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ

بنشر وترجمة كتب سماحته وهي كالآتي :

دورة المعارف :

معرفة الله (١) (الله شناسى)	ثلاثة أجزاء
معرفة الإمام (٢) (امام شناسى)	ثمانية عشر جزء
معرفة المعاد (٣) (معاد شناسى)	عشرة أجزاء

دورة العلوم :

الأخلاق و الحكمة و العرفان (٤)

١ ـ رسالة السير والسلوك المنسوبة إلى بحر العلوم

(رسالۀ سير و سلوک منسوب به بحر العلوم)

فهرس التأليفات

الأبحاث التأريخيّة (٧)

١ ـ لَمَعات الحُسين عليه السلام

٢ ـ الهديّة الغديريّة : رسالتان قاتمة ومشرقة

(هديّهٔ غديريّه : دو نامهٔ سياه و سپيد)

هذه هي مجموعة من الكتب التي أُلّفت من قِبل المؤلّف قدّس سرّه ، والتي بادرت « مؤسّسة ترجمة ونشر دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة » إلى ترجمتها وتقديمها تدريجيّاً إلى القرّاء المحترمين ، وهناك مجموعة أُخرى للمؤلّف لم تنشر بعد .

وللحصول على نظرة إجماليّة لهذه المؤلّفات ، يمكنكم الرجوع إلى نهاية الجزء الأوّل من هذا الكتاب .










Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

